القراءة للجميع
٢٠٠٥
مكتبة الأسرة

سلسلة العلوم الاجتماعية

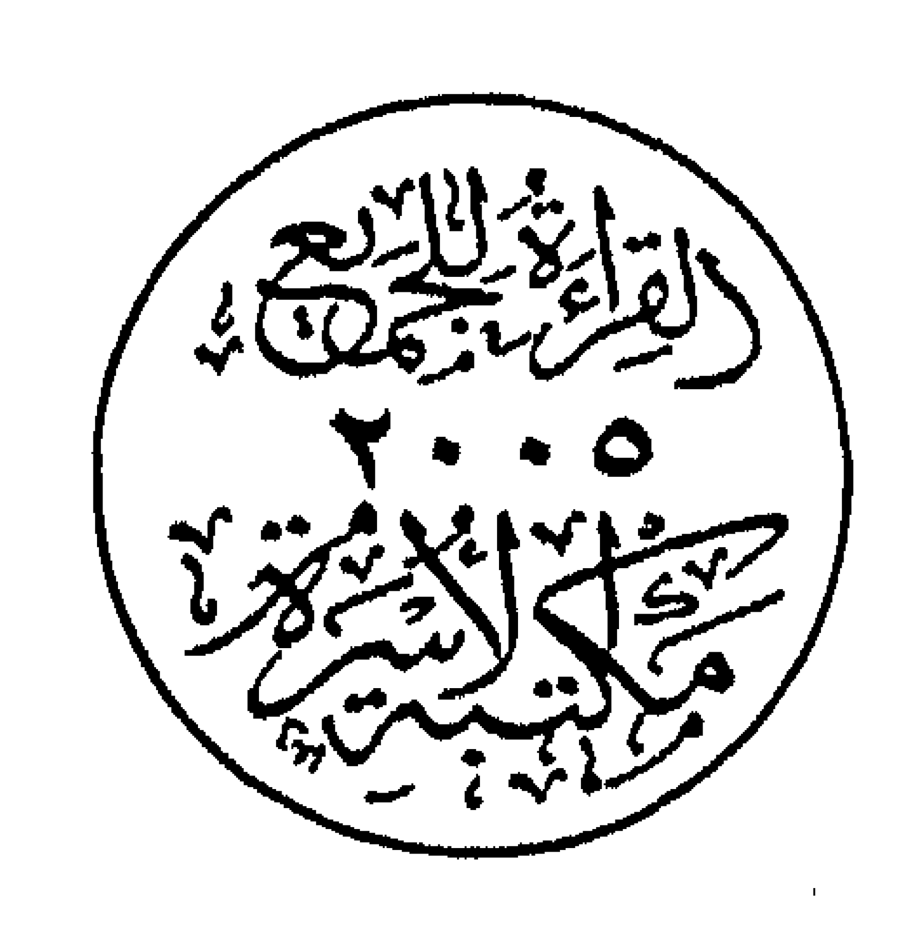
الجماعات الهامشية المنحرفة
فى تاريخ مصر الاجتماعى الحديث

د. سيد عشماوى

الجماعات الهامشية المنحرفة

فى تاريخ مصر الاجتماعى الحديث

د. سيد عشماوى



برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام

د. ناصر الأنصارى

الإشراف الطباعى

محمود عبد المجيد

الغلاف والإشراف الفنى

صبرى عبد الواحد

ماجدة عبد العليم

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

تصدير

احتل مفهوم الطبقة الاجتماعية مكانة بارزة فى التراث السوسيولوچى بوجه عام، لاسيما تلك الدراسات التى اتخذت من «المادية التاريخية» منطلقًا نظريًا لها. حيث كان «المجتمع الطبقى» هو الموضوع الأساسى فى علم الاجتماع الماركسى، وما انبثق عنه من فروع ونظريات تحلل التاريخ الإنسانى للمجتمع البشرى، منذ مرحلة المشاعية البدائية ومرورًا بالمراحل التاريخية المختلفة العبودية والإقطاعية والرأسمالية، وحتى المجتمع الشيوعى الذى دشنت له ثورة أكتوبر البلشفية فى روسيا القيصرية ١٩١٧. حيث كان المجتمع ينقسم دائمًا إلى طبقتين رئيسيتين فيما قبل (أسياد وعبيد، نبلاء وأقنان، رأسماليون وبروليتاريا) بالإضافة إلى بعض الفئات والجماعات الهامشية الأخرى التى يطلق عليها «البروليتاريا الرثة»، و التى لم تحظ بنصيب كاف من الدراسة والبحث.

وفى هذا الكتاب يتناول د. سيد عشماوى الباحث الأكاديمى بجامعة القاهرة، موضوعًا مهمًا وغاية فى الحساسية وهو «الجماعات الهامشية المنحرفة فى تاريخ مصر الاجتماعى الحديث» الذى ظل لفترات متفاوتة مسكوتًا عنه فى الدراسات العلمية ذات الصبغة التاريخية، رغم تزايد هذه الجماعات وانتشارها ومن ثم تعاظم مخاطرها.

وقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن العشرين إهتمامًا متزايدًا بدراسة الفئات والشرائح الاجتماعية المهمشة داخل مصر وخارجها ـ كما يشير المؤلف ـ من جانب علماء الاجتماع والسياسة والقانون، لاسيما تلك الفئات الحضرية ذات

السمات والظروف الخاصة داخل النسق الاجتماعى ـ أو خارجه، والتى تحتل مكانة هامشية فى حياة المجتمع، مثل سكنى العشوائيات والغجر والبلطجية والمتسولين. وإن افتقدت تلك الدراسات ـ فى غالب الأحيان ـ للقدر الوافى من البحث والتحليل لدور هذه الجماعات فى تاريخ مصر.

وكما هو الحال فى دراسة الظواهر الاجتماعية يسعى الباحث من خلال استخدامه للمنهج العلمى إلى تقصى الجذور التاريخية لنشأة هذه الجماعات الهامشية فى مصر كنتاج لظروف وأوضاع مجتمعية سياسية واقتصادية واجتماعية ـ خاصة فى الفترة منذ أواخر العصر المملوكى وحتى البدايات الأولى لعصر محمد على ـ للكشف عن طبيعة دور هذه الجماعات وصراعها مع الواقع، وتمردها على النمط السائد فى المجتمع، ورصد وتحليل تحركات هذه الجماعات ـ وبخاصة النشالون واللصوص ـ على المسار الاجتماعى، وما بينها من اتصال قد يهدد السلطة الحاكمة ونسق التماسك فى المجتمع.

وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ٢٠٠٣ عن مركز البحوث والدراسات الاجتماعية بكلية الآداب جامعة القاهرة. وتقدمه مكتبة الأسرة هذا العام فى طبعة جديدة لأهمية موضوعه.

مكتبة الأسرة

الإهداء

إلى الأديب المبدع الفنان أستاذى

نجيب محفوظ

أعمالك الروائية إضافة حقيقية إلى تاريخ مصر، بكل ما تتضمنه من إيحاء ودلالة وصدق لجزئيات الواقع الحياتى المجتمعى، وفى ظل اغتراب العلم التاريخى وتجاهله وتهميشه لبعض الشرائح والجماعات الشعبية، تأتى أعمالك وعلى وجه الخصوص «اللص والكلاب» «ملحمة الحرافيش» «الشحاذ» لتعطى المؤرخ صورًا أكثر مصداقية عما حوته الكتابات ذات الصبغة الرسمية.

إلى صاحب ملحمة الحرافيش الذى أعطى للفتوة واللصوصية بعض قيم المروءة والشهامة، وبحيث أصبح لمن أطلق عليهم «الأسافل الأوغاش والأراذل الأوباش» تاريخ لا يتجزأ عن تاريخ الوطن والذى هو الشوق حقًا إلى الحياة. كل ما فى الأمر، كما يقول مطران:

ما بين لصوص ولصوص	فرق في الأعلى والأدنى
لصغارهم الشنق المزرى	وكبارهم الشرف الأسنى

د. سيد عشماوى

٦ أكتوبر ٢٠٠٢

فهرس المحتويات

الباب الثالث

الحركة التاريخية لبعض الجماعات الهامشية

مقدمة

هذه الدراسة مخاطرة علمية، تحاول فى حدود الإمكان وبقدر المستطاع اجتياز إحدى الطرق الصعبة الحساسة فى دراسة تاريخنا الحديث، لما هو مسكوت عنه أحيانًا فى الدراسات العلمية ذات الصبغة التاريخية، تنظر بعين القلق على بعض ظواهر عصرنا وبصفة خاصة تزايد الجماعات الهامشية أشكالاً وألوانًا، على ظاهرة البلطجة وانتشارها، ترتد إلى الماضى وعلى وجه التحديد التاريخى الفترة التى تمتد من أواخر العصر المملوكى حتى البدايات الأولى لبناء دولة مصر محمد على، تستنطق ما هو مكتوب بين السطور لتلك الجماعات الهامشية والمهمشة المرتبطة بأعمال اللصوصية والسرقة والسلب والنهب. تصنفهم باللجوء فى بعض الأحيان إلى المعاجم اللغوية المعاصرة والتى وجد فيها كاتب هذه السطور من الثراء والوفرة للدلالة اللغوية التى أثرت بحق البحث التاريخى. تعدد وتباين المصطلحات والمفاهيم والتصورات، وهى، وإن اختلفت من زمان لآخر ومن مكان إلى مكان، لكن يظل لها أصل واحد وفروع كثيرة. هذه الأفرع مرتبطة ببعضها أشد الارتباط بحيث يمكننا على حد قول فيلسوفنا العقلانى ابن رشد أن نفصل المقال ونقرر ما بين هذه الجماعات الهامشية من اتصال. لجأت هذه الدراسة أحيانًا إلى بعض الخطط، والقواميس الجغرافية لتبيين التواجد والانتشار المكانى لبعض هؤلاء ليس فقط فى أطراف

القاهرة وحاراتها البرانية وجباناتها، كما اكتشفت بعض الأماكن خارجها إلى هؤلاء مثل قرية الحرافشة بمديرية جرجا، وطوخ الحرامية، وكفر اللصوص (مديرية الشرقية)، ومنشأة خلبوص.

لم تقتصر هذه الدراسة على السرد التاريخى المل أحيانًا والمخل فى أغلب الأحيان ولكنها بقدر المستطاع حاولت وضع هذه الجماعات فى سياقها التاريخى، أو بمعنى أصح حاولت أن تربط نموهم وازديادهم فى بعض الفترات بالأوضاع المجتمعية، خاصة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وركزت على أن عنف هذه الجماعات كان مرتبطًا بشكل أو بآخر بعنف السلطة وتسلطها وتعسفها، وتؤكد أن ثمة درجات من اللصوصية والسرقة قد تتفاوت بين الكبار والصغار، بين الأسافل وبين الأعالى، تستشهد بما ذكره الأبشيهى فى (المستطرف فى كل فن مستظرف): «مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف، فقال ما هذا؟ قيل السلطان يقطع سارقًا، فقال: لا إله إلا الله، سارق العلانية يقطع سارق السر!!» وتتذكر ما كتبه ابن إياس فى (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) فى أحداث رمضان سنة ٩٤٢هـ أن «شخصًا من العثمانية كان فى خان الخليلى فقبض على شخص من العوام وزعم أنه سرق من جيبه أربعة أنصاف وأنه قبض على يده فى جيبه. طلع به إلى ملك الأمراء. أمر بقطع يده وعلقها على رقبته وأشهره فى القاهرة فتأسف الناس عليه كيف قطعت يده على أربعة أنصاف، وقد راح ظلمًا». تركز على ظروف الفقر والإفقار، الغلاء والوباء الذى نمت فيه هذه الجماعات وتزايدت، تركز على بعض أصحاب الحرف المتدنية، أرباب الملاهى والمغانى، حيث عشعشت بعض هذه الجماعات.

تركز هذه الدراسة على مسار بعض هذه الجماعات، وهم النشالون واللصوص على وجه التحديد لتنتقل من رؤية أحادية الجانب تنظر إلى عمليات السرقة والسلب والنهب وقطع الطريق المرتبطة بهذه الجماعات إلى رؤية أخرى تستكمل الوجه الآخر من العملة: رؤية الدور العام السياسى الذى لعبته بعض

هذه الجماعات فى تاريخ مصر الحديث حيث تم الالتقاء بين العوام وأولاد القرافة والأطراف والحارات البرانية هؤلاء الذين وصفوا بالأسافل الأوغاش، والأراذل الأوباش.

هذا جهد علمى مبذول فى منطقة حساسة خطرة.

يتمنى كاتب هذه السطور أن يكون قد وضع لبنة فى طريق استكمال هذا الموضوع والذى يحتاج إلى جهود كبيرة ومتضافرة من قبل المهتمين بدراسة تاريخنا المصرى الحديث والمعاصر.

د. سيد عشماوى

القاهرة في ٦ أكتوبر ٢٠٠٢م

الباب الأول

مقاربات منهجية ودلالات زمكانية

الفصل الأول: حول الأهمية النسبية للدراسة، جدل الماضى والحاضر.

الفصل الثانى: تعدد وتباين المصطلحات والمفاهيم، دلالات لغوية تاريخية.

الفصل الثالث : التواجد والانتشار المكانى، من القرافة إلى الأطراف.

الفصل الأول

حول الأهمية النسبية لدراسة الجماعات الهامشية
جدل الماضى والحاضر

إحدى وظائف المعرفة التاريخية الوعى بالحاضر ومعرفة جذوره فى الماضى. البحث وراء الوقائع والظواهر التاريخية، تمحيصها وتفسيرها. إدراك دلالاتها بمراعاة العلاقة الجدلية بين كينونتها وصيرورتها، وهى حقائق موضوعية نسبية على أية حال، والمؤرخ الذى أوتى من قوة الاستقراء والشفافية والمعرفة التاريخية وبما يمتلكه من قدرة على التخيل وأوتى معرفة بالمنهج التاريخى الاستردادى يستطيع إدراك مدى تأثير وفاعلية الظواهر الماضية فى الإحاطة بالحاضر.

وقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن العشرين اهتمامًا متزايدًا بدراسة الفئات والشرائح الاجتماعية المهمشة، داخل مصر وخارجها، بذله على وجه الخصوص علماء الاجتماع والسياسة والقانون[1]. وفى مصر ظهرت دراسات عن: سكان العشوائيات، الغجر، التشرد والتسول، الباعة الجائلين، البلطجية، وغيرها من تلك الفئات الحضرية التى تميزت بخصائص لافتة للنظر ذات دلالات اجتماعية عن مجرى التطور العام، أو بمعنى أصح لها ظروفها الخاصة داخل النسق الاجتماعى - أو خارجه - واحتلت مكانة هامشية فى حياة المجتمع،

إذ نبذت طبقيًا من الجماعات الأخرى أعلى السلم الاجتماعى. هى فئات فى حالة صراع دائم مع الواقع، تمردوا عليه وحاولوا بطرق غير شرعية أن يحصلوا على ما قد تصوروه حقًا لهم. أصبحوا يمثلون برميل بارود قابل للانفجار فى أية لحظة خاصة، عندما تضطرب التشكيلة الاجتماعية أو تفقد تماسكها.

الفقر والإفقار وتردى الأحوال وهموم المعيشة، الغلاء مع الوباء كانت دائمًا من العوامل المسئولة عن زيادة حجم تلك الفئات وتزايد فعالياتها.

ولأن أفرادها يعيشون على هامش المجتمع دائمًا ولكونهم غير مندمجين فيه فهم أضعف صلة من الفئات والطبقات الكادحة الأخرى خاصة أهل الفلاحة وأصحاب الحرف، بنظام القيم والأعراف الشرعية، ومن ثم تتميز بقلة استجابتها لما تبديه الطبقات المسيطرة من مزاعم إصلاح أحوال البلاد والعباد، وبعدها عن النمط السائد فى المجتمع جعلها تفلت من كل محاولة لرصد تحركاتها على المسار الاجتماعى وبالتالى يصعب تقدير أعدادها إحصائيًا حيث لا تتوافر المعلومات، والكتابات التاريخية لا تتعرض لها إلا لمامًا وفى فترات متقطعة وبين ثنايا السطور خاصة إبان الأزمات الاقتصادية السياسية وتتناثر بين صفحات الكتب أسطر حول أنماط هؤلاء وما يقومون به، أساليبهم، آدابهم، تقاليدهم المهنية، تراثهم الفنى.

لاحظ كاتب هذه السطور من خلال ما قدمه علماء الاجتماع والسياسة والقانون وغيرهم ممن اهتموا بإعطاء خلفية تاريخية لكتاباتهم العلمية حول الفئات المهمشة أن الجهد المبذول كان ضئيلاً ولا يتناسب مع التراكم التاريخى مع تحليلهم لوقائع ومعطيات الحاضر، ويبدو أن حجتهم القوية وعذرهم المقبول فى ذلك أن هذه هى مهمة المؤرخ «وأهل مكة أدرى بشعابها». وفى نفس الوقت لاحظ الكاتب أنه رغم وجود بعض الكتابات التاريخية عن «العوام» فى تاريخ مصر المملوكية - العثمانية، فإن تحليل دور الجماعات الهامشية كان نادرًا فى غالب الأحوال، وهذا ما دعا البعض إلى الدعوة إلى كتابة تاريخ هؤلاء بل وإلى الدعوة إلى إعادة تقويم الدور الذى قامت به هذه الشرائح فى تاريخ مصر الحديث[٢].

تتعدد وجهات النظر وتتباين تجاه هذه الجماعات الهامشية، ينظر إليهم فى بعض الأحيان «كنتوء شاذ» و«كبؤرة للسلب والنهب» و«محترفى البطالة واللهو». وفى أحيان أخرى ينظر إليهم كمرآة عاكسة لمجموعة من الاختلالات المجتمعية السياسية – الاقتصادية والسياسات غير المتوازنة على المستوى الاجتماعى مثل البطالة وعدم وجود وسيلة مشروعة للتعايش بل وعدم وجود محل إقامة مستقر الأمر الذى يستدعى الإقامة فى الطرقات والزوايا والجوامع والقرافة وأطراف المدينة. وهو ما أدى بهم أحيانًا إلى السرقة والنهب ولأنهم لم يكونوا فئات مرتبطة بالإنتاج فحركتهم كانت أقرب إلى ذيل الطبقات الأخرى خاصة «العوام». ضمت هذه الجماعات شرائح غير متجانسة اجتماعيًا، مفتتة، متنافرة أحيانًا. ويبدو أن ما كان يقوم به هؤلاء من نهب وسرقة هو بعض النشاط الاجتماعى الذى تمارسه بعض الشرائح الاجتماعية الأخرى بصورة مستترة.

ذكر الأبشيهى «قيل: مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف، فقال ما هذا؟ قيل له: السلطان يقطع سارقًا، فقال: لا إله إلا الله، سارق العلانية يقطع سارق السر!!»[٣].

ولفترة طويلة ظل أهل مصر يرددون المأثور الشعبى «حاميها حراميها»[٤]، «يسيب اللى دبح ويمسك اللى سلخ»[٥] أى يترك من قتل ويمسك بمن هو أقل منه جُرمًا، وفى فترة متأخرة كتب خليل مطران[٦]:

ما بين لصوص ولصوص	فرق فى الأعلى والأدنى
لصغارهم الشنق المزرى	وكبارهم الشرف الأسنى

ولعل هذا الأمر هو الذى جعل بعض الدارسين يضع تحركات هذه الجماعات المهمشة وبصفة خاصة اللصوص، وقطاع الطرق وانتظامهم فى طوائف «المناسر مثلاً» فى مرتبة «المقاومة الاجتماعية»[٧]، وإن كانت غوغائية وليست فقط من نوع الخروج الفردى الإجرامى على المجتمع كما يحدث الآن ويستدلون ببعض وقائع تاريخية دالة على ذلك. وهو الأمر الذى جعل بعضهم يركز على السمات التاريخية الثقافية لهؤلاء والمستمرة حتى الآن[٨]، فى السلوك والتى رصدها

الكثير من المؤرخين المصريين وأيضًا الرحالة المسلمون والأجانب منها سرعة البديهة وسعة الحيلة وخفة الدم والكلام اللين والذكاء الخارق والحركة السريعة وما يمكن أن نسميه حاليًا بالفهلوة مع احتمالات واردة لارتكاب بعض الاحتيال والنصب والشطارة، أو كما يقول المثل «زى ولاد بلبيس يبيعوا العيش ويشحتوه». وهى سمات ليست قدرًا أزليًا بل هى نتاج الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التى عرفتها مصر منذ بداية تاريخها ونتاج القهر السلطوى وأنظمة الحكم القهرية والتمايز الطبقى الصارخ.

ما أريد التركيز عليه هو أن الدراسات العلمية المعاصرة حول الجماعات الهامشية حاولت بقدر الإمكان الإشارة إلى جذور تاريخية لها لمعرفة طبيعة الدور، وتدنى الوضع الاجتماعى لها ومعرفة التغير الذى يحيط بطبيعة هذا الدور ما بين فترة تاريخية وأخرى. واستندت هذه الدراسات على بعض النظريات العلمية أخصها بالذكر: نظرية التبعية حيث تنظر إلى المكانة المتدنية لهذه الجماعات بالمقارنة للفقراء والأساليب غير المشروعة للرزق وتضخم أعدادها كسمة من سمات التكوين الطبقى فى ظل تحول اقتصادى «البروليتاريا الرثة» وهى جماعات رافضة لمعايير المجتمع تمثل تهديدًا للسلطة الحاكمة ينظر إليها فى بعض الأحيان كرصيد شعبى لتحرك راديكالى يستخدم العنف كآلية. أو نظرية الهامشية بما تعنى الخروج على النسق العام للمجتمع الذى يسعى إلى التكامل. ذلك لأن الأوضاع الاقتصادية المتدهورة تؤدى إلى عزلة حضرية لجماعات معينة، هى ليست عزلة تامة بل نسبية ترتبط بحالة إحباط من البطالة والإحساس بالدونية، هذا الإحباط الدائم يؤدى إلى انسحاب واتخاذ سلوك رفضى من المجتمع الذى تشعر فيه هذه الجماعات بالنبذ. أو ينظر إلى هذه الجماعات فى ظل ما يسمى بالثقافة الفرعية وهى على كل حال مرتبطة بالثقافة الخاصة الجانحة وثقافة الفقر وما يستدعى ذلك من وجود ثقافات أخرى محددة: للتسول، للنشل.. إلخ[٩].

هوامش وإحالات الفصل الأول

(١) من المحاولات العلمية الجادة لتناول ظاهرة الجماعات الهامشية فى المجتمع المصرى فى مقاربة نظرية وتاريخية وميدانية على مستوى علم الاجتماع: صلاح الدين عبد المتعال، أثر العوامل الاجتماعية فى تشرد الأحداث مع دراسة تطبيقية على فئة جامعى أعقاب السجائر بمدينة القاهرة، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة ١٩٦٤. محمود إبراهيم حسين: دراسة أنثروبولوجية تطبيقية للأنساق والعلاقات فى مجتمع المتسولين بالإسكندرية، رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٣. نبيل صبحى حنا (د): جماعات الغجر فى مصر والبلاد العربية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠. محمود محمد جاد (د): سكنى المقابر فى القاهرة، إطلالة تاريخية وبانوراما ميدانية، دار ماجد للطباعة، القاهرة، ١٩٩٢. ابتسام علام (د): الجماعات الهامشية دراسة أنثروبولوجية لجماعات المتسولين بمدينة القاهرة، مطبعة العمرانية للأوفست، الجيزة ٢٠٠٢. وعلى مستوى العلوم السياسية: جلال معوض (د): الهامشيون الحضريون والتنمية فى مصر، مركز دراسات وبحوث الدول النامية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة ١٩٩٨، أمانى مسعود الحدينى (د): المهمشون والسياسة فى مصر، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة ١٩٩٩. وعلى مستوى العلوم القانونية: محمد نور فرحات (د): «الدور السياسى للجماعات الهامشية فى مصر.. بحث فى التاريخ الاجتماعى لجماعات الجعيدية والزعر» فى كتاب: المجتمع والشريعة والقانون، كتاب الهلال، العدد ٤٢٦، القاهرة ١٩٨٦. على فهمى «ملامح الثقافة السياسية للمهمشين فى مصر المحروسة» كمال المنوفى (د): حسنين توفيق (د) (محرران): الثقافة السياسية فى مصر بين الاستمرارية والتغير، مركز البحوث والدراسات السياسية، جامعة القاهرة، المجلد الأول ١٩٩٤.

(٢) لاحظ أندريه ريمون نقص المعلومات التاريخية عن تنظيمات هذه الشرائح وقياداتهم اللهم إلا عبارات مبهمة حول ما يقومون به من سلب ونهب، انظر: أندريه ريمون: المصريون والفرنسيون فى القاهرة ١٧٩٨ - ١٨٠١، ترجمة بشير السباعى، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث، القاهرة ٢٠٠١، ص ٥٠ - ٦٥، وفى تعرضها للسياق التاريخى لتطور ظاهرة التسول وجدت الباحثة الدكتورة ابتسام علام فى دراستها المشار إليها سابقًا (ص ١٦ - ٢٨) ندرة البيانات التاريخية وغموضها حول طبيعة الأشخاص وطبيعة الأنشطة التى مارسوها والتغيرات التى

طرأت عليهم مثل الحرافيش وأشكال تنظيمهم الجماعى وعلاقتهم بالسلطة.

(٣) الأبشيهى: (شهاب الدين بن محمد): المستطرف فى كل فن مستظرف، جزءين، دار القلم، بيروت ١٩٨١، الجزء الأول، ص ٢١٧.

(٤) أحمد تيمور باشا: الأمثال العامية، الطبعة الرابعة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة ١٩٨٦، ص ١٧٤.

(٥) المرجع السابق، ص ٥٢١.

(٦) خالد محمد خالد: من هنا نبدأ، الطبعة الرابعة، دار النيل للطباعة، القاهرة ١٩٥٠، ص ١٢٣.

(٧) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعى - الاقتصادى فى ضوء النمط الآسيوى للإنتاج، الطبعة الأولى، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٧٩، ص ٤٧٣ - ٤٧٤، يستدل على ذلك بأن الزعر والصبيان والشطار انضموا إلى جيش طومانباى فى مقاتلة العثمانيين فى الريدانية وكذلك فى المعركة الأخيرة التى دارت مع جيش سليم الأول بالقرب من القاهرة.

وهنا أشير إلى أن دراسة الدكتور محمد رجب النجار «حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى»، عالم المعرفة (٤٥)، مطابع الأنباء الكويتية ١٩٨١، تدور حول هذا المحور وتؤكده، بنفس القدر الذى يؤكده الذين يدرسون السيرة الشعبية «على الزيبق نموذجًا».

(٨) انظر دراسة على فهمى السابق الإشارة إليها (ص ٥٨١) وكذلك التحقيق الصحفى معه فى ملحق «أيامنا الحلوة» العدد ٤٥، الأهرام ٢٢ مارس ٢٠٠٢، والذى أجراه خميس البكرى دراسة اجتماعية تؤكد: أفكار الحرافيش تساير مقولة «ساعة لقلبك وساعة لربك».

(٩) لعل فكرة النبذ مستوحاة أساسًا فى قصيدة بيرم عن (المنبوذين):

يا منبوذين الهند كفوا دموعكم	دى مصر فيها المنبوذين ملايين
من منبوذين حافيين يلموا سبارس	ومنبوذين ماسحين جزم دايرين
ومنبوذين شبان معاهم شهايد	حرم عليهم يدخلوا الدواوين
ومنبوذين نسوان وضابط مباحث	داير وراهم من كمين لكمين
ومنبوذين فى البيت عشاهم فلافل	فى العيد، وأيام السنة جايعين
ومنبوذين ضايعين ما يعرف خبرهم	ونا اللى فيهم ينسمع لى أنين

راجع: بيرم التونسى: الأعمال الكاملة (٥) بيرم ناقدًا للحياة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٧٣.

الفصل الثانى

تعدد وتباين المصطلحات والمفاهيم للجماعات الهامشية

دلالات لغوية تاريخية

ثمة بلبلة لغوية وذبذبة عقلية يجدها الدارس فى العلوم الاجتماعية تجاه ما يسمى قضية تحديد «المصطلحات - التصورات - المفاهيم» والتى تصاغ فى قوالب لغوية وصيغ لفظية، هناك المشترك والمجازى وهناك المترادف والمتباين، وسوف نرى من خلال استعراض الجماعات الهامشية مدى اتساع الحقل الدلالى للمصطلحات بما يظهر أحيانًا فى أذهان البعض إن هذه المصطلحات مترادفة تتكاثر فيها الأسماء وتتحدد المعانى وتتفق فيها فيظن أنها مترادفة لاتفاق موضوعاتها، أو قد تكون مختلفة الموضوعات فيظهر التباين. ومن هنا فإن تدنى الرؤية الفلسفية للباحث تجعله يترنح بين ما يسميه فوضى المصطلحات وتضاربها وغموضها واختلاف الدلالات اللفظية من زمان إلى آخر.

فى ظل التطورات التاريخية فإن المصطلحات «المفاهيم» تكتسب معناها من خلال الممارسات المعاشة التى لا تكف عن التطور والتغير بحيث تتعدل معها النظرة إلى طبيعة المفهوم «خذ مثلاً التطور الدلالى لمفهوم العصابة، ففى وقت من الأوقات كانت تعنى أشرف جماعة من المسلمين تأسيسًا على مقولة

الرسول ﷺ: «اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض»، وبمرور الزمن تحولت العصابة «عصب» إلى مجموعة من الفتوات، وأخيرًا إلى مجموعة من قطاع الطرق والسراق»، وبهذا تتطور دلالات المصطلحات فى تعبيرها عن معطيات الواقع.

والمصطلحات ضرب من الاختزال تشير إلى أن الحقائق التاريخية يمكن أن تصاغ بطرق متعددة ولغات مختلفة بواسطة التصورات بحسب الغاية التى تراد من صياغتها ووفقًا للمرحلة التى تطورت إليها المعرفة العلمية(١).

تتداخل مصطلحات بعض الجماعات الهامشية خاصة تلك الجماعات التى تعتمد على النهب واللصوصية، تداخلاً شديدًا فى معاجم اللغة والألفاظ الفصيحة والعامية، وحتى الكتابات التاريخية لم تفرق بينها تفريقًا واضحًا، رغم اختلاف المفاهيم وشيوع بعضها دون الآخر فى عصور تاريخية مختلفة، وهذه الجماعات والطوائف وجدت فى أماكن مختلفة تحت أسماء مختلفة ومع اختلاف الأسماء «اختلفت أزياؤها ومبادئها الخلقية اختلافات متفاوتة بحسب الزمان والمكان، وكان أصحاب هذه الطوائف يتحولون بحسب الظروف إلى لصوص أو قطاع طرق أو قبضايات أو يتحولون إلى عساكر متطوعة أو مرتزقة يشاركون فى الحروب الداخلية أو على الحدود»(٢).

وفى معظم الأدبيات التاريخية يأتى الحديث عنها من قبيل الذم والقدح ووصفها بصفات متعددة أهمها: الغوغاء - النهابة - السفهاء - الحثالة - الهباشة - الرعاع - الحشرات - الجراد - الفلاكة - الصعاليك - الحرامية - اللصوص - قطاع الطريق - السراق - أراذل الطوائف - الأوباش - السفلة - الأوغاد - الأشرار -الشطار - العيارون - النقاب - العياق - الفتوات - البطالون - المناسر - الخلابيص - الأوغاش - الجعيدية - البرامكة - الكدية - أولاد درزة - الطرارون - النشالون - الفلاتية - الكلابزية - الشلاق - النتاشون - العواطلية - الغجر «النور - الحلبية» - الجياع - أولاد القرافة - الطوخية - المشاديد - البطحجية - العصبجية - الشحاتون - الحرافيش - العامة المقلين - غوغاء العامة.. إلخ.

ثمة ملاحظات أساسية بالنظر إلى هذه المصطلحات:

أولاً: هذه المصطلحات فى معظمها عكست الموقف الفكرى المحدد تجاه هذه الجماعات أطلقت عليهم لتوصيف أفعالهم ومواقفهم المتدنيةالمتمردة وغالبًا ما عكست تصورات الفئات العليا فى أعلى السلم الاجتماعى لتشويه الحركية الاجتماعية - السياسية والنظر إليهم كجماعات هامشية منبوذة اجتماعيًا. والمتتبع للتاريخ المصرى حتى وقتنا الحاضر يلاحظ أن لغة الخطاب السياسى المضاد لتحرك العوام كان يصطبغ دائمًا وأبدًا بمثل هذه المصطلحات والأوصاف(٣).

ثانيًا: فى معظم الكتابات التاريخية لمشاهير الأعلام مثل المقريزى، وابن إياس وأحمد شلبى بن عبد الغنى، والجبرتى تأتى بعض هذه المصطلحات فى تتابع وارتباط وثيق خاصة أثناء الحركية الاجتماعية - السياسية وعلى وجه التحديد أثناء ما تقوم به من أعمال للسلب والنهب بحيث يصعب حصر ما تقوم به كل جماعة انطلاقًا من فكرة تقسيم العمل ووضع تصور لطبيعة العلاقات فيما بينها بما يكشف لنا عن طبيعة عمليات النهب التى تعتمد فى بعض الأحيان على الدراية والشطارة، فالذين يقومون بهذه العمليات من أصحاب «الكار» بما يعنى الصناعة والحرفة، ومن هنا قولهم «الكار مهنة» ويقولون فلان «ابن كار»(٤) كناية عن حذقه بالسرقة، معظم هذه العمليات كانت تتم بشكل جماعى والقليل منها كان يتم بصورة فردية وهذا العمل الجماعى أو الفردى يتميز بقدر من التنظيم والفكاكة «أى الشطارة» فالفكك أى الشاطر خفيف الحركة والشطارة هى المهارة فى العمل والبراعة فى فن الصراع، وفى الأمثال «ما يقع إلا الشاطر». ومن أمثالهم «الهروب نص الشطارة»(٥).

تؤكد معظم الكتابات المعاصرة لجماعات اللصوص والشطار ما يمتازون به من مهارة فائقة. يتحدث «نيبور»(٦) عن أحد لصوص النيل الذى قبض عليه رجال الباشا وتوسل اللص أن يسمح له الباشا بأن يقوم أمامه بعمل يكشف له به سرًا من أسرار فنه، وسمح له الباشا بذلك فطفق اللص يجمع ثياب الباشا وكل

ما وقعت عليه عيناه فى الخيمة من أشياء وصرها صرة ولعب بها بعض الألعاب البهلوانية ثم ألقى بعدها بنفسه فى النيل وسبح إلى البر الآخر والصرة فوق رأسه وبلغ الأمان قبل أن يتمكن الأتراك من إطلاق النار عليه.

يتحدث الشيخ يوسف المغربى عن النشالين فى مصر فى القرن السابع عشر بقوله «ولا أسرع حركة من النشالين ولهم حكايات عجيبة فى النشل يطول شرحها»[٧]. وهذا ما أكده أحد الرحالة الأتراك «أوليا جلبى»[٨]. بقوله عنهم: أنهم «مهرة إلى حد بعيد فهم يسرقون الكحل من العين ويبقى الكحل فى موضعه».

العبارات السابقة ترينا إلى أى مدى بلغ دهاء وحسن حيلة وفهلوة بعض شرائح هامشية استطاعت «سرقة الكحل من العين» كما استطاعت أن «تسرق النوم من العين». هذه المهارة مكتسبة من «كثرة التجارب»[٩]. من الخبرة الذاتية المعاشة من «التعلم»[١٠]. ومن سماع المأثورات الشعبية خاصة السير المرتبطة بحيل اللصوص. من حكايات المكدين من بنى ساسان الذين توسلوا باللصوصية عن طريق «لطائف الخدع وغرائب الحيل» والتى ارتبطت بالنصب والاحتيال لدرجة أصبح «النصاب يأخذ من الحافى نعله»[١١]. واستمر «الزغلية» أى المزيفون للنقود يؤدون عملهم. ويذكر ابن إياس فى أحداث شوال ٩٢٨هـ أن «والى القاهرة شنق فى يوم واحد أربعة وعشرين إنسانًا وخوزق منهم جماعة وعلقهم فى أماكن متفرقة وكان أكثرهم حرامية وزغلية ومن عليه دم»[١٢]. كما استمر المشعبذون والمشعوذون يواصلون عملهم بمهارة، خاصة وأن الشعوذة ارتبطت «بخفة فى اليد»[١٣] بتصوير الباطل فى صورة الحق وارتبطت الشعوذة بالسرعة وقيل الخفة فى كل أمر، وقد ضمت الرميلة - كما يذكر على مبارك[١٤]. أكبر مجتمع لتجمع الحرف والمشعبذين، وفى إطار الطائفة الأخيرة من المشعبذين ازدادت أعداد ما عرفوا باسم «الأونطجية»[١٥] ومنها «فلان أونطجى»[١٦] أى صاحب حيل وخدع خاصة منذ أواخر القرن التاسع عشر.

وترتبط الشحاذة «الشحاتة» بالكدية، وفى اللغة شحذ ذهنه أو عزمه أى نشط فى الكدية، ويذكر الزبيدى فى «تاج العروس»[١٧] أن الكد «الإلحاح» فى

محاولة الشيء «الطلب» أى طلب الرزق. ولقد استظرف الدماميني حيث قال:

رعى الله مصر أننا فى ظلالها

نروح ونغدو سالمين من لكدّ

وأن «الشحذان» هو «الجائع» وهو من شحذ الجوع معدته أى ضرمها وأن «التشحذ - الشحذ» معناها «الإلحاح فى السؤال» وقد سموا شحاذة وأبو شحاذة من كنى الفقر. كما يذكر تيمور مدى ارتباط الشحاذة بالكدية «بعلم الحيل الساسانية»[١٨] ومدى ارتباط الحرافيش بالشحاذين، وقد انتشر هؤلاء انتشارًا كبيرًا فى مصر على أشكال وأنواع واشتهروا بالإلحاح فى الطلب وتحايلوا بالفقر ولبسوا الملابس البالية، وقد جمع بعضهم من الشحاذة أموالاً طائلة. وفى أحداث ذى القعدة سنة ٩١٧هـ يذكر ابن إياس «وفيه أحضروا بين يدى السلطان شخصًا من الشحاتين الجعيدية، وجدوا معه مائة وسبعين دينارًا وهم ضرب الأشراف برسباى، فقال له السلطان: من أين لك هذا الذهب؟ فقال: ورثتهم من أمى، فأخذ السلطان منه ذلك الذهب وسلمه إلى محمد مهتار الطشتخاناه، ورسم بأن يشترى للشحات من ذهبه جوخه وقميصًا وعمامة وأن يصرف له فى كل يوم نصفين فضة يأكل بها حتى تفرغ فلوسه، فلم يرض الشحات بذلك وصار يقول: عيدوا لى ذهبى وما لى حاجة بكسوتكم»[١٩].

والذى لاشك فيه أن بابات ابن دانيال فى «خيال الظل» أو ظل الخيال على الأصح قد جسدت لنا ملامح عشرات من الفئات المهمشة، وقد انتشرت فى العصر المملوكى العثمانى ولعبت دورًا مهمًا فى استثارة وعى العوام على وجه أخص مع انتشار عرائس القراجوز.

فى «عجيب وغريب» لابن دانيال إحدى هذه الشخصيات التى قدمها من ضمن «سبع وعشرين شخصية» شخصية «غريب» الذى تتقاذفه الأقطار ويدور مع الفلك الدوار ويندب حظه قائلا»[٢٠]:

أين زمانى الذى تقضى — وأين جاهى وأين مالى

وأين خفى وطيلسانى — وأين قيلى وأين قالى

وأين عيشى وأين طيشى — وأين حسنى وحسن حالى

ويعترف بأنه ينتسب إلى آل ساسان الذين ذهب عنهم الحول والطول وأصبحوا يطلبون العيش بالكدية والحيلة.

وإذا كانت الكدية تعنى التسول، فقد ظل أهل «الكدية» كطائفة يتجول أفرادها فى البلاد يستجدون ويحتالون، وكان لديهم مقدرة أدبية يحتالون بها على الناس كشأن ما نسميه فى مصر «الأدباتية» وعند بعضهم دهاء وحيل لابتزاز الأموال، ولا يستبعد أحمد رشدى صالح أن يكون فريق منهم امتهن حفلات «الزار» منذ أمد فصارت رئيسة الزار تسمى «كودية»(٢١).

والأدباتية فئة من المكدين يرتجلون الأزجال، يمشى منهم اثنان يكون مع أحدهما طبل فى كشحه الأيسر، معلق بحمائل على كتفه الأيمن فينشدان معًا مطلع الزجل، ثم يرتجل أحدهما دورًا فى واقعة الحال، وبعده يرددان المطلع، ويضرب صاحب الطبل عليه ويتمايلان يمنة ويسرة وأمام وخلف، ويتقدمان ويتأخران عند الإنشاد، وكانت هذه الحركات تعينهما على الارتجال ويكون فيها فسحة للتفكير ويكثر وزن ما يأتون به على «شرم برم حالى غلبان» بل هو المطلع - كما يعتقد تيمور(٢٢) - الغالب عليهم الابتداء به.

ولعل ما حدث لعبد الله نديم مع فريق من «الأدباتية» والذى بسطه مفصلاً فى مجلته «الأستاذ»(٢٣) أثناء تواجده بمولد سيدى أحمد البدوى سنة ١٢٩٤هـ مع جماعة من المشايخ، جلسوا على قهوة الصباغ يتفرجون على أديب وقف يناظر آخر، استلفت أحدهم إليه يخاطبه:

انعم بقرشك يا جندى	وإلا أكسنا آمال يا افندى
إلا انا وحياتك عندى	بقالى شهرين طوال جيعان

فقال له عبد الله على سبيل المزح منه:

أما الفلوس انا مديشى	وانت تقول لى مامشيشى
يطلع على حشيشى	اقوم أملص لك لودان

أقول، لعل هذا يبين لنا مدى ما يتمتع به الأدباتية من مهارة وخفة كطائفة لها شيخها «شيخ الأدباتية»، ويبين لنا كذلك ربط النديم بين الجعيدى والحرامى عندما قال لأحدهم:

فى الموالد حيث يكثر الزحام والنشل، كان بعض هؤلاء الأدباتية يستغفلون الناظر إليهم بألعابهم فيسرقون ما معه، فقد ذكر أحمد أمين[٢٤] أن أحد الشبان كان جالسًا على مقهى فجاء بعض هؤلاء الأدباتية فلعبوا أمامه ألاعيبهم ثم استغفلوه وسرقوا كيس نقوده وفيه مائتا جنيه فسقط الشاب مغشيًا عليه، فرآه رجلاً فسأله عن قصته فحكاها له، فطمأنه وكان الرجل صديقًا «لشيخ الأدباتية» فأخذ الشاب وذهب به إلى حى السيدة زينب وقصد معه إلى شيخ الأدباتية الذى استطاع أن يعيد له ما سرق منه وأراد المسروق منه أن يعطى شيئًا للرئيس فمنعه صاحبه وأفهمه أنه فعل ذلك مروءة على حسب عادته.

وحتى مطلع القرن العشرين ارتبطت جماعات من المكدين «الشحاتين» بأنماط فنية تكاد تقترب من الدراما الشعبية، كان البعض منهم «لهم مواكب تسير فى الطرقات يستدرون عطف النساء بغناء عامر بالأسى والشجن - كان أكبرهم سنًا يتقدم الموكب بشعره الأشعث ويحمل بين يديه حجرًا يدق به على صدره - الذى اسود من كثرة الدق عليه - فى إيقاع غنائى تحيط به مجموعة من الأطفال - فى ثياب مهلهلة - يرددون بعد كل فقرة غنائية وكأنهم كورس مدرب - يا كريم يارب»[٢٥].

الفكرة الأساسية التى أود أن تستلفت أنظارنا فى هذا المجال: ارتباط أعمال طوائف مهمشة بعضها يعتمد على اللصوصية والسرقة وبعضها الآخر لا يلجأ إلى مثل هذه الأعمال التى توضع فى خانة الرذائل، بالمهارة وخفة اليد والخدع والحيل والفهلوة والبراعة والتفنن، وكانت «حكايات الشطار والعيارين» أو أدب اللصوص أحد أشكال أو وسائل التعبير الفنى والذى رفض الواقع - على حد قول النجار[٢٦] - الاجتماعى السياسى، وقد ازدهرت حيل «اللصوص» منذ أوائل القرن العاشر الهجرى على وجه التحديد؛ فشخصية أحمد الدنف «التى بدأت فى الظهور إبان القرن الرابع الهجرى» استكملت نموها وتفاصيلها فى العصر العثمانى، كما تؤكدها سيرة «على الزيبق بن حسن رأس الغول»[٢٧] أشهر حكايات الشطار والعياق..فى هذه السيرة تعلم الزيبق فنون التنكر المتقن والحيل من

تمثيل أدوار أعدائه وتقليد أصواتهم وحركاتهم حتى يخدع أقرب المقربين إليهم، وقد تعلم هذا الفن من المهرجين والممثلين والبهلوانات الذين يقدمون فنونهم فى ميدان الرميلة وقرة ميدان حيث يجتمع أرباب «الشطارة والزلاقة» ودواهى الشغرابية والخداع». وقد تطور معنى البطولة فى هذه السيرة فلم يعد قاصرًا على الفتوة والفروسية، بل أصبحت فى متناول العوام من المهمشين قاطنى حارات المدينة وأطرافها، بل إن القصاص رسم أصحاب السلطة فى السيرة مجموعة من اللصوص وقطاع الطرق، وصلوا إلى السلطة عن طريق التفوق فى السرقة والإمعان فى البطش والمهارة فى اللصوصية حتى يجعل مقدم درك بغداد أحمد الدنف زعيم عصابة فى الليالى وقائد وجاق الزعر فى السيرة.

هذه السيرة والتى هى «نتاج العصر العثمانى» أوردت بداخلها «وجاق الانكشارية»، «المستحفظان»، «السنجق»، «الأغا»، «الكيخا»، «باش شاويش أغا» وغيرهم، جعلت للزعر «وجاق» جنحت إلى العامية فى السرد، وهى تعرض لضياع معانى الأمن والاستقرار فى حياة شعب مصر واختفاء ضرورات العدالة ويكفى أن بطلها أحد الشطار وإن مغامراتهم تدور بين مجموعة من المقدمين الذين يشتهرون بالحيل والخدع وتقوم أعمالهم على تسلق القصور وسرقة النفائس وتحدى السلطات، ولا تجد السلطة القائمة حلاً لمشكلاتها الدائمة معهم إلا أن تعترف بوجودهم فتوليهم المناصب الرئيسية وترتب لهم المرتبات السنوية والمخصصات من بيت المال، وتفرد لهم القاعات والأماكن يقيمون بها وتسمح لهم أن يسيروا فى مواكب مع أتباعهم.

فى هذه السيرة تفوق على الزيبق على لصوص مصر وشطارهم حتى تولى درك مصر، وليس أكثر من هذا سخرية من الجهاز الحاكم الذى يبدو فريسة بين أيدى اللصوص هم فى مجموعهم فى نظر الشعب مجموعة من اللصوص وقطاع الطرق يتسابقون على السيطرة والنفوذ وسرقة بعضهم البعض.

يذكر الجبرتى فى أحداث سنة مائتين وألف «١٧٨٦م» أن الأمير حسن بك ركب بجنوده وذهب إلى الحسينية وهجم على دار متولى رياسة دراويش الشيخ البيومى ونهبه، وفى صباح اليوم التالى ثارت جماعة من أهل الحسينية بسبب ما

حدث، وحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول والتف عليهم «جماعة كثيرة من أوباش العامة والجعيدية وبأيديهم نبابيت ومساوق» تضامن معهم الشيخ الدردير وقال لهم: «فى غد نجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم، وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم» وعندما تدخل الأمير إبراهيم بك وأحضر حسين بك وكلمه فى ذلك فقال فى الجواب:

«كلنا نهابون، وأنت تنهب ومراد بك ينهب وأنا أنهب كذلك»، ويعلق الجبرتى بقوله «وانفض المجلس وبردت القضية»(٢٨).

هذه صورة لتحرك ما أسماهم الجبرتى «أوباش العامة والجعيدية» وهم الشطار والزعر الذين تميزوا بالحذق والبراعة وخفة الحركة، هم طائفة الفتوات الذين جمعوا أخلاقيات الشطار والعياق فى البراعة فى الحيل بقدر تفوقهم فى المصارعة والمصاولة بل خفة ظلهم وبراعتهم فى الحديث، وهى صورة نجدها بين ثنايا الكتابات التاريخية. فى أحداث مايو ١٧٣٠م يذكر أحد المؤرخين أن «الحرامية سرقوا جميع ما فى بيت «عثمان أغا الوالى» ولم يبقوا فيه شيئًا، وكتبوا ورقة وعلقوها على باب المقعد مكتوب فيها الذى نعلم به عثمان أغا أننا دخلنا بيتك وأخذنا ما كان فيه وما دخلناه لأجل أخذ شىء، وما كان مرادنا إلا ذبحك، فما وجدناك ولا وجدنا أحد فلو وجدناك أو وجدنا أحدًا كنا ذبحناه، فأخذنا الذى جمعته من مال الصناجق الذين قتلتهم»(٢٩).

بعد أكثر من قرنين على هذا الحادث، استلهم بعض الأدباء والفنانين من مهارة وبراعة بعض هذه الفئات المهمشة والتى ظلت ممتدة فى حركتها الاجتماعية حتى منتصف القرن العشرين، مادة خصبة فى أعمالهم المتميزة. على سبيل المثال لا الحصر:

الأديب الفنان توفيق الحكيم فى معرض براعة الحاوى وخفة اليد(٣٠):

«التفت القاضى إلى الحاوى وقال له:

اقنعنا أنك بارع وبراعتك فى خفة اليد - ولكن هل كل خفة يد تعتبر صنعة

شريفة؟ - النشال أيضًا بارع فى خفة اليد.

فقال الحاوى محتجًا بقوة:

وأنا نشال لاسمح الله؟!.. النشال خفة يده فى جيوب الناس!.. ولكن أنا يا سعادة البك بخفة يدى عمرى ما سرقت، خفة يدى تدهش الناس وتسرهم.. وكل واحد يدفع لى ما فيه القسمة عن طيب خاطر!.. أنا فنان يا بك.. أنا فنان!..».

الشاعر المسرحى نجيب سرور استلهم من تراث النشل المصرى الكثير ضمنه أحد أعماله المسرحية والتى تبدأ بأغنية الذكيرة حيث يقف المغنى يلقى[٣١]:

- المطوة فن وخفة ايد

مشرط جيوب مفعوله أكيد

والطب عايز خفية

- أبو مطوة جاع لم الجعانين

عملوه عليهم شيخ منصر

بقى عنده جيش من النشالين

وجيشه يوم عن يوم يكبر

ثالثـًا: من الصعوبة بمكان فى الكتابات التاريخية أن نجد حدودًا واضحة جازمة تمايز بين هذه الجماعات الهامشية التى تتصل بصفة خاصة باللصوصية بشكل صريح ومفصل، ورغم ما يقال أحيانًا إن هذه العصور «خاصة المملوكى العثمانى» قد شهدت بطء وصعوبة فيما يمكن أن نسميه بلغة عصرنا بالحراك الاجتماعى بين الطبقات والفئات الاجتماعية، إلا أن الرؤية التاريخية تثبت عكس ذلك بكثير، ويكفى للتأكيد على ذلك فى إطار الطبقات والشرائح الدنيا ما حدث من هجرة قطاعات واسعة من الفلاحين إلى المدن وانضمامهم إلى جيش الحرافيش، ومع الانهيار التدريجى لطوائف الحرف تحولت قطاعات كبيرة منهم إلى طائفة الشحاتين والتى كان لها تنظيمها الحرفى خاصة فى العصر العثمانى، وبعض هؤلاء انضموا إلى طوائف العيارين والشطار والزعار والجعيدية وغيرهم؛

حيث اعتمدوا على النشاط الجمعى على شكل تنظيمات جماعية تشبه تنظيم الجند أحيانًا «لاحظ دلالة ذكر وجاق الزعر فى سيرة على الزيبق» وتنظيم الطوائف الحرفية فى أحيان أخرى. ويكفى التأكيد على أن جماعات اللصوص اتخذوا كبيرًا منهم شيخًا عليهم «أصبح هناك مثلاً شيخ الجعيدية وشيخ النشالين وشيخ (منسر).. إلخ» والذى يعرف أهل الحرفة جميعًا، وكثيرًا ما كان هذا الشيخ يطالب بالبحث عن المسروقات فيعيد لمن سرق أشياءه لقاء مكافأة سخية فى بعض الأحيان، وكان يقوم أحيانًا بتقديم بعض اللصوص إلى المحاكمة على نحو ما يذكره بعض الرحالة فى أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر[٣٢]. وعلى ما تؤكده كتابات بعض المؤرخين منذ أواخر العصر المملوكى. كان بعض الحكام يطلب من شيوخ هذه الطوائف التدخل فى مساعدته فى بعض الأمور، ففى شوال ٨٤١هـ طلب السلطان برسباى «سلطان الحرافيش وشيخ الطوائف وألزمهما بأن يمنعوا الجعيدية من الشحاتة فى الطرقات وألا يشحت سوى العميان ذوى العاهات فقط ورسم للجعيدية أن يخرجوا للعمل فى الحفير فامتنعوا عن ذلك وهربوا نحو بلاد الصعيد»[٣٣].

رغم ما يبدو من أن العصر العثمانى قد حظى بتحديد العلاقة لنظام الطوائف فإن طوائف اللصوص رغم تمايزها وتباينها لم تتحدد العلاقات فيما بينها تحديدًا واضحًا للعيان، وهذا ما تؤكده مثلاً كتابات الجبرتى عنهم فيذكر فى أحداث عام ١١٨٢هـ «وفيه تم إبطال النشالين والحرامية والعيارين» وفى أحداث ١٢٣٠هـ «١٨١٥م» يذكر إن بعض العسكر اتفقوا على غدر الباشا، بدءوا يكسرون ويحطمون الحوانيت المغلوقة وينهبون ما فيها «وشاركهم الكثير من الشطار والزعر والعامة المقلين والجياع ومن لا دين له[٣٤] وانضم إليهم الأوباش البلدية والحرافيش والجعيدية.

الجبرتى والذى يوصف بالدقة فى الكتابة التاريخية كان من الممكن أن يجمع هذه الفئات كلها فى سلة واحدة ويصفهم بالحرامية أو اللصوص مثلاً ولكنه ميَّز بين تجمعاتهم: النشالون، الحرامية، العيارون، الشطار، الزعر، الحرافيش،

الجعيدية، وربط بينهم وبين «العوام» الذين وصفهم بقوله «العامة المقلين والجياع ومن لا دين له» ومن تضافر معهم من أولاد البلد «الفتوات» الذين وصفهم بقوله «الأوباش البلدية» فى حركتهم المتمردة على السلطة الموجودة والانخراط فى الخروج على النظم المرعية من جانب ومثلوا ما يمكن أن يسمى بلغة عصرنا ميليشيات محلية.

على الرغم من أن هذه الطوائف والجماعات الهامشية لم تحظ بتحديد العلاقات فى المؤلفات التاريخية، لكن ما يرد عن الطوائف الأخرى ينعكس عليها إن لم يتطابق معها فى بعض الأحيان فى ظل القواعد المتعارف عليها المتمثلة فى نظام الطوائف وبصفة خاصة فى بعض قواعد السلوك الأخلاقى وهى قواعد غير ثابتة متطورة متغيرة.

ولعل الباحث فى التاريخ الاجتماعى يجد فى تطور الدلالات اللغوية وتباينها مساحة تساعده من جهة أخرى على معرفة المسكوت عنه فى المصادر التاريخية، تساعده على معرفة أبعاد ثقافة التمرد لهذه الجماعات الهامشية له من جهة أخرى الرؤية «الآلية» التى يتم بها تهميش هذه الجماعات من خلال التوصيفات التى ألصقت بهم.

بالتأمل التاريخى، ومع رؤية دلالة اللغة تتكشف شيئًا فشيئًا ملامح هذه الجماعات ومدى الارتباط أو الابتعاد بينها؛ فالسارق يقولون عنه «لص»[٣٥] يقال فى القاموس: اللص السارق، ويرتبط الحرامى باللص بقاطع الطريق «حرامية - لصوص - قطاع طرق»[٣٦] ويرى تيمور أن الجعيدى معناه البرمكى «ويظهر أن الحرافيش هم الجعيدية»[٣٧] وإن الفلاتى يطلق على اللص «لعله منسوب إلى الفلاة على غير قياس»[٣٨] وإن الفلاتية من فلت: الفلت عندهم الفسوق والفجور «لاحظ أوامر محمد على التى نظرت إلى الفلاتية بمثل هذه النظرة واعتبرتهم لصوصًا»[٣٩].

وفى معظم معاجم اللغة يرتبط الشطار بالشطارة أى الانفصال والابتعاد.

والشاطر هو الذى عصا أباه أو ولى أمره وعاش فى الخلاعة، وشطر فلان شطارة، اتصف بالدهاء والخبث والذكاء، واللص الشاطر أى الذى يستخدم

الحيلة والقوة فى موضع القوة، ويرى بودكهارت أن الشاطر هو القادر، النشط، العارف والخبير فى الأعمال، ومن هنا تردد المثل «ما تتم الحيلة إلا على الشطار»[٤٠].

ويرتبط العيار بالشخص كثير التطواف والحركة» ويسمى الأسد عيارًا لمجيئه وذهابه فى طلب صيده»[٤١] بينما ينسبه البعض إلى الحمار، فالعير هو الحمار أهليًا كان أو وحشيًا وقد غلب على الوحش، قال الشاعر[٤٢]:

أفى السلم أعيار جفاء وغلظة وفى الحرب أشباه النساء العوارك

ويرى الزبيدى أن العرب تمدح بالعيار وتذم به، فهو الذكى الكثير الطواف والحركة وهو النشيط فى المعاصى، النشيط فى طاعة الله. فهو يرتبط من ناحية بالذكاء والخبرة «اللص العيار ما يسرق من حارته شيئًا» ويرتبط أحيانًا بالدجل والاحتيال كما اشتهر عنه فى أرياف مصر «بهلول الريف عيار»[٤٣].

أما المنسر «المنصر» فقد جاء الاشتقاق من «النسر» الذى ينسر الشىء ويقتنصه وهو من سباع الطير، سيد الطيور «ويعمر طويلاً وقبل إنه يعيش ألف سنة وله قوة على الطيران حتى قيل إنه يقطع من المشرق إلى المغرب فى يوم وجثته عظيمة حتى قيل: إنه يحمل أولاد الفيلة وله قوة حاسة الشم حتى قيل: إنه يشم رائحة الجيفة من مسيرة أربعمائة فرسخ وعنده شره»[٤٤].

وقد ارتبط هذا الوصف بخروج «جماعة بالخيل ما بين الثلاثة إلى العشرة ويصلون إلى ما بين المائة إلى المائتين فى بعض الأحيان» وفى بعض الأوقات كان «المنسر قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير»[٤٥] ثم أصبحوا فى وقت من الأوقات «يأتى بالليل ناس من الفلاحين والعرب يقال لهم المنسر وبأيديهم تارة شعل مضيئة بالنار فيصعدون إلى الحارات وينهبون البيوت ويقتلون ويجرحون، وكان أهل المحلات على الدوام حاضرين ومستعدين بالبارود والسلاح ويسهرون بالدور خوفًا من طرق المنسر»[٤٦].

وارتبط الزعار بطائر لا يرى إلا قلقًا يدعى «الزعرة» ولا يستقر به مكان، أو

بالشخص الذى قل وتفرق شعره فانكشف الجلد وبان ويطلق لفظ «زعران» على اللص الخاطف المارد، سيىء الخلق، وتقترب الكلمة «ذعار» من كلمة «الذعر» بمعنى الخوف والفزع والتخويف «يقال سنة ذعرية أى شديدة ورجل ذاعر ذو عيوب»(٤٧).

أما قطاع الطريق فهم «العياق»، والرجل العائق هو المانع الذى يعوق الطريق ويقطعه على الناس.

ويرتبط «النتاش» و «الطرار» و «النشال» بعلاقة دلالية فى اللغة، فالنتش هو «الاكتساب» نتش لأهله ينتشى نتشًا اكتسب لهم واحتال، أما الطر فهو «الشق والقطع» والطرار هو الذى يشق كم الرجل ويسل ما فيه و «الطر» ما طلع من الوبر وشعر الحمار بعد النسول «النثول»(٤٨).

أما «النشال» فمن نشل الشىء: أسرع نزعه، واللحم ينشله وانتشله أخرجه من القدر بلا مغرفة فهو نشيل ومنتشل، والمنشال حديدة ينشل بها اللحم من القدر كالمنشل(٤٩)، ويضيف ابن منظور أن «نشله جذبه جذبات كما يفعل من ينشل اللحم من القدر»(٥٠)، ويضيف الشيخ يوسف المغربى «ويقولون نشالاً للمختلس وهو أى النشال فى اللغة غير هذا قال نشال كشداد من يأخذ حرف الجردقة فيغمسه فى القدر فيأكله دون أصحابه»(٥١).

وقد فصل الزبيدى الحديث عن النشل فى «فصل النون من باب اللام.(٥٢) وأوضح أن الرجل العسال النشال أى سريع العدو وإن نشل الشىء ينشله نشلاً «أسرع نزعه» ونشله نشلات اى جذبه جذبات، وذكر أن الأصل فى النشال ما ذكره سابقًا المغربى «من يأخذ حرف الجردقة فيغمسه فى القدر فيأكله دون أصحابه» ثم أطلق على المختلس من اللصوص.

ثمة علاقة لغوية بين «النشال» و «النشناش» - «النشنش» - النشنشى»(٥٣) بمعنى الخفيف فى عمله أو حركاته.

هذه هى أهم الدلالات اللغوية ببعض - ولا أقول كلاً - فئات مهمشة اتسمت

بأعمال اللصوصية فى بعض سلوكها وتقاربت أفعالها من أفعال بعض الحرامية، الجعيدية، السراق الشراط، الهباشة، البرامكية، العصب «العصبجية»، البطحجية، البلطجية، الصعاليك، وبعض الحرافيش وغيرهم ممن ذكرنا بعضهم سابقًا.

ويبقى التساؤل: ما أهم الدلالات التى تكشف عنها هذه المصطلحات السابقة فيما يختص بهذه الفئات؟

الدلالة الأساسية أنها تعبر لنا عن ثقافة التمرد بما تعنيه من الانفصال والابتعاد عن الأهل «كما فى حالة الشطار» والتطواف الكثير والذهاب والمجىء والحركة «كما فى حالة العيارين» والانفلات والهيمان على الوجه لا يثنيهم شىء «الفلاتية نموذجًا» والقلق وعدم الاستقرار فى المكان والذين يترددون بلا عمل ويخلون النفس وهواها «الزعرة، الزعار مثالاً» وبما تعنيه هذه الثقافة من السرعة فى الهروب والخطف، فالمنسر سرعة فى الاقتناص مع قوة حاسة الشم، والفرار يمتاز بالعدو السريع، والنشال السرعة فى النزع والعدو أو كما يقول يوسف المغربى «ولا أسرع فى الحركة من النشالين». ومن هنا فقد لصقت ببعضهم أوصاف بعض الحيوانات والطيور «منسر من النسر، عيار بمعنى أسد أو حمار أحيانًا، الطر ما طلع من شعر الحمار، الزعرة طائر قلق... إلخ». وهذه الثقافة تعتمد كذلك على ما وصف به هؤلاء من مساوئ ومقابح ومناقص ومخازى. بما امتازوا به من دهاء وخبث ومكر وحيلة وذكاء، فالشاطر يعيش فى الخلاعة والعيار النشيط فى المعاصى وهو الدجال، والمحتال والعائق «قاطع الطريق» يعوق الناس عن عمل الخير، والرجل العوق هو الذى لا خير عنده، والزعرور سيئ الخلق «الزعار = شراسة الخلق» والدعر الفسق والخبث، الخيانة، النفاق، الفجور كالدعارة، والنتاش السفل[٥٤] ونتاش الناس رذالهم وشرارهم، ومن هنا قولهم «بيت النتاش عمره ما يعلاش»[٥٥].

ارتبط النتش دائمًا بالهبش وظهور ما عرفوا بالهباشة، فالهباش هو الذى يجمع ويكسب «يقال هو يهبش لعياله هبشًا أى يحترف لهم ويكتسب لهم ويحتال، قال رؤبه[٥٦]:

لولا هباشات من التهبيش

لصبية كأفراح العشوش

حفلت الكتابات التاريخية «الجبرتى نموذجًا» بصفات وملامح علقت بهذه الجماعات وكان من ضمنها:

الشـراذم[٥٧]: من الشرذمة أى القطعة من الشىء أو القليل من الناس وقيل الجماعة من الناس القليلة.

الأوغاش[٥٨]: أخلاط الناس، والواغش: القمل والصئبان.

الأوباش[٥٩]: من وبش وهم الأخلاط من الناس مثل الأوشاب وقيل هو جمع مقلوب من البوش ومنه الحديث قد «وبشت» قريش أوباشًا لها.

الغوغاء[٦٠] : من الناس الكثير المختلطون، صغار الجراد شبه به سواد الناس.

الأسـافل[٦١]: من السفل والسفالة ضد العلو، والسافل ضد العالى والسفالة تعنى النذالة، والسفلة هم السقاط من الناس يقال هو من السفلة.

الدعار ـ الدعر [٦٢]: «الفسق والخبث» الخيانة، النفاق، الفجور «كالدعارة» فى خلقه «دعارة» أو «زعارة» أى سوء، «الداعر» المؤذى الفاجر فى حديث عدى «فأين دعار طىء» أراد بهم قطاع الطريق، ورجل داعر ذو عيوب.

أولاد درزة[٦٣]: من درزى، بنات الدروز القمل والصئبان وأولاد درزة: السفلة، السقاط والغوغاء من الناس ويقال للفقراء بنو غبراء وأولاد درزة أيضًا، ابن درزة: الدعى أو ابن أمه تساعى.

عشرات الصفات الأخرى والتى لا يمكن حصرها فى هذا المجال والمتواجدة فى ثنايا الكتابات المعاصرة والتى وصفت بها هذه الجماعات، وقد ذكرنا بعضها فى أسطر سابقة، ظلت عالقة بهم حتى وقت قريب، وهذا التعدد فى الصفات يجعل من المتعذر على الباحث أن يضعها فى سلة واحدة، أو فى إطار مصطلح واحد خاصة وإن كتابات المؤرخين المعاصرين من أمثال الجبرتى لم تصف لنا

هذه الجماعات بشكل مفصل باعتبار أن نشاطها من قبيل الجزئيات، فالجبرتى يكتب قائلاً: «وانقضت هذه السنة، وما وقع بها من الحوادث الكلية التى ذكر بعضها، وأما الجزئية فلا يمكن الإحاطة ببعضها، فضلاً عن كلها لكثرها واختلاف جهاتها واشتغال البال عن تتبع حقائقها ونسيان الغائب بالأشنع والقبيح بالأقبح[٦٤].

هوامش وإحالات الفصل الثانى

(١) حول مدى مصداقية المفهومات بما يقبل الزيادة والنقصان راجع بصفة خاصة صلاح قنصوه (د) فلسفة العلم، الطبعة الثانية، دار التنوير للطباعة، بيروت ١٩٨٣، ص ص ١٧٢ ـ ١٧٦.

(٢) محمد فؤاد كوبر يلى: قيام الدولة العثمانية، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان . الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣، ص ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٣) يتذكر كاتب هذه السطور على سبيل المثال لا الحصر إبان أحداث الثورة العرابية ما كتبه ميخائيل شاروبيم بك (الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ، الطبعة الأولى، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ١٩٠٠، الجزء الرابع ص ٢٩٧) واجتمع عند ذلك الكثير من الحرافيش والسوقة وزعر باب الحديد وزعر باب البحر والأطراف وترامحوا أمام الجند وهم يضجون ويصيحون ببذىء القول وفحش الكلام ودائمًا ما وصفت مظاهرات الطلاب بانضمام الغوغاء والرعاع والدهماء فى صفوفها على نحو ما تحدث صدقى باشا عن أحداث ٢١ فبراير ١٩٤٦ وحتى حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ حمل عبد الرحمن الرافعى مسئولية الحريق لتلك العناصر التى وصفها «بالرديئة» من الشعب وشاهد بعض المثقفين كانوا يحرضون «الغوغاء» على الحريق (راجع: عبد الرحمن الرافعى: مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٤، ص ص ١٢٢ ـ ١٢٣) ويتذكر أخيرًا أن الانفجار الشعبى فى مصر يومى ١٩، ١٨ يناير ١٩٧٧ وصف على لسان الرئيس السادات بأنه «انتفاضة حرامية» راجع: حسين عبد الرازق: مصر فى ١٩، ١٨ يناير، الطبعة الأولى، دار الكلمة، بيروت ١٩٧٩، ص ٢٤، وكذلك محمد حسنين هيكل: خريف الغضب، الطبعة السابعة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ١٩٨٣، ص ص ٢١٩ ـ ٢٢٧.

(٤) أحمد تيمور: معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، إعداد وتحقيق الدكتور حسين نصار، الطبعة الأولى، الجزء الخامس، دار الكتب المصرية بالقاهرة ٢٠٠١، ص ١٨٧، وفى الجزء الرابع، (الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ٢٠٠١، ص١٩٥) ذكر تيمور أن: شرط (الشرطى) اللص الذى يقطع ثياب المارة ويسرق منهم ويرادفه الطرار ويقال للشرطى الماهر . أى الطرار: فلان ابن كار.

(٥) المرجع السابق، الجزء الرابع، ص ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦، والجزء الخامس، ص٦٩.

(٦) كارستن نيبور: رحلة إلى مصر ١٧٦١ ـ ١٧٦٢، ترجمة الدكتور مصطفى ماهر، المطبعة العالمية، القاهرة ١٩٨٨، ص ص ١٣٠ ـ ١٣١.

(٧) دفع الإصر عن كلام أهل مصر، حققه وقدم له الدكتور عبد السلام عواد، أكاديمية العلوم للاتحادالسوفيتى، قسم العلم التاريخى، جامعة لينجراد الدولية، دار النشر العلم، إدارة التحرير الرئيسية للآداب الشرقية، موسكو ١٩٦٨، ص ٢٠١.

(٨) سياحتنامه سى: مخطوط غير منشور ترجمه إلى العربية الدكتور حسين مجيب المصرى (الفصل الثلاثون: موكب جند مصر: النشالون، ص ٤٨٠).

(٩) يتحدث ابن إياس (بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الأول: القسم الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢، ص ٨٤) عند ذكر أخلاق أهل مصر وطبائعهم وأمزجتهم وما أشبه ذلك، قال بعض الحكماء: أهل مصر يتحدثون بالأشياء قبل وقوعها ويخبرون بالأمور المستقبلية قبل وقوعها وسبب ذلك أن منطقة الجوزاء تسامت رءوسهم فلذلك يتحدثون بالأشياء قبل أن تكون بمدة.

ويتحدث أوليا جلبى (سياحتنامه سى، ص ٥٤٧) عن سر إلهى فى مصر كلما يقع على وجه الأرض يصبح حديث أهل مصر قبل وقوعه بأربعين يومًا: اتفق ذات يوم أن ظهر درويش من أهل الله وجعل يطوف صائحًا، وقع الباشا ـ وقع الباشا ـ وبعد أسبوع أسقطوا أحمد باشا الدفتردار.

ومما جاء فى الأمثال (قالوا لأولاد مصر تعرفوا الغيب بايه قالوا بكثرة التجارب) راجع: نعوم شقير: أمثال العوام فى مصر والسودان والشام، مطبعة المعارف بمصر ١٣١٢ هـ. ص ٩٩.

(١٠) من ضمن الأمثال الدالة على التعلم «علمتك الشحاتة سبقتنى على الأبواب»، «علمته السرقة حط إيده فى الخرقة» أعلمك السرقة تحط إيدك فى جيبى» يضرب لمن يساجل أستاذه ويبزه فى فنه، راجع : الشيخ محمد عياد الطنطاوى : أحسن النخب فى معرفة لسان العرب، مطبعة ولهلم فوغل، لبسيا ١٨٤٨، ص ١٢٥ وكذلك أحمد تيمور باشا: الأمثال العامية، ص ص ٣٢٦، ٣٢٥ وكذلك فائقة راغب، حدائق الأمثال العامية، الجزء الأول، مطبعة أمين عبدالرحمن ، القاهرة. ١٩٣٩، ص ٢٧٦.

(١١) حيرم الغمراوى: أدب الشعب، مطابع جريدة المصرى، القاهرة ١٩٥٢، ص ١٨.

(١٢) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الخامس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥، ص ٤٧٦.

وحول الزغلية انظر أحمد تيمور باشا: معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٨، ص ١٣٦.

وحول نموذج للنصب والاحتيال فى استخدام النقود زمن محمد على انظر: إدوارد وليم لين: المصريون المحدثون. شمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلى طاهر نور، مطبعة الرسالة، القاهرة ١٩٥٠، ص ٦٨ ـ ٦٩.

(١٣) أصبحت خفة اليد ترتبط بعمليات السرقة والاختلاس والنشل وهى من الكنايات العامية «إيده خفيفة» التى تدل على المهارة مثل «سرق الكحل من العين» أو «خد من الحافى نعله» راجع :

أحمد تيمور باشا: الكنايات العامية، الطبعة الثالثة، الشركة الشرقية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٠، ص ١٠، ص ٣٢، ص ١٥٠.

(١٤) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠، ص ٢٠٠.

(١٥) يرى أحمد تيمور (معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الثانى، ص ٨٥) أن الأونطجية: أصل الأونطجى هو من يستأجره أصحاب ملاعب القمار ليوهم اللاعبين أنه مقامر ويعمل على مصلحة الملعب «عمل عليه أونطة: أى لعب عليه وخدعه».

(١٦) يذكر أحمد أمين (قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٣، ص ٤٣٠) أن «أونطة» كلمة إيطالية بمعنى حيلة أفنتا» يقولون ده شغل أونطة» وبلاش أونطة» وسينما أونطة هاتوا فلوسنا».

(١٧) محمد مرتضى الزبيدى: تاج العروس من جواهر القاموس، الجزء السابع، مطبعة حكومة الكويت ١٩٧١، ص ص ٩٧ ـ ١٠١، ص ص ٤٢١ ـ ٤٢٣.

(١٨) أحمد تيمور باشا: معجم تيمور الكبير، الجزء الرابع، ص ص ١٧٩ ـ ١٨٢.

(١٩) ابن إياس: بدائع الزهور، الجزء الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ص ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

ومما قيل فى بيان ثروة الشحاتين المستترة «الشحاتة كيميا» راجع: محمود عمر الباجورى: كتاب أمثال المتكلمين من عوام المصريين، المطبعة الشرقية (مصر خان أبى طاقية) سنة ١٣١١ هـ، ص ٣٥.

(٢٠) عبدالحميد يونس (د) خيال الظل، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مكتبة مصر ١٩٦٥، ص ص ٦٩ ـ ٧٠.

(٢١) فنون الأدب الشعبى، الجزء الثانى، دار الهنا للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٦، ص ص ١٣٢ ـ ١٣٥.

(٢٢) أحمد تيمور باشا: معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الثانى، ص ٢١ ـ ٢٢. وحول هذه الطائفة من الأدباتية الذين يستجدون بأدبهم العامى، وطلاقة لسانهم فى الشعر وحضور بديهيتهم، عرفوا بالإلحاح فى الطلب، فإذا رددت عليهم أى رد أخذوا كلمتك على البديهة وصاغوا منها شعرًا يدل على استمرارهم فى طلبهم واستغواء ممدوحهم وقد جمعوا إلى طلاقة لسانهم وحضور بديهيتهم منظرهم المضحك فى ملبسهم وحركاتهم، فزر خارج العمامة وطبلة تحت الأبط وحركات يدور معها زر العمامة كأنه نحل وتحريك لعضلات وجوهم كأنهم قردة، انظر:

ـ أحمد أمين: زعماء الإصلاح فى العصر الحديث، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٨، ص ص ٢١١ ـ ٢١٢.

ـ محمد فهمى عبداللطيف: ألوان من الفن الشعبى، مطابع دار القلم بالقاهرة، ١٩٦٤، ص ص ٧٤ – ٨٣.

الذى أبان أن الأدباتية يلجئون إلى فن يعمدون فيه إلى قلب الأشياء وصرف اللفظ عن معناه الأصلى إلى معنى مغاير يؤدى إلى إهدار القياس كما يقول علماء النكتة وتحدث به المفارقة التى

تثير الضحك وأنهم يؤدون فنهم جماعة يبدأ شيخ بالمطلع فيردون عليه ثم يمضى فى إيراد ما عنده من فن منظوم وفى آخر كل مقطع يردون عليه بالمطلع.

(٢٣) الأستاذ: الجزء الحادى والأربعون من السنة الأولى، ٢١ ذى القعدة سنة ١٣١٠ هـ ـ ٦ يونيو سنة ٨٩٣م محمدة عدت مذمة ص ص ٩٨٥ ـ ٩٩٥.

استمرت هذه المناظرة بين عبدالله النديم وجماعة الأدباتية ثلاث ساعات متصلة وكانت الشروط أن من تتحنح أو بلع ريقه أو سكت بعد فراغ صاحبه عد مغلوبًا.

(٢٤) أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص ١٣٨.

هذه الفقرة تدلنا على حرص المكدين (الأدباتية) على بعض قيم الفتوة والمروءة وهذا ما سنوضحه بعد ذلك.

(٢٥) حسن درويش: من أجل أبى سيد درويش، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥، ص ص٢٢٤.

(٢٦) محمد رجب النجار (د): حكايات الشطار والعيارين، ص١١.

(٢٧) حول على الزيبق انظر: على شادى حسن شادى: على الزيبق المصرى، دراسة وتحليل، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، ١٩٦٨، جامعة القاهرة، ص٥٦، ص١٣٢ ـ ١٣٥، وكذلك فاروق خورشيد: أضواء على السير الشعبية، مطبعة مصر ١٩٦٤، ص ص ١٢٨ ـ ١٥٤، وكذلك عبد الحميد يونس (د): دفاع عن الفلكلور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، ص ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٢٨) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثانى، تحقيق الدكتور عبدالرحيم عبدالرحمن، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٩٨، ص ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٢٩) أحمد شلبى بن عبدالغنى: أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشوات الملقب بالتاريخ العينى، تحقيق الدكتور عبدالرحيم عبدالرحمن، مطبعة الجبلاوى، القاهرة ١٩٧٨، ص٥٧١.

(٣٠) توفيق الحكيم: عدالة وفن (من ذكريات الفن والقضاء) مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ، المطبعة النموذجية القاهرة ١٩٨٠، ص ص ١٨ ـ ١٩.

(٣١) نجيب سرور: ملك الشحاتين ـ أوبريت، دار المأمون للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٨١، ص٨.

(٣٢) انظر بصفة خاصة: كارستن نيبور: رحلة إلى مصر، ص٢٥٢، وإدوارد لين: المصريون المحدثون، ص٧٢.

(٣٣) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ص١٨٤.

(٣٤) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الرابع، ص ٣٥١.

(٣٥) محمد بن أبى السرور البكرى: القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب، تحقيق السيد إبراهيم سالم ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطبعة مخيمر، القاهرة ١٩٦٢، ص٧٨.

(٣٦) أحمد تيمور باشا: معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية ، الجزء الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٣٧) المرجع نفسه، ص٣٨.

(٣٨) المرجع نفسه، الجزء الخامس، ص٦٩. (انظر كذلك فى هذا الجزء، ص٤٦ ذكره: فرار أى لص) ومن التصورات التى شاعت فى العصر العثمانى وذكرها الشيخ يوسف المغربى فى كتابه (دفع الإصر عن كلام أهل مصر ، ص١١٧) ما سمعه أن فرعون أصل اسمه عون وكان سارقًا فأخذ شيئًا وهرب فقالوا فرّ عون ثم خفف بفرعون.

(٣٩) الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على باشا، الجزء الثانى، دار الوثائق القومية (أمر منه إلى حبيب أفندى فى ٢٦ محرم سنة ١٢٥٢هـ) ، ص ١٠٩: يأمره فيه بإبعاث عساكر للهجوم على الثلاث نواحى ببلاد مديرية القليوبية، لوجود «لصوص» بكثرة وضبط «الفلاتية» تجهيز خمسمائة نفر من عساكر المغاربة الجدد مع مايتين سوارى أيضا للقبض على هؤلاء اللصوص والثلاث مشايخ الذين امتنعوا عن الحضور لدى طلبهم مع نظار الأقسام لتقرير ما يلزم وألقاهم فى السجن.

(٤٠) جون لويس بوركهارت: العادات والتقاليد من الأمثال الشعبية فى عهد محمد على ، ترجمة الدكتور إبراهيم شعلان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٩٨٩، ص١٧٢.

(٤١) محمد بن أبى بكر الرازى: مختار الصحاح، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية بمصر ١٩٠٥، ص٤٨٩.

(٤٢) محمد مرتضى الزبيدى: تاج العروس من جواهر القاموس، الجزء الثالث عشر مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٤، ص ص ١٧٢، ١٧٧.

(٤٣) جون لويس بوركهارت: المرجع السابق ، ص٤١،ص٥٩.

(٤٤) الأبشيهى: المرجع السابق، الجزء الثانى ، ص٣٦٤.

(٤٥) محمد مرتضى الزبيدى: المرجع السابق، الجزء الرابع عشر، مطبعة الكويت ١٩٧٤، ص ص ٢٠٧ ـ ٢١٢، وانظر كذلك أحمد تيمور باشا: رسالة لغوية عن الرتب والألقاب المصرية، مطابع دار الكتاب العربى، الطبعة الأولى ١٩٥٠، ص ص ٧٢ ـ ٧٣، حيث يذكر أن المنسر كما جاء فى (المخصص ٦٦٠، آخر ص١٩٩) ما بين الثلاثين إلى الأربعين سمى بذلك لأنه منسر الطائر يختلس اختلاسًا ثم يرجع ولايزاحف. وأنشد:

تقول لك الويلات هل أنت تارك   ضبوءًا برجل تارة وبمنسر

(٤٦) الشيخ خليل بن أحمد الرجبى: تاريخ الوزير محمد على باشا، تحقيق دانيال كريسيليوس، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٧ ص ص٧٣ ـ ٧٤.

ومن المأثورات الدالة على قوة المنسر ويقظتهم لدى العامة قولهم عنهم «راسه راس منسر» انظر : أحمد أمين : قاموس العادات، ص٤٣٠. لأن المناسر دائمًا متيقظون شديدو المراقبة لما يجرى حولهم.

(٤٧) محمد مرتضى الزبيدى: المرجع السابق، الجزء الحادى عشر، مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٢، ص ص٣٧٠ ـ ٣٧٢.

(٤٨) المرجع السابق، الجزء الثانى عشر، مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٣، ص ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ ـ ٣.

(٤٩) مجد الدين محمد الفيروز آبادى: القاموس المحيط الرابع، دار الفكر ، بيروت ١٩٨٣، ص٥٧.

(٥٠) لسان العرب ، المجلد السادس، دار المعارف بمصر ١٩٨١، ص٤٤٣٢.
(٥١) دفع الإصر عن كلام أهل مصر، ص٩٢ب.
(٥٢) محد مرتضى الزبيدى: المرجع السابق، المجلد الثامن، منشورات مكتبة الحياة بيروت، لبنان تصويرًا عن طبعة المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر المحمية سنة ١٣٠٦هـ، ص١٣٦.
(٥٣) لويس معلوف اليسوعى: المنجد، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٠٨، ص٦١٠.
انتهى مجمع اللغة العربية بالقاهرة من تحديد (نشل) الشىء نشلاً: أسرع نزعه (النشال) الكثير النشل، الخفيف اليد من اللصوص، السارق على غرة، راجع (المعجم الوجيز، الطبعة الأولى، مطابع شركة الإعلانات الشرقية ، القاهرة ١٩٨٠، ص٦١٧).
(٥٤) الفيروز أبادى: القاموس المحيط، الجزء الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٨، ص ٢٨٧ «فصل الميم والنون باب الشين (النتش)».
(٥٥) عزة عزت (د) : الشخصية المصرية فى الأمثال الشعبية، كتاب الهلال، العدد ٥٦١، مطابع دار الهلال، القاهرة ١٩٩٧، ص ٢٣٨.
(٥٦) محمد مرتضى الزبيــدى: المرجع السابق، الجزء السابع عشر، مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٧، ص ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧.
(٥٧) أحمد تيمور باشا، رسالة لغوية فى الرتب والألقاب المصرى، ص ص ٨٤ ـ ٨٥.
(٥٨) محمد مرتضى الزبيدى: المرجع السابق ، ص٤٥٣.
(٥٩) محمد بن أبى بكر الرازى : مختار الصحاح، ص٧٣٢.
البوش: بالفتح الجماعة من الناس المختلطين (الأوشاب) جمع مقلوب منه و(البوشى) الفقير الكثير العيال (نفس المرجع السابق، ص٨٣).
ويذكر الزبيدى (تاج العروس، الجزء ١٧، ص٨٥) أن الأوباش هم الجماعة المختلطة من الناس أو الكثرة من الناس يقال: جاء من الناس الهوش والبوش أى الكثرة وهم الغوغاء.
(٦٠) وهم حشد من الناس يتميز بعدم الاستقرار والنشاط الجمعى وبدون توجيه منظم يصاحبها أحيانًا عنف وعدم تعقل، هناك غوغاء معتدية تقوم بالسلب والنهب وغوغاء فزعة (زعار) فى حالة هياج دائم عند وقوع أو وجود كارثة وغوغاء ذات حاجة تتجمع طلبًا للحاجة، ولاتظهر قيادة واضحة لها بالرغم من ظهور نوع من القيادة التلقائية أحيانًا لكن الاتصال العاطفى المتبادل بين الأعضاء هو السمة الغالبة، راجع: معجم العلوم الاجتماعية، تصدير ومراجعة الدكتور إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥، ص ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠. (مادة: غوغاء).
(٦١) محمد بن أبى بكر الرازى: مختار الصحاح، ص٣٢٤.
(٦٢) محمد مرتضى الزبيدى: المرجع السابق، الجزء الحادى عشر، مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٢، ص٢٩٥ ، ص ص ٣٧٠ ـ ٣٧٢.
(٦٣) راجع: محمد بن أبى السرور البكرى: القول المقتضب، ص ٥٥، وكذلك محمد مرتضى الزبيدى: تاج العروس، الجزء الخامس عشر، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٧٥، ص١٤٥، ويذكر جورجى زيدان (مصر العثمانية، تحقيق الدكتور محمد حرب، كتاب الهلال ٥١٧، مطابع دار الهلال، القاهرة ١٩٩٤، ص١٦١) أن أحد ولاة مصر فى منتصف القرن السابع عشر عندما تولى الحكم

وكان يدعى حسين باشا جاء إلى مصر فى عصابة من الدروز التقطهم من كل واد وكانوا من قاطعى السبيل، فساموا المصريين أنواع العذاب نهبًا وقتلاً، فاضطربت الأحوال وأقفلت الحوانيت، ووقفت حركة الأعمال وهذا أصل استهجان المصريين لكلمة درزى على ما يظن.. وأتذكر فى طفولتى عندما كانت أمى تسب وتهين أحد الأبناء وتصفه بالبخل تقول له (يا درزى يا دون).. ويذكر أحمد أمين (قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص ص ٤ ـ ٥) أن (ابن درزى) تطلق على اللئيم الميال إلى الإضرار بالناس وهى نسبة إلى الدروز، وعامة المصريين يعتقدون فيهم سوء العقيدة ولذلك يتخذونهم علمًا للسباب.

(٦٤) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثالث، ص٣٧٥.

الفصل الثالث

التواجد والانتشار المكانى.. من القرافة إلى الأطراف

عندما يتحدث الجبرتى عن الحوادث الجزئية الكثيرة، المختلفة الجهات التى لا يمكن الإحاطة بها، فهى الأحداث المسكوت عنها فى الكتابات والأدبيات التاريخية، هى زخم الحياة الاجتماعية - الإنسانية فى مصر العثمانية والتى من الممكن أن نعيد اكتشافها فى وثائق المحاكم الشرعية آنذاك، إحدى أشكال هذا الزخم ما عجت به مدينة القاهرة وحاراتها وأزقتها من ازدحام وضجيج، وحتى المقابر «القرافة» وأطراف المدينة تكدست بالزحام، كتب الشيخ حسن البدرى الحجازى الأزهرى منتقدًا أهل عصره وأبناء مصره[1]:

حارات أولاد العرب	سبعًا حوت من الكرب
بولاً وغائطـًا كذا	تراب غبار سوء أدب
وضجة وأهلها	شبه عفاريت الترب

ورغم اهتمام سلطات الإدارة والحكم بتوسيع ونظافة الطرقات والشوارع والأزقة فى بعض الأحيان وهدم ما أنشئ فى الشوارع والأسواق بغير طريق شرعى من أبنية ورباع وحوانيت وسقائف ومصاطب وغيرها مراعاة لحق الطريق، فإن بعض الناس لم يلتزموا بذلك، الأمر الذى لفت انتباه بعض الفقهاء،

فالشيخ أحمد الدردير أحد كبار المالكية اشتكى من أن «الطرق ضيقة تضر بالناس»[٢].

وفى العصر العثمانى مع تواجد القصور والعمائر والمساجد والوكالات والمدارس وغيرها تكاثر بناء الزوايا والتكايا للدراويش والخانات والوكالات وحدثت أشكال كثيرة من الحراك الاجتماعى، فعلى سبيل المثال اختفى من الجهات القريبة من القلعة وجامع السلطان حسن سكانها الأغنياء «بعد أن أفزعتهم حركات المشاغبين وتحولت المنازل إلى أحواش سكنها الرعاع أما أغنياء الحى فقد هجروه إلى حى بركة الفيل أو بركة الأزبكية اللذين أصبحا المقرين المفضلين لدى الأمراء والخاصة»[٣].

وتزايد أصحاب الحرف الصغيرة والمشعوذين كالحواة والقرادتية بميدان الرميلة التى تحولت مبانيه الفاخرة إلى أكواخ وحيشان وإخصاص، وتزايدت الربط والتكايا والخوانق والجوامع والزوايا، وبدأت مناطق السكن الفقيرة على أطراف القاهرة تتضخم وأصبحت هذه المناطق محلاً لأفقر شرائح المجتمع والقادمين الجدد من الأرياف، وبدأت تتكاثر الأحواش داخل نطاق المدينة أو خارجها «أحواش المقابر نموذجًا»، والوثائق تتحدث كما أبانت نيللى حنا[٤] ـ فى الكثير من الأحوال عن «حوش الفلاحين» أو «حوش سكن الفلاحين» وكان يوجد نوع من التجانس بين سكان تلك الأحواش يعود إلى وحدة مسقطهم «حوش الشراقوة» و«حوش سكن الصعايدة» أو انتمائهم لمهنة واحدة، فقد كان يوجد شمال القاهرة بالقرب من جامع الحاكم «حوش للغوازى» بل حتى فى «القرافة» وبالإضافة إلى الأماكن الدينية كالزوايا والجوامع تزايد بناء القباب وجعلوا عليها الحيطان فتكون كالدور وبنيت بها البيوت، بدأ القراء والفقراء يفدون إليها، حيث يقرأ القرآن ليلاً ونهارًا ويوزع الطعام «الرحمة» على الفقراء والشحاتين، يتحدث عنهم الرحالة التركى أوليا جلبى «ولكن المتسولين الذين لا عمل لهم فكثير فى القاهرة ففى القرافات المذكورة ليلة الجمعة والإثنين لا يسلم أحد من هؤلاء المتسولين الجبابرة»[٥].

كان بعض العوام والفقهاء والفقراء والحرافيش وجماعات متلصصة يبيتون فى القرافات وبصفة خاصة الواقعة أسفل المقطم. المجاورين لباب الوزير، وللإمام الشافعى، وللسيدة نفيسة.. إلخ، وفى زمن الحملة الفرنسية تحولت هذه القرافات إلى مكان يتحصن فيه بعض الثائرين الذين انطلقوا من الحارات الجوانية والحسينية وبولاق وغيرها ولكن جنود هذه الحملة الذين قتلوا «شيخ الجعيدية» هم الذين هدموا القرافة حتى لا تكون مأوى لهؤلاء وأطلقوا قنابلهم على الحسينية والتى كانت أحد معاقل الثوار الذين كان معظمهم من العوام والحرافيش وزعر الحارات الجوانية والبرانية وهم الشرائح المسحوقة اجتماعيًاوليس لديهم ما يخافون عليه من مسكن أو أهل أو مال، هؤلاء الذين اعتبرهم الجبرتى من الطوائف الخارجة على القانون والعرف.

ومن المتعارف عليه تاريخيًا أن الفتوة العصب ـ العصبجية ظلت مرتبطة ببعض أحياء القاهرة حتى منتصف القرن العشرين الحسينية ـ بولاق ـ مصر القديمة(٦)، فالحسينية كحى نشأ خارج أسوار القاهرة تجاه باب الفتوح قريبًا من الخلاء، وهو أحد الأحياء الشعبية التى ضمت بعض الطوائف الحرفية إليها، ومن ثم كانت مناطق شديدة الحساسية للتقلبات الاقتصادية ـ السياسية منذ العصر المملوكى العثمانى، وأفرادها كونوا عسكر الأحياء أو عصب الأحياء معظمهم من الزعار والبطالين وصغار الحرفين، أطلق على بقاياهم الفتوات، الجدعان اشتهروا بالمهارة فى الضرب وانقطعوا لحماية من استجار بهم وفى الغالب يكونون أهل مروءة، تحدث عنهم الجبرتى فى عجائبه عند حديثه عن كفر الطماعين وكفر الزعار، وقال إن سكانها يميلون إلى التعصب والتحزب، ويذكر الجبرتى أن بعض أمراء المماليك كانوا يستعينون بهؤلاء لحمايتهم ومساندتهم وقد أطلق على هؤلاء الفتوات «المشاديد». وعندهم كما يقول أحمد أمين(٧) ــ إن السجن شرف ومروءة ويتفاخرون بها السجن للجدعان.

ويذكر على مبارك فى خططه عند حديثه عن سكان الحارات القريبة من الخلاء(٨):

«كفر الطماعين وكفر الزغارى حارتان، سكانهما يميلون إلى التعصب والتحزب، وكانت لهم غارات فيما سبق فكانوا يتحالفون على المغالبة والمضاربة

بالعصى والمساوق ويستعملون الشد والمد بينهم، بمعنى أن كل طائفة منهم لهم كبير يدعونه بالعم وهم يدعوهم بالمشاديد، فكان الواحد منهم إذا أراد التعصب على سكان جهة أخرى كالعطوف مثلاً ـ لمضاغنة بينهما أرسل إليهم يخبرهم بأنه يريد التعصب عليهم، فيعطونه ميعادًا، ويخرجون خارج البلد جهة الخلاء ويتضاربون بالمساوق ونحوها وربما فزع بعضهم بسلاح إذا طال القتال واشتد بينهم، وفى بعض الأحيان كان يموت منهم القليل وإذا وصل الخبر إلى الحكومة فكانوا ينكرون ذلك ويعدونه من الفتوة».

وهذه الجماعات وإن ظلت بقاياها حتى وقت قريب رغم افتقادها فى بعض الأحيان إلى دورها الإيجابى المتمرد الثائر وانحدارها إلى غايات فردية فإنها احتفظت ببعض من تقاليد وأعراف وقيم آداب المروءة والشرف، سيجد الدارس مثلاً فى ثورة ١٩١٩ فى مصر إضراب الشحاتين وامتناع النشالين عن النشل ومشاركة بعض فتوات الحسينية القريبة من الأزهر فى أعمال الثورة ومن الضاحك الباكى مايذكر عن أحد ظرفاء مصر محمد بك البابلى «مر شحاذ أمام قهوة أيام اضطرابات الثورة المصرية سنة ١٩١٩ والمدارس مضربة والمحال العمومية مقفلة والإضراب العام ضارب إطنابه احتجاجًا على ظلم وقع أو خطب ألم وجعل الشحاذ يستجدى الجالسين بصوت منكر وإلحاح ثقيل، وكان البابلى بين الحاضرين فقال: أيوه اضرب لك كام يوم انتم ماعندكوش وطنية»[٩].

والمتصفح لكتاب مذكرات فتوة ليوسف أبى الحجاج والذى صدر فى العشرينيات الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٢٧ أو لرواية المؤرخ الدكتور حسين مؤنس أحد المعاصرين لهذه الثورة، والتى نشرت مؤخرًا عصر الفتوات.. عصر البطولة للمصريين أيام الاحتلال والوزراء والباشوات، دار الرشاد، القاهرة ١٩٩٣ أو ما قدمه الروائى الأديب نجيب محفوظ وبصفة خاصة ملحمة الحرافيش يستطيع أن يدرك أبعاد هذا الدور، والذى لم تتعرض له الكتابات التاريخية التقليدية، والذى لا يخلو من دلالاته السياسية ـ الاجتماعية، على الرغم من أن نشاطهم فى بعض الأحيان امتد ليشكل خطرًا على الأفراد وانطلقوا فى طلب الحاجة واغتصابها من منطق التفاوت الطبقى الرهيب، واتضح ذلك فى صورة البلطجى

الذى يرى أحمد أمين فى قاموس العادات والتقاليد والتعابير، ص ٩٦ أنه الشخص القوى الذى يأكل مال الناس بالباطل، لكنه فى أحيان أخرى امتد من خلال نسق العنف ليشكل خطرًا على السلطة ورموزها آنذاك، فلنتأمل مقتطفات سريعة فى الخاتمة التى كتبها محفوظ للحكاية الأولى من ملحمة الحرافيش عن عاشور الناجى(١٠):

«وجد عاشور الناجى نفسه فتوة للحارة دون منازع وكما توقع الحرافيش أمام فتوته على أصول لم تعرف من قبل، رجع إلى عمله الأول ولزم مسكنه تحت الأرض كما ألزم كل تابع من أتباعه بعمل يرتزق منه وبذلك محق البلطجية محقًا، ولم يفرض إتاوة إلا على الأعيان، والقادرين لينفقها على الفقراء والعاجزين وانتصر على فتوات الحارة المجاورة فأضفى على حارتنا مهابة لم تحظ من قبل فحق بها الإجلال خارج الميدان كما سعدت فى داخلها بالعدل والكرامة والطمأنينة، وكان يسهر ليله فى الساحة أمام التكية يطرب للألحان ثم يبسط راحتيه داعيًا «اللهم صن لى قوتى وزدنى منها لأجعلها فى خدمة عبادك الطيبين».

أو هذه الفقرة من الحكاية العاشرة من ملحمة الحرافيش التوت والنبوت(١١):

«ولم يتوان عاشور ربيع الناجى ساعة واحدة عن تحقيق حلمه ذلك الحلم الذى جذب به الحرافيش إلى ساحته ولقنهم تأويله فى الخلاء وحولهم به من صعاليك ونشالين ومتسولين إلى أكبر عصابة عرفتها الحارة. سرعان ما ساوى فى المعاملة بين الوجهاء والحرافيش وفرض على الأعيان إتاوات ثقيلة حتى ضاق كثيرون بحياتهم فجروا الحارة إلى أحياء بعيدة لا تعرف فتوة ولا فتونة، وحتم عاشور على الحرافيش أمرين: أن يدربوا أبناءهم على الفتونة حتى لا تهن قوتهم يومًا فيتسلط عليهم وغد أو مغامر وأن يتعيش كل منهم من حرفة أو عمل يقيمه لهم من الإتاوات».

وإذا كانت رواية مؤنس الاجتماعية التاريخية عن فترة تاريخية عاشها المجتمع المصرى، فقد كان وراء الفتوة جماعة من المتعطلين حرس المعلم أو العواطلية

الذين مارسوا أحيانًا نمط البلطجة على النقيض من السلوكيات المحمودة للفتوات حيث كانوا يعيثون فى الأرض فسادًا فيشيعون الظلم والعدوان ويسرقون وينهبون وينتهكون الأعراض غير مكترثين بالقيم والتقاليد والأديان وهم الذين خرج منهم البطحجية «ظهر بالليل رجال يقال لهم البطحجية ومعهم أشياء يضربون بها كل من كان مارًا منفردًا أو تارة يضربون الاثنين ويأخذون من الناس ثيابهم وما معهم من الدراهم حتى عمت البلوى بذلك»[١٢].

وبالطبع فإن الفتوة والبلطجى يخشاهم الناس ويحسبون حسابهم، بحيث كان الناس يتقون شرهم بإعطائهم الأشياء مجانًا كفردة أحيانًا، ومن هنا شاع فى أقوالهم أثناء المنازعات بين فرد وآخر عبارة أنت عامللى فردة لكن مع فارق أساسى هو أن الفتوة يحظى باحترام الناس وحبهم لنصرته للمظلوم وإعطاء كل ذى حق حقه، وهذا ما أبانه محفوظ فى ملحمته عن الحرافيش أما البلطجى فيخافه الناس ويخشون بطشه وفرق شاسع بين الاحترام والخوف[١٣]. ولعل ما شد انتباه كاتب هذه السطور أثناء دراسة له عن المقاومة الشعبية أثناء حرب ١٩٥٦ ما عثر عليه فى مجلة صباح الخير ١٥ نوفمبر ١٩٥٦ من أن فتوات الحسينية اجتمعوا فى بيت أحدهم ويسمى سيدهم الجدع وقرروا فض خصوماتهم والذهاب سويًا لحمل السلاح.

الأعمال الفنية المصرية القديمة خصوصًا زاخرة بالعديدمن القيم النبيلة، وكان نموذج الفتوة ابن البلد من النماذة البارزة التى تناولتها مثل هذه الأعمال الفنية عشرات المرات وخاصة الفيلم المميز فتوات الحسينية وزمن الجدعان والذى لعب فيهما فريد شوقى دورًا بارزًا، كان الفتوات معنيين بإحقاق الحق والدفاع عنه ونصرة المظلوم ومساندة الأرامل والفقراء، وكانت الشهامة والشجاعة والتضحية والعدل تمثل ميثاقًا لا تخرج عنه سلوكيات الفتوات، وكان لكل منطقة فتوة يحميها فلا يجرؤ أحد الاعتداء على أهل منطقته.

وحتى مجىء الحملة الفرنسية كان للجعيدية حارة خاصة بهم تضمهم كجماعة متجانسة نسبيًا يمارسون مهنة واحدة كما يتصور ريمون[١٤] - تخضع لسلطة شيخهم، وكان بعضهم يتجمع قبل ذلك بجوار القنطرة الجديدة أو قنطرة

الحشاشين[١٥]. يستعملون الحشيش المعروف بالزية، ويبدو أن شيخ سلطان الحرافيش قد امتدت سلطته إلى هؤلاد الجعيدية، وقد مر بنا أن السلطان برسباى قد أمرهم بالعمل بدلاً من الشحاتة فى عام ٨٤١هـ فامتنعوا عن ذلك وهربوا نحو بلاد الصعيد كما يقول ابن إياس فى الجزء الثانى من بدائع الزهور.

ويتساءل المؤرخ: هل تنسب قرية الحرافشة بمديرية جرجا سوهاج الآن والتى تقع فى الجنوب الغربى لمدينة طهطا إلى هؤلاء؟ خاصة وأن على باشا مبارك يذكر فى أحد أجزاء خططه « كان أهلها قبل زمن العزيز محمد باشا فقراء بلاعدد ولا عدد ليس لهم كسب سوى نسج حصر الحلفاء وكانوا مستضعفين، أو لعل هذا هو السر فى تسمية القرية بهذا الاسم لأن الحرافشة فى الأصل جمع حرفوش ومعناه كما فى كتاب السلوك الدنىء الخسيس ويقال فى الجمع أيضًا حرافيش»[١٦].

ولعل هذا ما يوضح العلاقة بين الحرافيش والجعيدية وأن الحدود بينهما غير واضحة المعالم فثمة علاقة بين الحرافيش والفقراء من أصحاب الطرق الصوفية خاصة أما ما وصفهم شميس بالمجاذيب[١٧]، وثمة علاقة بين الحرافيش الذين نظر إليهم الجبرتى على أنهم من السوقة وأهل الحرف السافلة ومن لا يملك قوت يومه[١٨] وبين الجعيدية الذين مارسوا الشحاذة.

ولعل الجعيدية أطلقت على أشخاص شعرهم جعد[١٩] وضبتهم مخلوعة أو على حد قول الأبشيهى «كأنها ضبة جعيدى مخلوعة ولا تأخذ شيئًا»[٢٠]. وظلت طائفة تطلق عليهم هذه الكلمة التى لا يدرى أحمد أمين من أين جاءت، واعتبرها «طائفة سافلة حقيرة من الناس، صناعتهم غالبًا الشحاتة يسير اثنان مع بعضهما فى الغالب، أحدهما يحمل دربكة صغيرة والآخر يحمل «صاجات» ويلبسان ثوبًا قصيرًا لا يتجاوز الركب، حفاة بلا سراويل، وعلى الرأس إما طربوش قديم أو عمامة قديمة أو طاقية قديمة ويغشيان المحلات أحدهما يطبل على الدربكة والآخر على الصاجات ويغنيان أغنيات خاصة أكثرها بذىء[٢١] وقد اعتبر الأدباتية من هؤلاء الطائفة، وقد وصفهم بيرم التونسى فى أشعاره بأسوأ الأوصاف الجلافة والجعيدى هو الجلف أو الجحلوف على حد تعبيره والذى تراه:

تلقى الجعيدى فى جمعية فـى عمـاد الـديـن

ليلاتـى سـكـر وتسـلية سحـت ع الـوارثـين

ويصف الجمايدة بقوله(٢٢):

لما الجـعـايدة الغـجـر يتـعلمـوا التـمـدين

ويـركـبـوا الـكهـريا ويبطلوا الكوانين

الأرض تصـبح سـمـا والعـيشـة تصـبح طين

يتـوب علينا وعليك من رؤية السـافلين

يؤكد كاتب هذه السطور من تصفحه للقاموس الجغرافى للبلدان المصرية والذى ضمنه علماء الحملة الفرنسية فى موسوعة وصف مصر أو خطط على باشا مبارك أو قاموس محمد رمزى الجغرافى للبلاد المصرية أن هناك بعض القرى المصرية ارتبطت بأسماء جماعات مهمشة مثل طوخ الحرامية، كفر اللصوص، النشيل، منشأة خلبوص، الحلبية، كفر شحاتة، الزعيرة، الفوازى، هذه القرى وإن لم تكن مرتبطة ارتباطًا أساسيًا بهذه الجماعات، إلا أن مجرد التسمية له دلالة فى تصور تواجد جماعات من هؤلاء خارج القاهرة، أو بما يفيد على أهميتهم النسبية فى الوعى العام، الأمر الذى أدى إلى استهجان أسماء هذه القرى والمطالبة بتغيير ما وصفت به، حيث وافقت وزارة الداخلية على طلب أهل كفر اللصوص بتغيير الاسم إلى كفر الشرفاء عام ١٩٢٨ وعلى تغيير قرية البهرجة منشأة خلبوس لتصبح منشأة هديب على اسم عمدة القرية الشيخ عبدربه هديب وذلك عام ١٩٣٨»(٢٣).

مع انتشار وتزايد جماعات اللصوص والحرامية وقطاع الطرق، كان لابد من إجراءات رادعة اتخذت وكان لابد من إجراءات أمنية وقائية، هذا يفسر لنا إقامة الأسوار حول القاهرة، ففى عهد على باشا الصوفى ٩٧١هـ كثر السارقون وقطاع الطريق لا سيما حول القاهرة، فاضطر إلى بناء حائط من قنطرة الحاجب إلى الجامع الأبيض خوفًا من السارقين والأشرار أن يدخلوا البلد «فإنهم كانوا لا يكترثون بشىء لا ليلاً ولا نهارًا»(٢٤).

وبعد أن امتد العمران خارج القاهرة وفتحت فى أسوارها أبواب جديدة أقيمت على الدروب والحارات أبواب لمنع السرقة، وكان ذلك نتيجة لتعدد حوادث السرقة والنهب، عينوا لها البوابين وكانت تغلق عقب صلاة العشاء وبعضها عقب الغروب بقليل، وكان لابد من متانة البوابات على الدروب والحارات والعطف العمومية والخصوصية، فكثرة حوادث اللصوص أدت إلى أن يقوم الأهالى «يصفحون الأبواب بصفائح الحديد، ويسمرونها بالمسامير الكبيرة، ويفرطحون رءوسها ويجعلون بأكتاف الباب السلاسل المتينة، ويجعلون للباب الضبة والضبتين فى الخارج والداخل، ويزيدون من الداخل الترباس، وهو خشبة طويلة ينقرون لها بالحائط نقرًا تبيت فيه، فإذا جاء الليل أو خيف أمر سحبوها من مقرها بواسطة حلقة فى طرفها، فتأخذ فى عرض الباب أو آخره. وربما يبيتونها فى نقر من جهة عقب الباب وكانوا يتفننون فى الحيل لمنع الضبة من الفتح بعمل الدواسيس وشق المفاتيح ووضع السواقط»[٢٥].

وخوفًا واحتراسًا من اللصوص روعى فى بناء منازل الموسرين والعظماء كما شاهد لين[٢٦] - أن يجعل للمنزل باب سر يستطيع الساكن أن يهرب منه فى حالة الخطر، وروعى كذلك بناء مكان لإخفاء الكنوز يسمى مخبأ يكون فى جانب المنزل.، وكان من المعتاد أن يتجول أغا الدرك الشرطة فى شوارع القاهرة ويرافقه غالبًا المشاعلى والشعلجى أى حامل الشعلة التى تشعل حال إضرامها فلا يصعد لهبها إلا حين تحك فى الهواء عندما تضرم فجأة فى الخارج لتؤدى عمل المصابيح المعتمة ويقال إن اللصوص كثيرًا ما يشعرون بالشعلة فى الوقت المناسب فيتفادون مقابلة حاملها، ويقوم أعوانه بدوريات فى الليل مع بعض الجنود، ويتكاثر المخبرون وينتشرون فى أحياء العاصمة ويختلطون بالناس فى المقاهى وكلهم عيون وآذان وأغلبهم كما يرى لين[٢٧] - لصوص عفى عنهم يرافقون الحرس فى دورته الليلية خلال شوارع القاهرة.

ومما يؤكد كلمات لين السابقة ما ذكره الجبرتى فى أحداث ١٧ شعبان ١٢٠٢هـ ٢٣ مايو ١٧٨٨م[٢٨]:

وفى تلك الليلة ضربوا أعناق خمسة أشخاص من أتباع الشرطة يقال لهم البصاصون، وسبب ذلك أنهم أخذوا عملة وأخفوها عن حاكمهم واختصوا به دونه ولم يشركوه معهم».

وإذا كانت اللصوصية تتضمن فعل الشىء فى ستر، فإن التلصص كان يتضمن فى أحد معانيه السائدة أواخر القرن الثامن عشر معنى التجسس[٢٩]، ولهذا فقد ارتبط عمل البصاص ـ المخبر أو البوليس السرى[٣٠] بالتجسس فى الحكومة وهو إن ساعد الحكومة فى القبض على أرباب الجنح والجرائم والمشتبه فيهم إلا أن عمله هذا كان يؤذى الأهالى ويظلمهم واستمر الخوف سائدًا حتى وقتنا الحالى ـ من عمل بعض رجال المباحث.

ففى عصر محمد على كتب الجبرتى فى أحداث ٦ ربيع الثانى ١٢٢١هـ ٢٣ يونيه ١٨٠٦م:[٣١] «قبض الباشا على إبراهيم أغا وحبس مع أرباب الجرائم وسبب ذلك أن البصاصين شاهدوا حمولاً فيها ثياب من ملابس الأجناد أعدها بعض تجار النصارى ليرسلها إلى جهة قبلى لتباع على أجناد الأمراء المصريين ومماليكهم ويربح فيها وسُئل الحاملون لها فأخبروا أن أربابها فعلوا ذلك باطلاع الوالى المذكور على مصلحة أخذها منهم». ويضيف الجبرتى فى أحداث ٤ جمادى الأولى ١٢٢٩هـ ـ ٢٤ إبريل ١٨١٤م[٣٢].

«وفيه بلغ صرف الريال الفرانسة من الفضة العددية ثمانمائة وعشرين نصفًا، عنها ثمانية قروش، والمشخص عشرون قرشًا، وقل وجودالفرانسة، والمشخص بل والمحبوب المصرى بأيدى الناس جدًا، ثم نودى على أن يصرف الريال بسبعة قروش، والمشخص بستة عشر قرشًا، وشددوا بذلك، ونكلوا بمن يخالف ذلك، وعاقبوا من زاد على ذلك فى قبض أثمان المبيعات، وأطلقوا فى الناس جواسيس وعيونًا، فمن عثروا عليه فى مبيع أو غيره أنه قبض بالزيادة، أحاطوا به وأخذوا وعاقبوه بالحبس والضرب والتغريم وربما أرسلوا من طرفهم أشخاصًا متنكرين يأتى أحدهم للبائع فيساومه السلعة كأنه مشتر، ويدع له فى ضمن الثمن ريالاً أو مشخصًا أو يحسبه بحسابه الأول ويناكره فى ذلك، فربما تجاوز البائع خوفًا من بوار سلعته وخصوصًا إذا كانت البيعة رابحة أو بيعة

استفتاح على رغم الباعة. وقلة الزبون بسبب وقف حال الناس أو إفلاسهم، فما هو إلا يتباعد عنه يسيرًا، فما يشعر إلا وهو بين يدى الأعوان ويلاقى وعده».

وفى الجزء الثانى من الأوامر المكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على باشا ثمه أمر منه فى ٥ محرم ١٢٥٢هـ الجزء الثانى، ص ٩٢ - ٩٣ إلى مديرية الوجه القبلى دعا فى إلى تشغيل أنوال الفابريكات على مقتضى المقاس والمقطوعية «أنه لما كانت الأنوال فى النواحى كان البصاصون يظلمون الأهالى الفقراء بالأذية» كان من الضرورى للوالى محمد على باشا لحماية وتأمين دولته أن يلجأ لنائبه لكى يقوم بأعمال التجسس على منافسيه ومن يضر بأمن دولته وكان هذا النائب لاظ أوغلى محمد أغا كتخداى جناب والى مصر «مطلق التصرف فى أمور الإدارة» على حد قول أمين سامى -[٣٣] ولمراقبة هؤلاء رتب «من يحمل لهم ما يسدون به رمقهم أثناء سهرهم وسمرهم بالليل ممن يفهم لغة القوم من تركية وعربية وأناط بهم بوسائل شتى أن يجوسوا خلال ديارهم بصفتهم باعة لما يحتاجه الناس فى الليل بعضهم يحمل كعكا وبيضًا ودقة والبعض الآخر حب العزيز واللب بأنواعه والبعض الآخر يحمل أنواعًا من اللوز والبندق المقشر وبراغيث الست وأمثال ذلك، وكل هذه الأصناف من مال الحكومة فيتردد هؤلاء الباعة على سهار الليل من ذوى اليسار من أصحاب البيوت الواسعة التى يفد الناس إليها لقضاء السهرة فيها. يتوصلون أثناء ذلك إلى وعى كل مايقال فى السهرة بحسب الاستطاعة وعند مبارحة الدور وقبيل الفجر يدونون ماسمعوه فى تقارير ويلقونها فى فتحة من باب بيت كان معروفاً من عهد غير بعيد بمنزل قفطان باشا غرب منزل مصطفى باشا الكريدلى فى الساحة أمام المقام الزينبى وهذه الفتحة فى داخلها مخلاة وكل منهم يصل فى ميعاد معين لوضع تقريره فى تلك المخلاة وباب هذا البيت مفتاحه عند محمد بك لاظ أوغلى نفسه.

وقد استمر هذا النظام وتزايد بعد ذلك وانتقلت مهامه من الأمن السياسى إلى الأمن الاجتماعى - الاقتصادى، ونظمت أعماله والتى وضعت تحت رئاسة الصابطاخانة[٣٤] الإدارة الرئيسية للأمن حيث كانت تجرى التحريات عن الحوادث التى يطلب الديوان معرفتها عن طريق البصاصين الذين زادت

مرتباتهم بعد ذلك على نحو ماحدث فى عهد إسماعيل باشا عندما أصدر إرادة لمحافظ المحروسة أدهم باشا فى ربيع الثانى ١٢٧٣هـ برفع مرتباتهم من ٣٥ قرشاً إلى ٨٠ قرشاً بعد أن تبين له أن «إدارة المعيشة بهذا المرتب من المستحيل وبعد ذلك أصدر إدارة أخرى لأمين باشا محافظ مصر فى ١٩ رجب ١٢٧٦هـ دعاه فيها، ضرورة مراعاة الكيف لا الكم عند اختيار هؤلاء ونبه إلى ضرورة استخدام عدد بسيط من الجواسيس من «أهل النشاط والنباهة المستقيمى الأطوار للمبادرة بتقديم البلاغ عن أية حادثة.[٣٥]

وحتى عصر محمد على لم يكن يسمح لأحد بالتجول فى الخارج بلا مصباح أو أى نور بعد غروب الشمس بحوالى ساعة ونصف، وقلما ترى سائرا بعد ساعتين أو ثلاث، ولايكاد الليل ينتصف كما رأى لين[٣٦]. حتى تمر فى العاصمة جميعها فلا تقابل أكثر من عشرة أشخاص أو عشرين، خلا المراقبين والحراس وبوابى الحارات والدروب، وعندما يمر عابر سبيل يناديه الحارس بالتركية» من هذا كيمن دو أ فيرد المار بالعربية: «ابن بلد» ويجيبه أعمى إذا كان لايرى والحارس الخاص كذلك يصيح «وحد الله» أو «وحد» فقط، فيجيبه السائر: «لاإله إلا الله» ولايختلف النصارى عن المسلمين فى هذا القول، فهم يفهمون التوحيد فهماً مختلفاً، والمفروض أن اللص أو من يشرع فى مخالفة القانون لايجرؤ على النطق بهذه الكلمات.

هوامش وإحالات الفصل الثالث

(١) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار، الجزء الأول، ص ١٤٥.

(٢) أحمد الدردير «الشيخ»: الشرح الصغير، الجزء الرابع، الطبعة الثانية، مطبعة المدنى، القاهرة ١٩٦٢، ص ٣٦ «نقلا عن المقدمة التى كتبتها الدكتورة آمال العمرى لكتاب أبى حامد المقدسى: الفوائد النفيسة الباهرة فى بيان حكم شوارع القاهرة فى النفيسة مذاهب الأئمة الأربعة الزاهرة، مطبعة هيئة الآثار المصرية، القاهرة ١٩٨٨، ص٥».

(٣) سعاد ماهر (د): القاهرة القديمة وأحياؤها، دار القلم بالقاهرة ١٩٦٢، ص ١١٥.

(٤) نللى حنا (د): بيوت القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، ترجمة حليم طوسون، العربى للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٣، ص١٠٢، ص ٢٤١.

(٥)سيا حتنامة سى، ص ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥.

٦ـ فى إحدى قصائده عن الطوخيه: «الفتوات» كتب بيرم التونسى:

من كل طوخى وفرقته	ع الأمة رامى جنته
ويخص أهل حتته	فى كل يوم بمدبحه
معلمين ملهاش عدد	مشغلين مليون ولد
أحداث وأيتام البلد	زى الجراد متسرحة
حرامى من غير بينة	سلطان فى ايده مروحة

بيرم التونسى: الأعمال الكاملة «٤» بيروم وحياة كل يوم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦، ص ص ٨٥ ـ ٨٦».

ويبدو أن اصطلاح «طوخى» الذى ذكره بيرم يرادف اصطلاح «حرامى» وهو نسبة ـ كما أعتقد ـ إلى قرية «طوخ الحرامية» أو «طوخ القراموص» مركز ههيا شرقية والتى ذكرها على باشا مبارك فى خططه التوفيقية: «الطبعة الثانية، الجزء ١٣، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠١، ص ١٧٤.

(٧) قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص ١٣٤.

وحول حى الحسينية والذى ينسب إليه الفيلم المصرى الشهير الذى ظهر فى الخمسينيات من القرن العشرين «فتوات الحسينية» راجع: سعاد ماهر «د»: المرجع السابق، ص ص ٥٨ ـ ٥٩، عبد

الرحمن زكى «د»: القاهرة، تاريخها وآثارها، دار الطباعة الحديثة، القاهرة ١٩٦٦، هامش «١»، ص ١٦.

(٨) على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، الجزء الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢، ص ٢٤٣.

(٩) راجع حسين البابلى: البابلى، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٩٣٦، ص ٥٥، وكذلك قسطندى رزق: الموسيقى الشرقية والغناء العربى، الجزء الثانى، المطبعة العصرية بمصر ١٩٣٨، ص ١٨٣.

(١٠) نجيب محفوظ: المؤلفات الكاملة، المجلد الرابع، ملحمة الحرافيش، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٩٣، ص ٧٣٦.

(١١) المرجع السابق ص ص ٩١٧ ـ ٩١٨.

(١٢) الشيخ خليل بن أحمد الرجبى: تاريخ الوزير محمد على باشا، ص ٧٤

يمايز تيمور باشا فى معجمه الكبير فى الألفاظ العامية، «الجزء الرابع، ص ٤١٤» بين العصبجية والفتوات بقوله: «العُصبة بالضم هى العصابة من الأوباش يتضاربون وهم العصبجية والممتاز من العصبجية يسمى بالفتوة وقد صاروا يطلقونه على كل من كان منهم ولو لم يتميز بالقوة والجرأة، ويرى تيمور أنه إذا كانت الفتوة تمتاز بالخلق الحسن والمروءة فإن ابن إياس والجبرتى استخدما الزعر «الزعارة» بما يفيد العياق وكان استخدام أولى الزعارة والشطارة للفساد والخبث، وأطلق على العيارين العصبجية نفس المرجع، ص ص ٤١٤ ـ ٤١٨».

(١٣) فى عمود «بريد الأهرام» بتاريخ ٧ مارس ٢٠٠٢ وتحت عنوان «البلطجى والفتوة» تأسى الدكتور عبد اللطيف عثمان أستاذ بطب الأزهر من اختفاء نموذج الفتوة من حياتنا فى العصر الحديث الأمر الذى بات نادراً للغاية، لكن الشىء اللافت للنظر أن البلطجة الدولية أصبحت سمة العصر وتلعب الولايات المتحدة الأمريكية دور البلطجى المتجبر الذى يدير شئون العالم ويتحكم فى مقدراته بلا منازع بفعل غرور القوة واختلال موازينها، ويرى: «ولأن دوام الحال من المحال، واختلال التوازن يتعارض مع نواميس الكون فإننا نتوقع ألا يستمر هذا الحال إلى مالانهاية ولابد أن يعتدل الميزان خلال وقت مقدور..»

(١٤) أندريه ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٧٢، ص ٢١.

(١٥) محمد بن أبى السرور البكرى: النزهة الزاهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، تحقيق عبدالرازق عيسى، الطبعة الأولى، العربى للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨، ص ٢٥٨.

(١٦) الخطط التوفيقية الجديدة، الجزء العاشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ص ١٦٤.

(١٧) حول العلاقة بين الحرافيش والمجاذيب، راجع عبد المنعم شميس: حرافيش القاهرة، دار المعارف بمصر ١٩٨٩، ص ص ٩٨ ـ ١٠٢.

(١٨) عبد الرحمن الجبرتى: مظهرالتقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبدالرحمن، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٩٨، ص ٩٤.

ويرى الجبرتى أن من الملاحظ أن تجد «أحدهم يجتهد فى قوة سعيه ويبيع متاعه أو يستدين الجملة من الدراهم ويصرفها فى وقود القناديل وأجرة الطبالة والزمارة، وأكل، يجمع عليه ماهو

من أمثاله من الحرافيش ثم يقطع ليلته سهرانًا ويصبح دايخ كسلان ويظن أنه بات يتعبد ويذكر ويتهجد».

(١٩) حول كلمة «جعد» الجعودة الجعد والتى ترتبط أساساً بالشعر واليدين فجعد الأنامل هو البخيل وربما أطلق على البخيل أيضًا ولم تذكر معه اليد، راجع: مختار الصحاح للشيخ الإمام محمد بن أبى بكر الرازى، ص ١٢٠

(٢٠) المستطرف فى كل فن مستظرف، الجزء الأول، ص ٦٦.

(٢١) قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢٢) الأعمال الكاملة، بيرم ٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة والناس ١٩٧٦، ص ص ١٤٧، ١١٦.

(٢٣) انظر: علماء الحملة الفرنسية وصف مصر ترجمة منى زهير الشايب، الجزء ١١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢، صفحات: ٣٩٢، ٣٧٣، ٢٨٤، ١٩٣. وانظر كذلك على وجه التخصيص:

محمد رمزى: القاموس الجغرافى للبلاد المصرية، القسم الثانى، البلاد الحالية، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ص ٨٧، وكذلك القسم الثانى، الجزء الثالث، ص ١٦٨.

هذا عن كفر اللصوص مركز الزقازيق ومنشاة، خلبوص مركز بنى سويف أما قرية نشيل فهى من أعمال الغربية ذكرها محمد مرتضى الزبيدى فى مادة نشل فى مرجعه السابق، المجلد الثامن، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص ١٣٦.

(٢٤) على باشا مبارك: المرجع السابق، الجزء السابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧، ص ٥٦.

(٢٥) المرجع السابق الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٩٧.

(٢٦) لين: المصريون المحدثون، ص ٢٣.

(٢٧) المرجع السابق، ص ٦٧.

(٢٨) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثانى٢، ص ٢٤٧.

(٢٩) محمد مرتضى الزبيدى: تاج العروس من جواهر القاموس، الجزء الثامن عشر، مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٩، ص ص ١٤٦ ـ ١٤٩

(٣٠) حول البصاص انظر: أحمد تيمور باشا: معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الثانى، ص ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٣١) عبد الرحمن الجبرتى: المرجع السابق، الجزء الرابع، ص ١٧.

(٣٢) المرجع السابق، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(٣٣) أمين سامى باشا: تقويم النيل وعصر محمد على باشا، الجزء الثانى، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٨، ص ٣٢٧. وحول تفاصيل أكثر لدور هؤلاء البصاصين الذين عملوا تحت رئاسة لاظ أوغلى، انظر هامش «١»، ص ٣٢٧ من هذا المرجع. وحول النمو لهذه الجماعات

راجع رسالة عبد الوهاب بكر محمد: البوليس المصرى ١٨٠٥ ـ ١٩٢٢، رسالة ماجستير فى الآداب، قسم التاريخ، كلية الآداب جامعة عين شمس، الجزء الثانى، ١٩٧٧، ص ٤٧٨ ومابعدها.

(٣٤) عبد الوهاب بكر محمد: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٥٦.

(٣٥) أمين سامى باشا: تقويم النيل، المجلد الأول من الجزء الثالث، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٦، ص ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥، ص ٣٤١.

(٣٦) لين: المرجع السابق، ص ٦٧.

ـ فى ذلك الزمان إذا كان اللص لايجرؤ على النطق بكلمات مصحوبة بترديد «لاإله إلا الله» كما أوضح لين، فقد تزايد إيقاع تغير هذه القاعدة الأخلاقية بعد ذلك وأصبحنا نسمع من يقول فى الأمثال: «قالوا لحرامى الدقيق احلف قال يامره انخلى» يضرب للأمر ظهره شواهد منه فلا يحتاج إلى عناء فى كشفه. و«قالوا للحرامى احلف قال جا الفرج» وذلك أن الحلف أهون الأشياء على اللص الذى «ويكون أكذب مايكون ويقسم» على حد قول المتنبى. راجع:
أحمد تيمور باشا: الأمثال العامية، ص ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

الباب الثانى
السياق المجتمعى لنمو الجماعات الهامشية

الفصل الرابع : أوضاع سياسية لنمو الجماعات الهامشية.. عنف السلطة وتعسفها.

الفصل الخامس : أوضاع اقتصادية لنمو الجماعات الهامشية.. الفقر والإفقار والغلاء والوباء.

الفصل السادس : أوضاع اجتماعية لنمو الجماعات الهامشية.. تزايد أرباب الملاهى والمغانى.

الفصل الرابع

أوضاع سياسية لنمو الجماعات الهامشية

عنف السلطة وتعسفها

تحاول الدراسة، بقدر المستطاع تبيان رصد الجذور التاريخية لنمو هذه الجماعات المهمشة وهى وإن سجلت صفحات من تطور هذه الجماعات والذى يخضع دائمًا لعنصر التغير من زمان إلى آخر، فإنها تعرض للقارئ، غير المتخصص غالبًا فى البحث التاريخى، بعض من ملامح الظروف التاريخية العامة والتى نمت فيها هذه الجماعات أو بمعنى آخر فإن نمو هذه الجماعات ارتبط بسياق تاريخى سياسى - اجتماعى - اقتصادى واسع حيث لا يمكن الفصل بين هذا التطور وتطور المجتمع المصرى فى العصر الحديث.

وأول ما يلاحظ فى هذا المجال أن نمو هذه الجماعات تواكب مع تصاعد الانهيار السياسى - الاقتصادى وبصفة خاصة إبان الحروب والصراع الداخلى بين الجماعات العسكرية. خاصة إبان الانقسامات بين الأمراء المماليك بعضهم البعض سعد وحرام - فقاريه وقاسميه وكانت معظم أيامهم أيام فتن وحروب وشرور على حد تعبير الجبرتى، الذى نقل من الشيخ حسن البدرى الحجازى قوله فى حق أحد الولاة خليل عن باشا :

قــد جــاء مــصــر باشــة	أيــامــه لــيــست مــلاح
ضــرب مــدافــعًــا بهــا	كــذا رمــاح وصــفــاح
فــقــلــت فــى تــاريــخــه	خــلــيــل باشــا فــى كــلاح
اى فــى زمــان كــالــح	لــيــس بــه وقــت انــشــراح

هذا الوالى الذى يقول عنه الجبرتى فى أحداث سنة ثلاثة وعشرين ومائة وألف ١٧٠٧م أنه عندما «نزل من باب الميدان وشق من الرميلة على الصليبية والعامة قد اصطفت يشافهونه بالسب واللعن»[1] فى هذا «الزمان الكالح» الذى تزخر فيه المؤلفات التاريخية المعاصرة بعرض نماذج متعددة للصراع العسكرى - السياسى والذى أفردت له مؤلفات خاصة ازداد نشاط هذه الجماعات فى ظل حالة الانفصال بين معايير شرعية الدولة والمجتمعات المحلية وانهيار الأبنية الاجتماعية - الاقتصادية بشكل عام، ورغم تحامل المؤرخين على هذه الجماعات فقد استعين بها فى بعض الأوقات خاصة فى الأوقات التى هددت كيان الدولة وكيان المجتمع «على نحو ماحدث بصفة خاصة أيام السلطان الغورى وطومان باى وفى زمان الحملة الفرنسية على بر مصر» وفى بعض الأحيان تمتع بعض أفراد من هذه العصابات بمساعدة أفراد من المجتمعات المحلية «على نحو ماحدث مثلاً لقاطع الطريق زغلول أثناء فترة حكم محمد على باشا»، كان بعض الأمراء المماليك يستعينون بهم لضرب بعضهم البعض أحيانًا، وفى معظم الانتفاضات وأعمال التمرد على النظام السياسى والعسكرى والاقتصادى كانت هذه الجماعات جزءًا لا يتجزأ من التركيبة الاجتماعية للنسق المصرى وكانت أقرب إلى مصالح «العوام» والمعدمين. وكما سنرى بالتفصيل فيما بعد فى الهبات الكبرى إبان العصر العثمانى، خاصة هبات المجاعة والغلاء لعب هؤلاء الدور الأساسى وكانوا فى طليعة الثائرين.

مع الانهيار السياسى، والذى تمثلت بعض مظاهره فى الصراع بين أمراء المماليك وبين الأوجاقات العسكرية وبين الباشا والذى توالى عزله أو إهانته أو اغتياله فى بعض الأحيان، يقول شاهد عيان «إذا بلغ النيل خمسة عشر ذراعًا والعياذ بالله وقع الضرر كذلك، فلا يمكن تحصيل خراج السلطان ولا مال الأمناء

والكاشفين وتتعالى الأصوات مطالبة بعزل الباشا بدعوى أنه مشئوم ويحبس فى جوسق يوسف، ويعرض جميع الجند مسألة عزله على الأستانة ويظل الباشا حبيسًا إلى أن يأتى وزير آخر ويتولى مهامه أحد البكوات بصفة مؤقتة ويلقى بالملتزمين والأمناء والكاشفين فيما يسمى بالأرق خانة أى السجن ويعذبون ويعلقون فى البكرات وتصادر أموالهم وتباع ويحصل المال السلطانى بتمامه غير منقوص ثم يطلق سراحهم(٢).

ومع كثرة عزل الولاة مل السلاطين من مطالب المصرلية «أرسلوا لنا باشا خلافه» وعبر أحدهم وهو السلطان أحمد الثالث «١٧٠٣ - ١٧٣٠» عن هذا الضيق بقوله للوفد الذى أرسله محمد بك جركس يطلب تغيير محمد باشا «١١٣٧ هـ - ١٧٢٤م»: «التمسوا لكم باشا من خشب لتصنعوه على حسب أهوائكم»(٣).

فى أواخر القرن الثامن عشر كان الأوطة باشى يسلم أمر العزل إلى الباشا «فإذا وصل القلعة يدخل على الباشا ثم يجثو أمامه باحترام ووقار، وعندما ينهض يطوى السجادة التى كان جاثيًا عليها وينادى بأعلى صوته : «انزل يا باشا» وعند طى السجادة والتلفظ بهذه العبارة تسقط كل حقوق الباشا ولا يبقى له أقل سلطة على الجنود التى كانت قبل بضع دقائق تحت أمره، وتصير تحت أمر الأوطة باشى وكانوا يسمونه «أبو طبق» لأنه كان يلبس على رأسه قبعة مثل الطبق»(٤).

ألم يحفل قاموس «عوام» مصر آنذاك بعشرات النماذج من السب واللعن والسخرية والتهكم والتقليس والدعاء على بعض الولاة الظالمين مثل مصطفى باشا شاهين الذى «جعل الرشوة شعاره والظلم دثاره مع عدم إنصافه للرعايا» أو إسكندر باشا الذى «كان ظالمًا جبارًا عارض الفقراء فى أرزاقهم وأموالهم وعندما زادت الشكاوى منه ووصلت إلى مسامع السلطان عزل على الفور»(٥)، و«دعوا عليه من فوق مآذن الجامع الأزهر»؟

ألم يحفل هذا القاموس بعياط هؤلاء فى وجه بعض الولاة القادمين تظلمًا

من الغلاء والوباء والمظالم والكلف ورجم بعضهم بالحجارة؟ ألم يحفل هذا القاموس بهتافاتهم المتكررة عليهم؟ على نحو ما حدث لرجب باشا الذى اجتمع عليه أولاد مصر لكيدهم منه ومن أفعاله وأخذوا يصيحون:[٦].

باشا ياباشا	ياعين القملة
إيش قلك عقلك	تعمل دى العملة
باشا ياباشا	ياعين الصيرة
إيش قلك عقلك	تدبر دى التدبير

تشبث أهل مصر بالصبر والحيلة أحيانًا «اصبر على الجار السوء يايرحل ياتجيله داهية»[٧]. وعندما يرحل أحد هؤلاء الباشوات كنت تسمع رنين الفرح فى قلوب الناس، فعند خروج محمد باشا عام ١٧٢٨ زغردت النساء «لأنه ما خرج من هذه البلد حتى أفقر أهلها وقتل أعيانها وهرب من هرب» ويضيف كاتب السطور السابقة «ثم أنا سألت امرأة من نساء الكفر وقلت لها : ياالله العجب فيكم دون النساء فأنى مع هذا الباشا من بيته الذى بدرب السادات ما سمعت أحد زغرت إلا أنتم ولا أحد قال طريق السلامة له أبدًا فما الموجب لكم إنكم تزغرتوا، فقالت لى واحدة منهن : ياسيدى إحنا نزغرت لكونه مفارق مصر»[٨].

إذا كان بعض الدارسين يركزون على عنف هذه الجماعات الهامشية وما تقوم به من أعمال سلب ونهب وقطع طريق وسرقة ونشل، أو بمعنى أشمل وأصح كل ما تقوم به من أعمال لصوصية، فإنهم يتجاهلون - ولو دون عمد - أن هذه الأعمال كانت فى بعض الأحيان رد فعل عنيف على عنف الدولة وأجهزتها، وعجز هذه الدولة عن أن تحتوى تعديات الموظفين المحليين على أهل البلاد والعباد وإرهاقهم «غلاء وسوء كيل» والتضييق عليهم وجرهم إلى الخراب وإلى اليأس رغم إيمانهم بأن دوام الحال من المحال، كان لابد أن يكون رد الفعل بعدة مظاهر تتكاثر وتنمو : من التمرد العنيف إلى الهروب والتسحب والانضمام إلى جحافل هذه الجماعات الهامشية أحيانًا وبصفة خاصة اللصوص وقطاع الطرق الذين انتشروا بصفة خاصة فى أنحاء مختلفة من السلطنة العثمانية اعتبارًا من القرن السابع عشر، وهى عصابات كانت تشن هجمات جسورة على الأغنياء

والأقوياء، ومن ثم فهى تجتذب إعجاب وتعاطف الفقراء الذين تتشكل عمومًا بين صفوفهم وتقدم لهم ـ كما يؤكد أحد الباحثين[٩] ـ نوعًا من الثأر وتشكل مغامراتها المبالغ فيها الموضوع الرئيسى لما لا حصر له من السير والأغانى الشعبية.

هذا الثأر، كما يقال، جزء لا يتجزأ من العنف المضاد لعنف الدولة وجبروتها «باع السلطنة طويل» وإذا كان فمها يسبح فإن يدها تذبح، على حد قول المثل السائر «فم يسبح ويد تذبح»، [١٠] وإذا كان الحاكم «مالوش إلا اللى قدامه» كما يقول مثل آخر، فقد كان الفرار ضرورة» فر من السلطان فرارك من الأجرب»[١١].

تعددت وتكاثرت أشكال العنف وقسوة الدولة ورموزها، بل وارتبطت بها، فالاسحاقى المنوفى ينقل ما معناه «ويقال إن القسوة عشرة أجزاء تسعة فى الترك وواحد فى سائر الناس»[١٢] خاصة وأن الأتراك استخدموا الكثير من أنواع التعذيب، والتى كانت سائدة آنذاك فى أماكن أخرى - مثل الخازوق والترسيم والشنق والصلب والخنق والضرب بالكرباج خاصة الكرابيج الزعر وهى القصيرة المقطوعة الطرف، ولجأوا إلى التشهير والتجريس وغيرها.

وإذا كان الخازوق كوسيلة من وسائل تنفيذ العقوبات قد جلبه العثمانيون من ترانسلفانيا فى ظل حاكمها داركون والذى أصبح نموذجًا يخاف منه الصغار والكبار «داركولا» فآل عثمان قد نشروه فى المنطقة واستخدموه على نطاق واسع، ووجد قادة الحملة الفرنسية استنادا على العرف السائد المبرر لخوزقة سليمان الحلبى بعد مقتل كليبر على تل العقارب وشاع فى الأمثال «المخوزق يشتم السلطان»، «يجى زمان يترحموا فيه على فرعون»، «وحلنى من عمود واربطنى فى عمود يأتى الله بالفرج المبين».

وجد كاتب هذه السطور نماذج ضاحكة باكية فى ثنايا المصادر التاريخية التى تكشف لنا عن بعض ملامح العنف وقسوة بعض الولاة والمماليك، يذكر ابن إياس من مساوئ «خاير بك» : «كان جبارًا عنيدًا عسوفًا سفاكًا للدماء، شنق ووسط وخوزق من الناس جماعة كثيرة واقترح لهم أشياء فى عذابهم، فكان

يخوزقهم من أضلاعهم ويسميه شك الباذنجان»[١٣] وفى فترة لاحقة كتب الجبرتى : «الأمير عبدالرحمن أغا أغات مستحفظان سواس خيل مراد بك قطعوا رقبته حزًا بسكين ويقولون له انظر قرص البرغوث يذكرونه قوله لمن كان يقتله لا تخف ياولدى إنما هى كقرصة البرغوث ليسكن روع المقتول على سبيل الملاطفة فكانوا يقولون له ذلك على سبيل التبكيت»[١٤] ويضيف الجبرتى عن حسن كتخدا المعروف بالجريان لأنه كان ممتهنًا فى المماليك «ومن جملة أفاعيله القبيحة أنه كان يجرد سيفه ويضرب رقاب الحمير ويزعم أنه يقطعها فى ضربة واحــدة»،[١٥] ويقول عن الأمير سليمان بك المرادى «كان ظالمًا غشومًا، ويعرف بريَّحة بتشديد الياء وسبب تسميته بذلك أنه كان إذا أراد قتل إنسان ظالم، يقول لأحد أعوانه : «خذه وريّحه» فيأخذه ويقتله»[١٦].

يؤكد الجبرتى من «كثرة تعدى العسكر بالأذية للعامة وأرباب الحرف» الأمر الذى أدى إلى «هجــاج الفــلاحــين من الأرياف لما نزل بهم من جــور العــسكر وعسفهم فى البلاد حتى امتلأت المدينة من الفلاحين» هو الأمر الذى جعل أكثر الناس يتمنى أحكام الفرنساوية وخصوصًا الفلاحين، ففى حوادث عام ١٢١٧هـ ١٨٠٢ - ١٨٠٣ مثلاً يتحدث عن توالى الفرد والسلف والمظالم على أهل المدينة والأرياف وحق طرق المعينين وكلفهم الخارجة عن الحد المعقول» وتسلط العسكر على خطف الناس وسلبهم وقتلهم حتى أن أحد الباشوات قال عنهم «ليس منهم إلا الرزية والفنطزية» فالأرنؤوط «وقع منهم القتل فى كثير من الناس حتى فى بعضهم البعض وغالبهم لم يصم رمضان، ولم يعرف لهم دين يدينون ولا مذهب ولا طريقة يمشون عليها، إباحية، أسهل ما عليهم قتل النفس وأخذ مال الغير» ومافعله الكشاف فى القرى القبلية والبحرية من المظالم والمغارم وأنواع الفرد والتساويف «فشىء لا تدركه الأفهام ولا تحيط به الأقلام»[١٧].

إن عنف وقسوة رموز السلطة جعلت فى أجساد بعض المصريين مناعة ضد أعمال الخوزقة والضرب بالكرباج وكأنهم يستعذبون الألم.

يصف الرحالة التركى أوليا جلبى هذا «المنظر العجيب» فى «جرأة جبابرة مصر» كما وصفهم: «ومن عجب أن قبض ذات مرة على أحد اللصوص من

فلاحى مصر وعندما حان وقت إعدامه أعطى الكاشف كيسين أو ثلاثة وبسط إليه الرجاء أن يخرجه فى موكب كالبك ويمضى به إلى ديوان مصر، وفى التو تسلم الكاشف، الأكياس وقبل منه رجاءه وساق الجلادون هذا اللص إلى ميدان توقيع العقوبة وصلبوه وسلخوا جلده من الظهر إلى الصدر ومن الصدر إلى الظهر وهو حى يدخن التبغ ويتغنى بالموال ويمدح من قبض عليه ومن صلبه ومن قطع يده وقطع الجلادون أرجله ويديه دون أن يتأوه متألمًا، وبعد ذلك أتموا سلخ جلده وحشوه تبنًا واركبوا جثته على حمار مغطاة بملابسه ومضوا بها فى موكب إلى ديوان مصر قائلين إنها جثة لص وهذا منظر عجيب»[١٨].

يؤكد ما ذكره الشيخ خليل بن أحمد الرجبى : «وقد رأينا فى الفلاحين من ضرب ألف سوط ولم يتأثر سوى الضارب بوجع يده ولا نستغرب ذلك فإنى قد شاهدت من ضرب ثلاثة آلاف كرباج ولم يتأوه قط، وكان هذا المضروب فلاحًا وكان ابن شيخ بلد عندى، وكان الضارب له رجل يقال له عثمان أغا شقيق لاجين بك وقصد بذلك غمى وتكديرى ثم بعد ذلك أخذ الحصة منى نهبًا»[١٩].

وإذا كان هذا العنف يستحق فى سرده مجلدات، إلا أن ماذكرته فقرات قليلة للغاية فى بحر أشكال العنف والعنف المضاد الذى حفلت به صفحات تاريخ مصر المملوكية العثمانية تجاه الأسافل خاصة، الأمر الذى جعل الشيخ أحمد السندوبى بن سيدى أحمد المتوفى عام ١١٣٨هـ - ١٧٢٦م يقول فيهم[٢٠]:

لقد ضلت أكابرنا	براس غير مرءوس
وزالت نعمة بهم	وكانوا جنس إبليس
وقد ملكوا بلاد الله	من خيل وعيس
وما راعوا وما اعتبروا	بما قد صار فى الكيس
وشيد رأسهم بيتًا	كأنه عرش بلقيس
فصالوا واعتدوا وبغوا	وصار الناس انكيسى
إلى أن زاد بغيهم	برأى كان معكوس
وقطعًا من له مكر	يصبح نحس منحوس

فكم نقضوا عهدهم ولم يحرضوا بتدليس
وكم حلفوا بإيمان ولا إيمان للتيس

هوامش وإحالات الفصل الرابع

(١) عبدالرحمن الجبرتى : عجائب الآثار، الجزء الأول، ص ٦٣.

(٢) أوليا جلبى : سيا حتنامة سى، ص ٣٢١.

(٣) عبدالرحيم عبدالرحمن (د) : الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، ١٩٨٦، ص ٧٠.

(٤) جورجى زيدان : مصر العثمانية، تحقيق الدكتور محمد حرب، كتاب الهلال (٥١٧)، مطابع دار الهلال، القاهرة ١٩٩٤، ص ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٥) محمد بن أبى السرور البكرى : النزهة الزاهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، ص ص ١٤٤ - ١٤٥، ص ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٦) أحمد الدمرداشى كتخدا عزبان (الأمير) : كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة، تحقيق الدكتور عبدالرحيم عبدالرحمن، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٩، ص ١٤١.

(٧) نعوم شقير : أمثال العوام فى مصر والسودان والشام، مطبعة المعارف بمصر ١٣١٢ هـ، ص ٦٢.

(٨) أحمد شلبى بن عبدالغنى : أوضح الإشارات، ص ٥٤٢.

(٩) روبير مانتران : تاريخ الدولة العثمانية، الجزء الأول، ترجمة بشير السباعى، الطبعة الأولى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٣، ص ص ٥٠٠ - ٥٠١.

(١٠) نعوم شقير : المرجع السابق، ص ٩٥.

(١١) انظر بصفة خاصة حول العلاقة بين (الشعب المصرى والحكام) دراسة إبراهيم شعلان : الشعب المصرى فى أمثاله الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٢، ص ص ٥٧ - ٦٦. ويلاحظ القارئ أن معظم هذه الأمثال الدالة تنطلق أساسًا من ظروف العصر المملوكى - العثمانى مثل (ما تفرحوش فى اللى انعزل أما تشوفوا اللى نزل)، (افرحوا واتهنوا بقدومه جاكم بشومه)، (اللى تقول عليه موسى تلاقيه فرعون)، (اتوصوا علينا ياللى حكمتوا جديد إحنا عبيدكم وانتم علينا سيد).. إلخ.

(١٢) أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، الطبعة الأولى، المطبعة الأزهرية المصرية ١٣١١هـ ص ٧.

(١٣) ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الخامس، ص ٤٨٤.

(١٤) عبدالرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثانى، ص ٥٤.

(١٥) المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(١٦) المرجع السابق، الجزء الرابع، ص ص ١٢٨ - ١٢٩.

(١٧) تمتلئ صفحات الجبرتى بتعسف ومظالم الجند الأتراك والمماليك، انظر بصفة خاصة، الجزء الثالث من عجائب الآثار، صفحات : ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٧٥، ٣٧٧، ٤٢٥ كنماذج ذات دلالة ذكرناها فى متن الدراسة.

(١٨) أوليا جلبى : سيا حتنامة سى : ص ٣٤٣.

(١٩) تاريخ الوزير محمد على باشا، مرجع سابق، ص ٢٥٢.

- وعلى ما يبدو أن هذه الصورة التاريخية عن الضرب بالكرباج والتى جعلت الدكتور هيكل يكتب فى مذكراته «فكثيرًا ما حدثنا آباؤنا وأجدادنا وحدثتنا أمهاتنا وجداتنا عن حكم أولئك النفر الذين كانوا يزدرون المصريين أشد الازدراء ويحقرونهم أشد التحقير ويضربونهم بالسياط لسبب ولغير سبب وهذا هو مايعبر عنه المثل العامى (آخر خدمة الغز علقة) والغز هم الغزاة الأتراك والجراكسة ومن إليهم». راجع : (محمد حسين هيكل (د): مذكرات فى السياسة المصرية، الجزء الأول، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥١، ص ٢٠). وهذه الصورة كذلك هى التى جعلت أحمد أمين عند حديثه عن الأتراك يركز على مدى ما لقاه أهل مصر من تعسف وترفع واحتقار منهم لم يلقوا مثله فى أى عصر آخر (راجع أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد والتعابير، مادة (الأتراك) ص ص ٢٣ - ٢٤، و(التعذيب) ص ١٢١ - ١٢٢) وفى عام ١٩٦٨ كتب الشاعر أحمد فؤاد نجم (الشركسى):

ياشركسى يابو بندقية

لا دين لا ذمة

لا إنسانية

كرباج فى إيدك

والناس عبيدك

والفردة حتى ع الجلابية

راجع : (أحمد فؤاد نجم: بلدى وحبيبتى، قصائد من المعتقل، الطبعة الثانية دار ابن خلدون، بيروت ١٩٧٩، ص ٩٧).

(٢٠) أحمد شلبى بن عبدالغنى : أوضح الإشارات، مرجع سابق، ص ٤٨٨.

الفصل الخامس
أوضاع اقتصادية لنمو الجماعات الهامشية.. الفقر والإفقار والغلاء والوباء

يرتبط نمو هذه الفئات الكثيرة بطبيعة الأحوال الاقتصادية التى ساءت آنذاك والتى انفرد بعض المؤرخين بإظهار خصائصها وآليات نموها. وعلى وجه أخص دراسات أندريه ريمون عن تجار وأصحاب الحرف فى مصر العثمانية، وعبدالرحيم عبدالرحمن عن الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، ونيللى حنا عن بيوت القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وناصر إبراهيم عن المجاعات والأوبئة فى مصر فى القرن السابع عشر. مثل هذه الدراسات مع غيرها استكملت إلى حد بعيد إعطاء ملامح لطبيعة هذا التطور الاقتصادى - الاجتماعى. وإذا كان المجال لا يسمح بإعادة إنتاج بعض نتائج ووقائع الدراسات التاريخية عن مصر العثمانية فالأمر الذى يرتبط بطبيعة هذه الدراسة ويستحق التركيز عليه هو : كيف كان نمو هذه الجماعات الهامشية المرتبطة بأعمال السلب والنهب اللصوصية على وجه خاص مرتبطًا إلى حد بعيد بطبيعة التطورات الاقتصادية آنذاك؟

فى تلك الأزمنة لم تكن عمليات السلب والنهب قاصرة على مناطق الجذب والثراء مثل الأسواق والدكاكين والخانات وبيوت الأمراء والحواصل المليئة بالغلال

وسفن الملاحة البحرية لصوص البحر بل امتدت هذه الأعمال فى بعض الأحيان إلى بيوت أولاد الناس المساتير وإلى الفقراء فى أحيان أخرى حيث تكاثر اللصوص يسرقون الأحياء والأموات، يذكر أحد الرحالة الأتراك لمصر القرن السابع عشر «فى مصر كثير من لصوص المقابر الذين يسرقون الأكفان حتى أنه فى عهد جان بولاد زاده حسين باشا وضع بعض لصوص المقابر على الخازوق فى ميدان الروملى وخنقوا بالأكفان التى سرقوها»(١).

ارتبط نمو هذه الجماعات الهامشية التى مثلت المرتبة الدنيا السفلى فى البناء الاجتماعى بتزايد جماعات الفلاكة الذين يجمعهم الفقر والبطالة والإحساس الحاد به وعجزهم عن التوصل إلى نصيب عادل من وسائل العيش. أقام بعضهم فى الأطراف لبعدها النسبى عن مركز الإدارة والحكم ولأن البعد عن الحاكم غنيمة الأمر الذى كان يكفل لهم الكر والفر، وقد لجأ بعض هؤلاء إلى العنف والتمرد والخروج على ماهو سائد من أجل تأمين الحد الأدنى للمعيشة. لجأ بعضهم إلى الاستجداء والتسول وتعددت السبل فى الوصول إلى غاياتهم وانضم بعضهم إلى جيش الحرافيش الذى كان يتخذ من السؤال صنعة وحرفة.

هذه الجماعة من الفلاكة - المفلكون - المفاليك(٢) هم الذين وصفهم الفقيه الشافعى أحمد بن على الدلجى والذى توفى عام ١٧٩٥ بأنهم الذين أصابهم الإهمال والحرمان، وهم الذين زوى الله عنهم الدنيا، ولغويًا المفلوك مشتق من الفلك ومعناه على سبيل التجاوز أنه ذلك الذى يعارض الفلك فى مراده والرجل المفلوك هو «غير المحظوظ المهمل فى الدنيا لإملاقه وفقره» أو ذلك الذى لا يحصل على مقصوده إلا «بقدرة غيره». ومعنى ذلك بكل بساطة أن المفلوك هو المهمل الهامشى بسبب فقره وافتقاره، أو قل هو الصعلوك أى الرجل الفقير، وتصعلك بمعنى افتقر وهو الذى تقول فيه زعلوك ويضرب به المثل تروح فين يازعلوك بين الملوك(٣).

ولأن فقر المرء فى وطنه غربة فقد أصبح بعض هؤلاء الفقراء يطلق عليهم بنو غبراء أى على حد قول الزبيدى المحاويج وهم الصعاليك،(٤) وكما يؤكد

الزبيدى أن المغبرة هم قوم يغبرون أى يذكرون الله عز وجل بدعاء وتضرع يهللون ويرددون الصوت بالقراءة وغيرها :

عبادك المغبرة

رش علينا المغفرة.

ويرى أحمد أمين فى قاموسه الشهير «سمت العرب اللص ابن الطريق أو ابن الغبراء لاتصاله بالطريق اتصال الابن بأبيه»(٥).

انتشر هؤلاء فى كل مكان بحثًا عن الرزق من أى عمل لأن أغلبهم لا عمل له، أصبحوا «سريحة» يسرحون لالتقاط رزقهم الذى يحب الخفية يجرون جرى الوحوش عملاً بالمأثور المتداول «أجرى يا بن آدم جرى الوحوش غير رزقك ماتحوش». أصبح البعض منهم «فواعلية» و«أجرية»، حمالين، باعة، عمال نظافة بما فيهم الزبالون الذين يحملون القمامة إلى المستوقد، مجاذيب من نساء ورجال يعيشون على أبواب المساجد الكبيرة يجدون طعامهم اليومى فيما يقدم من نذور توزع على هؤلاء وغيرهم من الفقراء المتصوفة والشحاتين والمجاذيب. وإذا كان الشيخ عبدالوهاب الشعرانى قد نسب هؤلاء المجاذيب إلى التصوف فالمؤرخ الشيخ عبدالرحمن الجبرتى وغيره حمل عليهم بشدة، وقد ذكر على مبارك فى أحد أجزاء خططه أن بعض الناس كانوا يرسلون إلى مسجد الحسين ومسجد السيدة زينب سحارات كبيرة مملوءة بالخبز وفول النابت الذى يوضع داخل كل رغيف، ويوزع على هؤلاء الفقراء والذين كان منهم طائفة العميان حيث كان لهم شيخ «شيخ العميان»، بل فى جانب الأزهر زاوية تسمى «زاوية العميان» ينتسب إليها عميان الأزهر.

ومن المتعارف عليه تاريخيًا أن أعدادًا كبيرة من الشحاتين انتشرت فى العصر المملوكى - العثمانى انتشارًا كبيرًا على أشكال وألوان خاصة هؤلاء الذين تواجدوا بجوار أبواب الأولياء والمساجد»(٦).

فى العصر العثمانى كانت «طايفة الشحاتين»(٧) إحدى الطوائف التى كان لها وزنها الكمى والكيفى «الاعتبارى». كان عدد أفرادها فى تزايد مستمر ولتبيان هذا الوزن نستعرض فى عجالة هذه اللقطات ذات الدلالة التاريخية:

– فى أحـداث عـام ١٦٩٣، وعندمـا طلب السلطان أحـمـد خـان «١٦٩٣ – ١٦٩٥» ألفين عسكرى من مصـر يتوجهون إلى كريت كان سـر عسكرهم إبراهيم بك أبو شنب وعندمـا بدأ السـفـر ومـعـه ألـف نفـر وتجـهـزت الحـملة كـان «شـيخ الشحـاتين فى ركابه مع طايفتـه وهم يصـرخـون ويقـولون «الله يردك علينا يابيك سـالم لأنك أبو الفقـراء» لأنه كان يعرفهم بالواحد، ولما عـاد فى أغسطس ١٦٩٣ «أخـذت الشـحـاتين خبـر، جـمـعوا من بـعضـهم أربعًا وعشـرين ألـف نصف فضـة، اشـتروا بهـا حصـانًا بعبًأ مـزركشًـا وسرجًـا مـغـرقًا ورشـمـة ورختًا وغـدارة ودبوس وركـابًا مطليًا، لما طلع الحلى ونزل على السـمـاط قدموا له ذلك الحـصـان المرخت فقبله منهم وقطع لهم وصـول بثلاثين ألف فضـة،[8] وكـانوا ينادون «يا أبا الفقـراء مـا أحـد افـتكرنا وأنت غـايب أبدًا «ثم إن إبراهيم بك أعطى لشـيخ الشـحــاتين جوخه، ولنقيبهم جوخه ولكل فقير جبة وطاقية وشدًا، ولكل امرأة قميصًا وملاية فـيومـيـة تتـزر بهـا وأغـدق عليهم إغـداقـات زائدة وعـمل لهم سـمـاطًا ولم يركب إلا الجـواد الذى أهداه له الفـقـراء»[9]، وعند الصـبـاح ركب حصـان الشحـاتين وطلع عند البـاشـا على باشا ١٦٩٢ – ١٦٩٥ خلع عليه قفطان السـلامة.

– فى أغـسـطس ١٦٩٥ منتـصـف المحـرم سنة ١١٠٧هـ «اجـتـمـع الفـقـراء والشحـاتون من النسـاء والرجـال والصـبـيان وطلعوا إلى حوش الديوان وصـاحـوا ونادوا متنا من الجـوع وشـدة الغـلا فلم يرد عليهم أحـد جوابًا فـأخـذوا الحـجـارة ورجـمـوا جـمـيع من كـان فـى الديوان، نزلوا الرميلة ونهـبـوا الغـلال من قـمـح وفـول وشـعـيـر ونهـبوا حـاصل كتـخدا الوزير». ويضـيف أحـمـد شلبى بن عـبدالغنى عند قدوم إسـمـاعيل باشـا الوزير ١٦٩٥ – ١٦٩٧ «عـندما سـأل عن أحـوال مـصـر وعن سـبب قيام الرعـايا فى وجهه وعيـاطهم وغوشـهم فأخـبروه بما هـم فيه من الـغلاء والكرب الشديد وكثرة الشحـاتين التى امتلأت مصـر منهم لأن جميع الأرض التى لم تكن رويت جاء فقراؤها إلى مصـر» وعنـدمـا «أتت خلق كثيـر لا يعلم عددهم إلا الله تعالى» «جمعهم ووزعهم على الصناجق والملتزمين بمصـر، كل إنسان على قدر حاله وأخذ لنفسه ولأعيان دولته ألف نفس»[10].

هذا هو الفصل الذى أطلقت عليه ثلاثة أسماء فصل الشحاتين، فصل الهبا، فصل الشراقى الكبير، هو الفصل الذى أطلق فيه إسماعيل باشا الندا بمصر إلى ساير الشحاتين بأن يتجمعوا فى قراميدان فأتى منهم خلق كثير، فلما نظر إليهم أمر بتفريقهم على صناجيق مصر»[١١].

وقد تكررت هذه الصورة قبل ذلك فى عصر دولة المماليك، ففى فترات المجاعة والغلاء كان الحاكم والأمراء يجمعون هؤلاء على كثرتهم ويتولون الإنفاق إلى أن تزول الشدة ثم تعود ربما لعادتها القديمة.

فى أحداث سنة ١٦٩٦ - ١١٠٨هـ وعندما زال الوبا والغلا وبقيت الناس فى «رخا وخير» صار إسماعيل باشا يصطبح بالزغاريد والنوب التركى عاد وشرع فى عمل طهور أولاده، أتى «الحواة والقرداتية والخيال والأدبا والمحنبزين فى حوش الديوان» واستمرت الاحتفالات خمس عشرة ليلة «لا أكابر ولا أصاغر»[١٢] كما يقول أحمد الدمرداشى، كان أول يوم قاضى عسكر وثانى يوم العلماء كمالاً والمدرسين والطلبة وثالث يوم نقيب الأشراف ورابع يوم أرباب السجاجيد والحرف وفى اليوم الرابع عشر كان يوم العمى بالجامع الأزهر والشحاتين واليوم الخامس عشر سماط للعمى وسماط للفقراء فى حوش الديوان.

فى أحداث نوفمبر ١٨٠٠ «جمادى الثانية ١٢١٥هـ» وفى عهد الحملة الفرنسية يذكر الجبرتى أنهم «أمروا بجمع الشحاتين أى السؤال بمكان وينفق عليهم نظار الأوقاف»[١٣].

ويذكر الطهطاوى «أنه لما تغلبت الفرنساوية على الديار المصرية لمحوا أن بها كثيرًا من الكسالى القادرين على الاشتغال الذين يؤثرون السؤال عن الأعمال ويلحون فى الطلب فنشر حاكمهم قانونًا جاء فيه:[١٤].

البند الأول : جميع الناس الذين يسألون الناس فى الطريق ويطلبون الحسنة منهم يصير القبض عليهم وحضورهم أمام ضابط مصر ثم يتوجهون إلى سجن القلعة ما لم يكونوا من أصحاب العاهات كالعميان والعرجان والعاجزين عن الاشتغال.

البند الثانى : كل ملة من الإسلام والنصارى من أروام وقبط وشوام ومن اليهود أيضًا تعمل من الآن فصاعدًا حانوتًا لقبول كافة العميان والعرجان والشحاذين العاجزين عن الشغل يكون معدًا لهم».

فى عهد محمد على عانى العامة والفقراء على وجه الخصوص بؤسًا شديدًا من جراء نظام الاحتكار «وكثر الشحاذون الذين شكا منهم أمثال جسكيه Guis-quet وغيره ممن زاروا مصر من الأجانب فى هذا الوقت»(١٥) لذلك فقد أصدر محمد على باشا أمرًا منه إلى مختار بك فى ٢٩ محرم سنة ١٢٥٢هـ بعدم تحصيل فردة من طايفة الشحاتين والحانوتية والنساء الجارى استكراهن بالنقدية للبكاء خلف الجنازات تصنعًا بواسطة وضع ماءالبصل فى العينين(١٦).

وكان الباشا قد أصدر أمره «بما أنه تحرر إلى مأمور ديوان خديوى بعمل وترتيب الكساوى واللوازمات المقتضية لطايفة الشحاتين وإرسالهم إلى المارستان وإقعادهم بالمحل المشهور من المارستان لعدم مرورهم بالأسواق والأزقة ولهذا يلزم إخطاره بعد العلم بما ذكر يرسل من يوجد منهم بالأزقة والأسواق إلى المحل المذكور كسابقة صدور النطق الشفاهى إليه»(١٧).

وقد تضمن قانون المنتخبات عدة مواد خاصة بالشحاتين الفقراء:(١٨).

مادة ١٩١ : ان البلاد التى يكون فيها محلات معدة للفقراء لأجل تعيشهم وعدم تحملهم الضرورة إذا وجد بهم أحد يسأل فيضبط ويرسل إلى محل الفقر ولا يؤذن فى الخروج منه بأى وجه من الوجوه مدة ثلاثة أشهر ويعامل حينئذ مثل المحبوس.

مادة ١٩٢ : إذا وجد أحد من الأشخاص الذين يسألون فى البلاد التى ليس بها محلات للفقراء ويكونون قد اتخذوا السؤال عادة مع كونهم أصحاء الجسم وقادرين على أن يشتغلوا ويتعيشوا من شغلهم فإن مثل هؤلاء يجازون بتشغيلهم فى الأبنية الميرية التى بالمديرية أو بالمحروسة بمدة من شهر واحد إلى ثلاثة أشهر وهكذا الذين يضبطون وهم يسألون فى محلات خارجة عن القرية التى يكون محل إقامتهم فيها فيجرى تشغيلهم فى الأبنية المذكورة ستة أشهر جزاء لهم».

وكان مجلس المشورة قد قرر قبل ذلك فى ٢ جمادى الأولى سنة ١٤٢٥هـ «ألا يترك أولاد الشحاذين عالة على الناس فيؤخذ الصالح منهم وهؤلاء يرتب لهم أقوات فيعطى الكبير منهم ٢٥ فضة وللصغير ٢٠ فضة وللأصغر ١٥ وبعد اكتسابهم الصنعة يرتب لهم الأجر اليومى(١٩).

إن تزايد ونمو الجماعات الهامشية التى تعتمد على التسول والاستجداء أحيانًا وفى أحيان أخرى أعمال اللصوصية والسرقة والنهب وبصفة خاصة فى العصر المملوكى العثمانى يعود فى أحد أسبابه إلى عوامل القهر والإذلال التى أدت إلى بؤس أحوال الفلاحين وإلى التدهور التدريجى لقطاعات من أهل الحرف والصنائع وفى لحظات الغلاء والبلاء أو بمعنى أصح فى أوقات الأزمات الاقتصادية الناشئة لأسباب عديدة وتوالى سنوات الأوبئة والمجاعات، تزايدت تحركات الفلاحين أساسًا بحثًا وراء الرزق، طفشوا وهجوا مع توالى الفرد والمظالم والكلف والأعباء المالية العينية التى تزايدت عليهم خاصة وقد اشتهر بينهم المثل الذى عم مال السلطان يخرج من بين الظفر واللحم كل منهم «من ينجو بنفسه فيهرب تحت ليله فلا يعود إلى بلده قط ويترك أهله ووطنه من هم المال وضيق المعيشة كما قال بعضهم(٢٠).

قالت تسافر يا فتى	وتفارق الوجه الحسن
فأجبتها بتذلل	والقلب يعلوه الشجن
هم المعيشة فرقت	بين الأحبة والوطن

هذا التسحب هو الصورة القديمة الممتدة طوال سنوات التاريخ المصرى تزايدت فى العصر العثمانى، يقول مؤرخ مجهول يذكر أن غالب أهل القرى والبلاد تركوا بلادهم وأتوا إلى مصر المحروسة، لكن إقليم البهنسا والفيوم امتلأت منهم مصر المحروسة أكثر من سائر الأقاليم حتى جميع أزقة مصر المحروسة وحاراتها وأسواقها صارت ملانة من الشحاتين(٢١).

هى صورة متكررة وردت فى كتابات المؤرخين للأحداث، ذكرها الجبرتى مثلاً فى أكثر من موضع، فعند حديثه عن أحداث عام ١٧٩٢ «استهل المحرم

١٢٠٧هـ بيوم الخميس، والأمر فى شدة من الغلاء وتتابع المظالم وخراب البلاد وشتات أهلها وانتشارهم بالمدينة حتى ملئوا الأسواق والأزقة رجالاً ونساء أطفالاً يبكون ويصيحون ليلاً ونهارًا من الجوع، ويموت من الناس فى كل يوم جملة كثيرة من الجوع»(٢٢).

وإذا كنا قد رأينا أنهم أطلقوا على بعض الفصول مسميات مثل فصل الشحاتين، فصل الشراقى، فصل الهبا فى عام واحد وهو لم يحدث من قبل فقد هربوا من السخرة وسموا سنة من السنين كثر فيها الظلم بعد ذلك بسنة الطفشة(٢٣) وكانوا يؤرخون بها كثرة الشحاتين ككثرة اللصوص ارتبطت بالغلاء والكرب الشديد وكثرة المظالم والتعدى من قبل بعض أجهزة الإدارة ومن كان يواليها، كما حدث فى عام ١٢٠٥هـ عندما ثار العامة وأصحاب الطوائف والعلماء لأن صاحب الشرطة أحمد أغا أكثر من المظالم والتعدى ونهب البيوت وكما حدث فى عام ١٢٠٩هـ عندما تكاثرت مظالم المماليك وخرج هؤلاء يطالبون بالعدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع.

هذا هو العصر الذى تزايدت فيه تحركات الجياع حتى أن بعض المؤرخين ربط بين هذه التحركات وعدم وجود الخبز، على نحو ما ذكر أحمد شلبى فى كتابه عن عهد مصطفى باشا البستنجى ١٦٤٠ ـ ١٦٤٢ : «وفى أيامه كثرت المناسر لكونهم لهم يجدوا الخبز ودخلت اللصوص إلى الأسواق وصاروا يأخذون فى كل ليلة محلات، دخلوا إلى سوق ابن طولون وأخذوا ثمانية وأربعين دكانًا فى ليلة واحدة من سوق المغاربة(٢٤)، وقد استمر اللصوص فى الهجوم على الأسواق وأخذهم الدكاكين خاصة وأن الوالى كان يأخذ بلصته منهم ويطلق سراح اللصوص بعد أن أخذ من الباشا أوامر باستتابة هؤلاء .

والراصد لتحركات هؤلاء الجياع يجد أنها تزايدت وبالتالى فقد تزايد التسول واللصوصية ويرصد بعض علماء الحملة الفرنسية هذه الظاهرة، فيكتب أحدهم : «وقد لا يدرك الغريب الذى لا يعرف عادات البلاد أن هؤلاء الذين يتسولون بهذا الإلحاح، يدفعون إيجار أراضى عديدة يفلحونها وأنهم يمتلكون ماشية وحميرًا وخيولاً وأنهم يعولون عائلة كبيرة العدد» ويضيف أن الفلاح «لا

يلجأ إلى التسول المظهرى إلا ليخدم مضطهديه، فمن المهم بالنسبة له أن يظنه الناس بلا مورد رزق وبلا وسيلة للعيش»(٢٥).

ورغم ما حل بهؤلاء من مظالم، فقد مالوا إلى التهكم والسخرية والهجاء ودعوا على الحكام الظالمين من فوق المنابر وأثناء زيارة إدوارد وليم لين الأولى لمصر سمع أغنية ألفت لزيادة ضريبة الفردة وكانت تبدأ هكذا:

«ياللى عندك لبده، بعها وادفع الفردة»[٢٦].

هوامش وإحالات الفصل الخامس

(١) أوليا جلبى : سيا حتنامة سى، ص ٥٢٤.

(٢) يعود الفضل إلى الأستاذة الدكتورة زينب الخضيرى فى تبيان أهمية دراسة هؤلاء اعتمادًا على (أحمد بن على الدلجى: الفلاكة والمفلكون: مطبعة الشعب، مصر سنة ١٣٢٢هـ) راجع دراستها: (الفقر فى كتاب الفلاكة والمفلكون للدلجى)، أعمال الندوة السنوية السادسة، قسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة القاهرة (الفقر فى مصر) مطبعة جامعة القاهرة ١٩٩٩، ص ص ٦٥ ـ ٧٤).

(٣) محمد بن أبى السرور البكرى: القول المقتضب، مرجع سابق، ص ١٣١ وانظر كذلك أحمد تيمور باشا : الكنايات العامية، الشركة الشرقية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٠، ص ١٥٣.

(٤) محمد مرتضى الزبيدى: تاج العروس، الجزء الثالث عشر، ص ١٩١، ص ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ويرى الزبيدى أن البعض أطلق عليهم (المغبرة) لأنهم يرغبون الناس فى (الغابرة) أى الباقية الآخرة ويزهدونهم فى الفانية وهى الدنيا.

(٥) قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص ٤.

ويرى أحمد أمين أن (حرام) كانت قبيلة مشهورة بالشدة والبأس ويظهر قبيلة (سعد) انتصرت عليها، فتدنى (حرام) حتى كان من نسبه لصوص وسمى اللص حرامية أو قيل لكل لص (حرامى) «انظر نفس المرجع، ص ص ٨٧، ١٦١».

(٦) أصبحت الشحاذة مضرب الأمثال فى مصر (أبوه فلان وأمه فلانة وداير يشحت وطيظه عريانه)، (إذا ابتليت بالشحاتة، عليك بالباب العالى ـ إذا بليت بالشحاتة دق الأبواب الكبار) «راجع : فايقة حسين راغب: حدائق الأمثال العامية، السفر الأول، الطبعة الأولى، مطبعة أمين عبدالرحمن، القاهرة ١٩٣٩، ص ص٦٢، ١٤٧» أو (علمناه الشحاتة سبقنا على الأبواب)، شحات على شحات امتلأت مخلاته) «راجع جون لويس بوركهارت: العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية فى عهد محمد على، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩، ص ١٥٤، ١٢٨، ٤٠).

واشتهر شحاذو السيدة زينب والسيد البدوى بالإلحاح فى الطلب حتى ضرب بهم المثل فيقولون إذا رأوا ملحًا «زى شحاتين السيدة أو شحاتين السيد» ويتحدث يحى حقى فى رائعته (قنديل أم هاشم) الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر، سلسلة اقرء (١٨)، ص ١٢، عن شحاتين السيدة خليط من رجال ونساء وأطفال «ثمار سقطت من شجرة الحياة فتعفنت فى كنفها هنا (مدرسة الشحاتين) حامل كيس اللقم، يثقل الحمل ظهره ينادى : لقمة واحدة لله يا فاعلين الثواب، جاعان، والشابة التى تنبت فجأة وسط الحارة عارية أو شبه عارية: «يا للى تكسى الولية يا مسلم ربنا ما يفضح لك ولية».

(٧) عن هذه الطائفة راجع: عبدالرحيم عبدالرحمن (د) : فصول من تاريخ مصر الاقتصادى الاجتماعى فى العصر العثمانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٠، ص ٢٩٧.

(٨) أحمد الدمرداشى : كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة، ص ١٦.

(٩) أحمد شلبى بن عبدالغنى : أوضح الإشارات، ص ١٨٨.

(١٠) المرجع، ص ص ١٩٣، ١٩٧.

(١١) مجهول «زبدة اختصار تاريخ مصر المحروسة، مخطوط بالمتحف البريطانى رقم M. I. N. 9972 (مسودة المذنب العبد الحقير على بن رضوان، شعر الحاج مصطفى الحلبى)، ص ٣٠.

(١٢) أحمد الدمرداشى: المرجع السابق، ص ص ٣١ ـ ٣٢.

(١٣) عبدالرحمن الجبرتى: المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ٢٢٦.

(١٤) رفاعة بك رافع: مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية، الطبعة الثانية ، شركة الرغائب بمصر ١٩١٢، ص ٤٨.

(١٥) محمد فؤاد شكرى (د): بناء دولة مصر محمد على، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٨، ص ٥٠.

ـ انظر على سبيل المثال وصف إدوارد وليم لين لجماعات التسول فى القاهرة (المصريون المحدثون، مرجع سابق، ص ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣).

(١٦) انظر : الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على باشا، الجزء الثانى، ص ١١٢.

ـ لعبت المعددة النائحة ـ النادبة) دورًا مهمًا فى الحياة الاجتماعية فى مصر منذ القدم كانت تستدعى فى المآتم وهى تستفسر أولاً عن الميت، ومن هو، وعلى حال كان، وما فضائله ومزاياه وتصوغ من كل ذلك كلامًا فى تعديدها يثير كوامن النفوس ولها لسان فصيح وقدرة تامة على البكاء ولها طرائق فى التعبير تستخدم اللطم والضرب بالدف والنيلة والتى يصبغن بها المعددات وجوههن (انظر: أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص ٧٣) وأثناء المواكب الجنائزية كانت تخرج مع غيرها من الندابات وبقية النساء فى مواكب جنائزية، وحين أصدر مصطفى باشا (١٦٢٣ ـ ١٦٢٦) أمرًا بمنعهن الخروج وارتداء ملابس الحداد السوداء أطلق

المصريون على هذا الطاعة «الفصل الساكت» (أنظر : ناصر إبراهيم: المجاعات والأوبئة فى مصر فى القرن السابع عشر، رسالة ماجستير فى التاريخ الحديث، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٩٧، ص ٣٦ (نقلاً عن محمد بن أبى السرور البكرى).

وإذا كان التعديد خاص بالنساء فى مصر فقد عد من الغرائب «أنهم أحضروا مرة بين النساء فى مصر رجلاً من المخنثين المسمين بالغياش والخولات فى مرة فى مأتم عند الأسافل (راجع أحمد تيمور باشا : معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الثانى، ص ٣٨٨).

(١٧) أمر منه إلى ضابط مصر فى ٢٨ رمضان سنة ١٢٥٠هـ، مجموعة الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على باشا، الجزء الأول، ص ٥١٣.

(١٨) انظر : المادة المنشورة من الجمعية الحقانية فى تاسع شهر شعبان سنة ١٢٦٠هـ فى كتاب أحمد فتحى زغلول بك، : المحاماة، مطبعة المعرض بمصر ١٩٠٠، ص ١٤٩.

(١٩) أمين سامى باشا : تقويم النيل وعصر محمد على باشا، الجزء الثانى، ص ٣٥٦.

(٢٠) يوسف بن محمد الشربينى: هز القحوف فى شرح قصيد أبى شادوف، الطبعة الثانية، المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية سنة ١٣٠٨هـ، ص ١٢٠.

(٢١) زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر المحروسة (مخطوط)، ص ٣٠.

وحول عوامل هجر الفلاحين لقراهم نتيجة المظالم التى يتعرضون لها من رجال الإدارة، راجع: عبدالرحيم عبدالرحمن (د) : الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى ١٩٨٦، ص ص ١٦٥ ـ ١٦٨، وحول ارتباط اختلال الأمن وشيوع الجريمة وكثرة المناسر لكونهم لم يجدوا الخبز وأن عمليات النهب والسطو كانت موجهة أساسًا إلى التجار وأصحاب الحوانيت وبعض العسكر والأثرياء والعلماء، راجع: ناصر إبراهيم: المجاعات والأوبئة فى مصر فى القرن السابع عشر، ص ١٦٠ ـ ١٦٢.

(٢٢) عبدالرحمن الجبرتى: المرجع السابق، الجزء الثانى، ص ٣٦١.

يتحدث الجبرتى كذلك فى أحداث مايو ١٨٠٤ وبسبب العمليات العسكرية بين العسكر والمماليك والعريان الأمر الذى أدى إلى إخلاء القرى وخروج أهلها إلى مصر، لم يجدوا مأوى ونزل الكثير منهم بالرميلة بعد أن أصبح عدد كبير من القرى خاويًا بسبب (الشراقى والظلم) وبسبب ما فرض عليهم من مغارم وكلف وفرد.

(٢٣) أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص ٢٣٠.

(٢٤) أوضح الإشارات، ص ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢٥) علماء الحملة الفرنسية: وصف مصر (١)، دراسة شابرويل عن «عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين» ترجمة زهير الشايب، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٨٩، ص ٢٦٠.

(٢٦) المصريون المحدثون، مرجع سابق، ص ٢٢٧.

الفصل السادس

أوضاع اجتماعية لنمو الجماعات الهامشية
تزايد أرباب الملاهى والمغانى

ثمة علاقة جدلية بين نمو هذه الجماعات الهامشية خاصة تلك التى تعتمد على اللصوصية والتلصص وبين بعض طوائف أرباب الحرف. وهذه العلاقة متداخلة متفاعلة بل ومتناقضة فى بعض الأحيان، نجدها تسير فى أكثر من اتجاه، بعض هذه الجماعات كونت أساسًا طائفة لها ولكل طائفة رئيسها مثل طائفة النشالين، وطائفة المناسر، حيث أصبح هناك شيخ للنشالين وشيخ منسر. وارتبطت كل طائفة بحرفة وصنعة حتى أطلق على اللص «ابن كار» أى ابن صنعة والذى لا شك فيه أن كل طائفة كانت تتفنن وتتحايل فى عملها وأصبحت «الحرفنة» تعبر عن المهارات التى اكتسبتها من عملها.

ويلاحظ كذلك أن ثمة تأثيرات من الفتوة والفروسية بل ومن الصوفية فى بعض الأحيان قد علقت بجماعات منهم، فقد يكون أصلهم من الحرافيش والفقراء أو من طائفة الشحاتين التى أصابها ما يشبه التقنين والاعتراف بها من جانب الدولة حتى عصر محمد على. إن تكاثر أعداد الزوايا والطرق الصوفية فى العصر المملوكى العثمانى يعود فى أحد جوانبه إلى ذلك الرزق شبه الثابت

والثابت فى أحيان أخرى والذى أكثر منه المماليك والعثمانيون تشجيعًا لحياة التصوف.

والمتصفح لرسالة الدكتور محمد علاء الدين منصور عن «جماعات الفتوة فى الأناضول فى العصرين السلجوقى والعثمانى فى مصادرها الفارسية»[1] يدرك أن الدولة العثمانية قامت بمساعدة جماعات «الفتوة» وبعد أن أخذت الدولة فى الضعف العسكرى منذ أواخر القرن السادس عشر تركزت على طوائف أرباب الحرف ونقاباتهم فانتشرت تقاليدهم أكثر من ذى قبل فى البلاد التى خضعت للعثمانيين «مقدمة: صفحة ج».

والذين كتبوا فى آداب الفتوة ربطوها بأرباب الحرف من المداحين والسقائين والفراشين والمصارعين والحمالين واللاعبين على الحبال والحواة وغيرهم على نحو ما خصص الحسين الواعظ «ت ٩١٠ هـ» الحديث فى بابه السادس من كتابه «فتوتنامة سلطانى» المقدمة: صفحة ن ـ س» والذى كتبه بالفارسية.. وعلى نحو ما فعل الغيبى فى كتابه فتوتنامه والذى كتبه بالتركية «صفحة س ـ ع» حوالى عام ٨٧٦ هـ. أو ما فعله سيد محمد بن سيد علاء الدين الرضوى «مؤلف ٩٣١ هـ» فى مفتاح الدقائق فى بيان الفتوة والحقائق بالتركية.

أرباب الحرف العوام فى مصر تناولوا ترجمة الرضوى الأصلية أو الترجمات بالتحريف فغيروا من المضمون وأحالوا الفصحى عامية خاصة فى «كتاب الفتوة» «صفحة ع».

الدارس لقيام الدولة العثمانية يرى مدى الارتباط بين الصوفية التركية وطوائف الحرف من جهة وبحركة الأخيان والفتوة من جهة أخرى، بل ويرى كذلك مدى ارتباطها بحركة شعبية كانت سندها الأكبر فى الفتوحات الأولى. عكست فى بعض الأحيان التناقض الاقتصادى بين الطوائف الحرفية وبين التجار.. عبرت عن العداء لطبقة المتعاملين بالمال وللعقلية المرتبطة بالثروة، عكست الطوائف الأخوية الدينية «الملامتية ـ البيرقية» هذه المصالح والمشاعر الشعبية. وهذه الحركات كانت ذات جذور قديمة فى المجتمع الإسلامى «الفتوة» تبنت

فلسفة اجتماعية أقرب إلى التمرد والثورة، دعت إلى المساواة. نظمت أفرادها فى تنظيمات سرية لها طقوس خاصة، وبمعنى أصح فإن هذه الحركات الصوفية السنية «الفتوة» كانت ذات أصول طائفية حرفية، ويلاحظ أحد الباحثين أن «المبادئ الأخلاقية لهذه الطوائف قامت على بعض الأسس الدينية ـ الصوفية وعلى تقاليد البطولة «الفروسية ـ الفتوة». كانت لها تنظيمات وتشكيلات قوية «على نحو ما حدث فى الأناضول من نشأة جماعات الإخوان أو الأجواد «أخيلى» التى ضمت طبقات اجتماعية مختلفة من رجالات الدولة والمشايخ والعلماء وأرباب الحرف ومنهم الحرافيش ومن لا عمل لهم».[٢]

يقف المؤرخ متسائلاً حول دلالة السطر الأخير من الفقرة السابقة والتى تتضمن «ومنهم الحرافيش ومن لا عمل لهم»:

هل كان من لا عمل لهم يضم الشحاتين والشطار والزعار والعصب والعيارين وغيرهم ممن وصفوا فى بعض الأدبيات التاريخية بأنهم من أسافل وأراذل الناس وأنهم من الأوباش والأوغاش إلى غير ذلك من الصفات التى علقت بهم؟

وهل هذا يفسر دلالة الفقرة العلمية التى ذكرها الباحث الفرنسى الشهير أندريه ريمون عندما تحدث عن أحياء القاهرة الشعبية فى القرن الثامن عشر والحركات الجماهيرية التى قامت فيها عن الأحياء والروح الجماعية. عن ترابط العوام بالزعار والشطار بالحرافيش، واعتبر أن هذه الجماعات من الغوغاء «آخر تناسخ للفتوة التى بقيت على خريطة الحى عن طريق الاستعراض ومن تلاحم الروابط الحرفية بالتطلعات الدينية»؟[٣]

يبقى الأمر الذى أوضحنا بعض معالمه فى حديثنا السابق عن جماعات الفتوة «المشاديد ـ الجدعان» وهو ارتباط هؤلاء ببعض فضائل الشهامة والمروءة التى تمثل أهم قواعد السلوك عندهم، فهم يرعون الجار «الحرامى الشاطر ما يسرق من حارته»[٤] وقد يكون ذلك خوفًا من افتضاح أمره وسط جماعته فيجد نفسه مضطرًا إلى الانفلات منهم بعد أن يُشهر به ويُجرس، ويعينون الضعيف ويغيثون الملهوف ويصدرون فيما بينهم عن تكافل اجتماعى أصيل فى رعايتهم لمن يتوفاه

الله منهم وتعهدهم المستمر لعائلته وأولاده، وقد رأينا على سبيل المثال فى سيرة على الزيبق والذى غدا «مقدم درك مصر وقائد الزعر» كيف كان الناس يهابونه بعد أن «صار ينصف المظلوم ويأخذ لصاحب الحق حقه حتى أحبه الجميع»(٥)

يلاحظ كذلك أن نمو الجماعات قد ارتبط كذلك بالانهيار التدريجى لنظام الطوائف الحرفية الشهيرة والتى كانت إحدى دعائم النظام الاقتصادى ـ الاجتماعى الموجود، وارتبط كذلك بتعاظم دور طوائف أخرى مهمشة أسفل السلم الاجتماعى وهى جماعات مرت بتغيرات مختلفة واكتسبت ملامح مميزة ومارست أنشطة تعتمد على يالتسول أساسًا والاستجداء وليد الحاجة وتراوح عملها فى أغلب الأحيان بين الشكل المشتت المتناثر وبين الشكل المنظم.

وقد تكاثرت مثل هذه الجماعات الهامشية وكان من بينها على سبيل المثال: المحبظون، المفذلكون، الجنبازية، الأدباتية، الغجر، الغوازى، الخلابيص، البهلوانات، القرداتية، الحواة، المصارعون، لاعبو خيال الظل وعرائس القراجوز، الآلاتية، العاهرات، المبخراتية، المسحراتية، المسلكاتية، السقاءون، الشبكشية، مبيضو النحاس، الندابات، ضاربات الودع وقارئات الكف، الحوذية الحمارة، الفعلة، الكيالة، الدلالون، الباعة الجائلون. إلى أن نجد منهم فى فترة متأخرة ماسحى الأحذية وأولاد السبارس وسنانى السكاكين.

ارتبطت معظم أنشطة هؤلاء بأشكال هامشية وليدة الحاجة. وارتبطت بعض هذه الأنشطة، ولا أقول كلها، بعمليات التحايل والسرقة والنشل فبعض الحواة والقرداتية ارتبط عملهم بالنشل ساعدهم فى ذلك وجود بيئة ملائمة مع ازدحام الناس، فقد يقوم بعملية النشل الحاوى أو القرداتى أو حتى القرد المدرب على ذلك وقد يقوم به شخص آخر.

ما أريد التركيز عليه هو:

الانحلال التدريجى لنظام الطوائف أدى فى نهاية المطاف إلى تكوين فئات من المعدمين خارجه. وحتى على ا لرغم من ظهور المحاولات الأولى لتنظيم الدولة الحديثة فى عهد محمد على وبعض ما جاء بعده من محاولات احتواء واستيعاب

وتنظيم عمل بعض هذه الطوائف، فإنها كانت أشبه بعقد وقد انفرط حباته. ففى أواخر القرن السابع عشر قدر البعض أعداد هذه الطوائف بحوالى ٣٠٠ طائفة فى العاصمة وصلت إلى ما بين ١٠٦، ٧٢ طائفة أواخر القرن الثامن عشر، خاصة وأن الحكم العثمانى ألغى أوقافًا كان يصرف إيرادها على الطوائف من قبل وازداد عدد المعدمين وخاصة الفعلة العمال الأجراء إذ بلغوا حوالى ١٥ألفًا فى القاهرة وفئة الخدم ومن إليهم البالغ عددهم ٣٠ ألفًا فى نفس الفترة حسب تقدير علماء الحملة الفرنسية، وبقى كثيرون من هؤلاء خارج الطوائف لعجزهم عن دفع المبلغ المطلوب لمشايخهم أولاً وثانيًا لأن الأسطوات والأساتذة جاهدوا لكى يحصروا مراتب المبتدئين بين أبنائهم وثالثًا لتحول الشياخة فى الطوائف إلى امتياز وراثى.(٦)

مع هذا الانهيار التدريجى انضم بعض هؤلاء إلى جيش الحرافيش. الشحاتين، الزعر والشطار إلى فقراء الصوفية. ثمة علاقة أساسية بين الطرق الصوفية التى قال عنها الشعرانى كان التصوف حالاً فصار كارًا، وكان احتسابًا فصار اكتسابًا وبين الحرافيش من المعدمين والشحاتين، وكذلك بينهم وبين الطوائف الحرفية الأخرى فى العصر المملوكى - العثمانى خاصة وأن مصر حفلت إبان ذلك العصر بفرق المتصوفة وطوائف الفقراء الذين تغلغلوا فى المدن وانتشروا فى الأقاليم والقرى وكونوا ما يمكن أن يسمى بدولة الفقراء الذين كانوا فوق العرف وفوق القانون.(٧)

كانت هذه الدولة ذات نفوذ كبير عند المصريين، فمع كثرة الطرق وتعددها كثرت ألوف المريدين والأتباع من أهل العلم والأدب وأولى الحكم والسياسية وأصحاب الحرف وغيرهم.،كان اللصوص وقطاع الطرق «ينقادون للشيوخ، بل يبادرون إلى الاتصال بهم وطلب المغفرة، على يدهم ويحتملون منهم كثيرًا من ضروب العذاب وألوان العقاب، ويسيرون فى مواكبهم فى الشوارع مقيدين فى السلاسل والأغلال غير شاكين ولا مبرمين، كان الشيخ إذا نظر فى طريقه إلى أحد المجرمين تبعه المجرم من تلقاء نفسه مستسلمًا مستغفرًا».(٨)

بل تحول بعض اللصوص وقطاع الطرق إلى وعاظ وأصحاب كرامات ولدينا نموذج ابن عروس الذى يقال إنه عاش حوالى سنة ١٧٨٠ والذى اشتهرت أزجاله

وذاعت فى أنحاء البلاد، ويغلب على الظن أن هذا الاسم غلبه عليه فى أيامه الأولى حين كان لصًا يقطع الطريق ويسطو على الآمنين. أما اسمه الأصلى فلم يرد له ذكر فيما حفظه الرواة من أخباره وغاية ما ذكروه عنه، أنه ولد فى قرية من قرى الصعيد لأبوين فقيرين ونشأ متعطلاً مهملاً وصار زعيمًا لأخطر عصابة من اللصوص وقطاع الطرق وبلغت جرأته حدًا أخاف الأهالى والحكام وبلغت ثروته فى ذلك الوقت مبلغًا كبيرًا وبلغت حياته فى الإجرام ثلاثين سنة وفى الحلقة السادسة من عمره أقلع عن الغواية وأناب فبدأ بحطام العاجلة فوذعه على الفقراء ولم يبق لنفسه شيئًا منه وهام على وجهه فى البلاد متصوفًا ناسكًا يدعو إلى الفضيلة ويحض على التقوى ومكارم الأخلاق ومن أزجاله:(٩)

حرامى وعاصى وكداب عايز هزيل المطايا
وتبت ورجعت لباب هيا جزيل العطايا

* * *

الندل له طعم مالح وله خصايل ذميمة
القرب منه فضايح والبعد عنه غنيمة

* * *

كسرة من الزاد تكفيك وتبقى نفسك عفيفة
والعمر بكره يطويك وتنام فى جنب الخليفة

* * *

لابد من يوم معلوم ترتد فيه المظالم
أبيض على كل مظلوم وأسود على كل ظالم

وقد أدرك عوام مصر تحول اللص إلى واعظ، وقالوا على سبيل السخرية من الادعاء الكاذب أو المشكوك فيه صار نقاب الغراير واعظ أى تحول الحرامى إلى واعظ، والنقاب هو الذى يثقب فجوة جدار بقصد السرقة، وعلى هذه الصورة «نقاب الحيط» وهو الشخص الذى يقتحم الحائط ليسرق ويقوم بها لصوص من مصر العليا - كما يقول بوركهارت فى كتابه حول العادات والتقاليد المصرية، ص ١٠٧ - ببراعة تثير الدهشة و «غراير» جمع «غرارة» وهى قفة للقمح تحملها الجمال وهى أقصر وأوسع من التليس الزكيبة.

وهناك نموذج آخر وهو الشيخ صالح أبى حديد[١٠] الذى أنشأ له الخديو إسماعيل مسجدًا بداخله قبره عام ١٢٨٠ هـ يعمل له حضرة كل أسبوع ومولد كل عام وشعائره مقامة من ريع أوقافه بمعرفة ديوان الأوقاف، والمعروف من أمره أنه كان فى مبدأ أمره قاطع طريق، وكان له صاحبان ملازمان له أحدهما الشيخ يوسف المدفون بالقرب من القصر العينى والآخر غير معروف اسمه كان تيزين بزى الدراويش زعم الناس أنه من الأولياء فتبركوا به وقبلوا يديه، وكان يستمر جالسًا إلى الليل وكلما مر عليه رجل بمفرده قال يا واحد فيخرج فى الحال من البيت جملة رجال يحتاطون به ويدخلونه البيت قهرًا عنه فيقتلونه ويسلبون ما معه واستمروا على ذلك زمنًا طويلاً وعندما قبض عليه بعد عمل كمين له، أقر الشيخ على صاحبيه الشيخ يوسف والشيخ صالح، وكان الشيخ يوسف يلوذ بلاظوغلى فوقع عليه فعفا عنه، وأما الشيخ الذى كان تيزين بزى الدراويش فقتل بعد تعذيبه، وأما الشيخ صالح فاحتمى بامرأة مغنية مشهورة فادعت أنه مجنون ووضعت فى رجليه قيدًا من الحديد واعتقل لسانه عن الكلام لشدة خوفه، وبقى على ذلك مدة ثم شاع عنه بين الناس أن له كرامات وأخبارًا بالمغيبات فقصده كثير من الناس أكابر وأصاغر، واعتقدوا فيه وازدحم بيته بالزوار وهجمت عليه النذور والهدايا وثارت ثروته تتضخم واستمرت حالته هكذا إلى أن مات وبنى له الخديو إسماعيل هذا الجامع ودفن به.

ونشير كذلك إلى انتماء الكثير من هذه الجماعات المهمشة إلى الطرق الصوفية وتكاثرهم فى الموالد والمواكب الاحتفالية والتى يستخدم فيها السيوف وأكل النار والثعابين والزجاج وضرب الإنسان نفسه بسلاح حاد وحمل الأعلام والرايات والدق على الطبول، والدوسة، وتزايد أعداد المجاذيب الذين يطلقون شعورهم ويدعون أنهم أولياء وقد «منح محمد على باشا محمد أفندى ياسين شهبندر التجار جمع الفردة من الأكروبات والمشعوذين والمشتغلين بالسحر، حيث كان العديد منهم أعضاء فى الطريقة الرفاعية» والتى كان شيخها وقائدها كذلك محمد أفندى ياسين» وكان قد تعذر جمع «الفردة» من هؤلاء بسبب عدم انتظامهم فى نقابات مهنية»[١١]

كثرة الموالد معناها كثرة الفقراء وكثافة وازدياد حركة العوام والخواص الأمر الذى يؤدى فى بعض الأحيان إلى اللجوء إلى أساليب التحايل والنصب بل والنشل «ولك أن تتصور أن الموالد التى تعمل فى السنة فى مدينة القاهرة وضواحيها ثمانون مولدًا ـ كما حددها على باشا مبارك ـ[١٢] موزعة على أشهر السنة، كل مولد تستمر احتفالاته حوالى أسبوع»

ولم يقتصر وجود هذه الفئات على الموالد، بل وجدت فى أوقات عديدة عادية كشكل من أشكال التسلية والترفيه، رغم سنوات المجاعة والحروب المتصلة والتى تواصلت بعد الفتح العثمانى لمصر عام ١٥١٧.

ولعلنا نتذكر ما كتبه ابن إياس عن سماع السلطان سليم لأحد الأشخاص جعل الغراب يتفوه بكلمات بها دعاء للسلطان الذى أجزل له العطاء، وكيف أخذ السلطان معه أثناء رجوعه مجموعة ضخمة من أصحاب الحرف والصنائع بما فيهم المخايلون، وفى حوادث ربيع الآخر ٩٢٤ هـ يذكر «حضر شخص من حلب فهلوان وصعد على الحبال، أظهر أشياء غريبة فى صنعه الفهلوانية وهو واقف على الحبال منه أنه نصب له أوماج وبنية وأرمى بالنشاب فى البنية وهو واقف على الحبال، ومنها أنه مشى على الحبل وهو مقيد وعيناه مربوطتان بخرقة، ومنها أنه مشى على الحبل وفى رجله قبقاب وتحته ألواح صابون وأرمى فى الأوماج وهو واقف على حمل فيه سيوف مسلولة، ومنها أنه مشى على الحبل مقلوبًا وهو مغمى العينين وأظهر من هذه الأنداب العجائب والغرائب». ويضيف فى أحداث ذى القعدة ٩٢٤ هـ «نودى فى القاهرة بأن أحدًا من الناس لا يصنع على الطرقات خيال ظل ولا مغانى عرب ولا غير ذلك».[١٣]

أنشأ العثمانيون عام ١٥٢٨م، ٩٣٥هـ مقاطعة لجباية المال فى مصر تسمى مقاطعة الخردة وصاحبها أمين الخردة تناوب أمر تعيينه بين وجاق المتفرقة أو الجاويشية ثم العزب، مهمتهم جمع المال السلطانى من محترفى البطالة والارتزاق كالراقصات والقرداتية والحواة والرفاعية وخلاطى الحشيش وضاربات الودع والبهلوانات ومحترفى التسلية، وكانت هذه المقاطعة من أعلى مصادر الإيراد بما يشير إلى المدى الذى كانت فيه أهمية رقابة أعمال الجماعات وبما

يشير كذلك كما يؤكد شو[١٤] إلى كبر حجم هذه الفئات الهامشية.

وتكشف لنا كتابات معظم من زار مصر عن أهمية هذا الدور الاجتماعى فالحسن بن محمد الوزان الفاسى المعروف باسم ليون الإفريقى ١٤٩٤ ـ ١٥٥٢ عندما زار القاهرة شاهد «فى الأزبكية الكثير من اللاعبين والحواة ومدربى الحيوان والذين يقرءون الطالع بواسطة الطير، وكان على من يقرأ أحدهم له طالعه أن يعطى الطير مبلغًا قليلاً يلتقطه الطائر بمنقاره وبعد أن يودع المبلغ فى صندوق صغير يلتقط ورقة كتب فيها الطالع»[١٥]

وعندما زار مصر عبدالله العياشى ١٠٧٢ هـ ١٦٦١ ـ ١٦٦٢ شاهد المشعوذين وأصحاب القرود ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كالدب والحمير والتيوس والكلاب وذكر «فقليل من أصناف الحيوانات ما لا يوجد عندهم مسخرًا».[١٦]

عندما زار مصر الرحالة التركى أوليا جلبى فى القرن السابع عشر ودون رحلته فى كتابه الشهير الضخم سيا حتنامة سى لم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا وذكرها ومن ضمن ما ذكره:[١٧]

ذكر الإدارات المضحكة لأمين البحرين وعدد خزائن مصر نادرة العصر

«ومما سلف ذكره عن الكتاب إدارات تعرف بحوزة أقلام وهى إدارات غريبة وعجيبة قد ذكرها قبل غيرها:

أولاً كل ما فى مصر من الحواة وصراحى بار والمصارعين واللاعبين بالكئوس ومربى الطيور وشب باز واللاعبين على الحبال واللاعبين بالنار واللاعبين بالكيران واللاعبين بالأطباق واللاعبين بالصوانى واللاعبين بالكرة الحديدية ومحركى العرائس واللاعبين بالصاجات ولاعبى القمار وتيش بار واللاعبين بالقصعة واللاعبين بالورق واللاعبين بالمرايا والرياضيين واللاعبين بالطيور واللاعبين بالخرر والحمارة ومروضى الثعابين واللاعبين بالقضبان واللاعبين بالمطارق والقرداتية وعارضى خيال الظل وخروش بار وأصحاب السيما واللاعبين بالفئران ومروضى الدببة والقاصين وقشمران ومربى النحل والحاصل

كل هؤلاء من أصحاب الحرف المضحكة والنحالين وبائعى الأشياء العتيقة هؤلاء جميعًا تحت حكم أمين الخردة ولهؤلاء كثير من الأمثال»

إن نظرة واحدة إلى ما ذكره أوليا جلبى تدهشنا وتبهرنا بهذا الكم الذى ذكره وربما الذى لم يذكره كان أكثر خاصة هؤلاء الذين لجأوا إلى طرق الاحتيال لخداع العوام «بأمور تعجز العقول عن ضبطها» كما ذكر صاحب كتاب كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجى خليفة عند حديثه فى باب علم الحيل الساسانية.

ولعلنا لا نندهش حقًا إذا رأينا أن فن خيال الظل رغم كل ما فرض عليه من حصار فى بعض الأوقات جمع بين القول والسماع والرؤية والتمثيل. «وهو واحد من فروع ثلاثة من فن الدمى أما الفرعان الآخران فهما فن العرائس وفيه تتحرك الدمى بخيوط خارجية، وفن القراقوز وفيه يلبس اللاعب فى يده قفازًا نصفه الأعلى دمية ويحركها من الداخل»[١٨]. قد كان رائجًا فى القاهرة طوال العصر العثمانى. فقد ذكر بعض الرحالة الأوروبيين أنهم شاهدوا فرقًا للخيال تتكلم التركية وكذلك العربية فى القاهرة.

ويكفى أن نذكر أن إحدى بابات طيف الخيال لشمس الدين محمد بن دانيال الموصلى الكحال والتى راجت فى مصر منذ العصر المملوكى، وهى بابة عجيبة وغريبة قد حوت من بين شخوصها،[١٩] الساسانى الكداء، الواعظ، لاعب بالحيات والثعابين، بائع المعاجين الطبية، بائع الأعشاب الطبية، حلاق صحة، لاعب أكروبات، حاوى خفيف اليد، قارئ الطلوع، بائع الأحجبة والحروز، مروض الأسود والنمور، مروض الفيلة، صاحب الجدى اللاعب، مروض الفئران والقطط، مدرب الكلاب، صاحبة الدبة، منولوجست سودانى، بالع السيوف، مرقص القردة بهلوان، مشعوذ، صاحب المشاعل.

ضم خيال الظل هذه الألعاب والتى وصفها بالتفصيل معظم الرحالة الذين زاروا مصر خاصة أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر:

- يخصص كارستن نيبور فصلاً فى كتابه عن ألعاب وتسالى الشرقيين فى ساعات الفراغ[٢٠] ويذكر من أهمها: المصارعون، الغوازى، الندابات، خيال

الظل وعرائس القراجوز، الحواة، القرداتية.

- ويتحدث علماء الحملة الفرنسية فى كتابهم وصف مصر[٢١] عن الرواة والمنشدين فى المقاهى، عن الممثلين المهرجين الذين يعرفون باسم البهلوانات وما يقومون به من عروض هزلية ومرتجلة، الحواة، مسرح العرائس، القرداتية، مروضى الثعابين، العوالم، وغيرهم ممن يقومون بإمتاع الجماهير ويرفهون عنهم.

- ويخصص لين بعض فصول كتابه للألعاب التى تسلى المشاهدين. الراقصون العموميون، الغوازى، الراقصون والحواة، البهلوانات، القرداتية المحبظون، القراجوز وغيرهم.[٢٢]

ولفترة طويلة ظل يطلق على هؤلاء أرباب الملاهى والمغنى استمتع بفنهم العوام والخواص ويكفى أن نشير إلى نماذج من تواجدهم.

- فى أواخر القرن السابع عشر أتى إسماعيل باشا بجمع من «الحواة والقرداتية والخيال والأدبا والمحنبزين فى حوش الديوان». ويضيف كاتب السطور السابقة «كان الحاوى والغزواتى والقرداتية نهارًا عند باب الجاويشية والخيال والمحنبزين ليلاً عن النوبة» فى احتفالات استمرت خمس عشرة ليلة «لا أكابر ولا أصاغر».[٢٣]

- فى أواخر القرن الثامن عشر، وعندما وصل كبير الفرنسيس إلى داره بالأزبكية تجمع هناك كما يذكر الجبرتى «أرباب الملاهى والبطالات وطوائف الرميلاتية ورعاع العالم من الحرافيش وأكلة الحشيش وملاعبين القرود والحواة والنساء والرقاصات والخلابيص والمراجيح وأمثال ذلك»[٢٤]

وعندما شرع الفرنسيس فى تفريد الغرامات وتوزيعها وتقسيمها على عموم الناس وخاصتهم كان فيهم كما يذكر الجبرتى «جميع الصنائع والحرف حتى الحواة والمفزلكون والمساخرون والقرداتية والأمور السافلة».[٢٥]

- فى أوائل القرن التاسع عشر وفى احتفالات زواج إسماعيل باشا ابن محمد على باشا، ومحمد بك الدفتردار على ابنة الباشا حضرها كما يذكر الجبرتى

«بهلوان الحبل وأرباب الملاعيب والمفزلكون والجنباذية والحبيظية والحواة والقرداتية والرقاصون والبرامكة وغير ذلك أصناف وأشكال».[٢٦]

وفى ظل نظام الاحتكار لم تترك حرفة إلا وفرض على أهلها ضريبة ففى صورة اللائحة المحررة للبك محافظ الإسكندرية بتاريخ ٨ ذى الحجة ١٢٢٦ هـ/ ١٨٣٠م»[٢٧] لكشف العوائد المحصلة من الحلوانية ، القطايفجية، الفرانون، الطرشجية، صانعو معجون الحشيش، الخلالون، الدقاقون، بائعو الخوص ومستخرجو الخل من التمر ومقلمو الأشجار، صانعو الأوانى والقدور والقلل والفخار، المنجدون، مبيضو النحاس، صانعو القباقيب، السمكرية، الحدادون، الحانوتية، الرجال الذين يفتحون الكتاب وينظرون البخت يطلق على هؤلاء «طورقية» صناديق العجايب «صناديق الدنيا»، النساء الغوازى «الراقصات» اللاتى يرقصن فى الولائم والأفراح بالصاجات، الشعراء والمحدثون، والحواة والقرادون، طائفة البهلوانيين والغجر، الطبالون والزمارون الذين خارج مصر، الغياشون والخولات، الهازلية، وطائفة الغرباء ذكورًا وإناثًا والسلامية بالغاب والثعابين، الطراحون وخراز والقصاع والنساء الدقاقات والنساء وبائعات الكحل بالجراب دلالو الجمال بالرميلى، سيدى صاحب المكرمات.

إن أهمية صورة اللائحة المذكورة أنها تبين إلى أى مدى كان تدخل الدول الدقيق من خلال معرفة تعداد النفوس وحصر أعمالها خاصة المتعلقة بالعوائد الملحقة بالتزام خردة مصر.. فبالإضافة إلى أصحاب الحرف البسيطة المذكورة تبين لنا دور بعض الفئات المهمشة من أصحاب الحرف التى انتشرت آنذاك مثل الطورقية وصندوق الدنيا والغوازى والغجر والحواة والقرادون والبهلوانيون والهازلية الذين يلبسون طراطير حمر اللون ويقصون أحاديث لغو على المستمعين ورقاصى القرى «الغياشون» كذلك رقاصو البنادر والمحروسة «الخولات» وطائفة الغرباء الذين يضربون على الصاجات النحاسية ذكورًا وإناثًا والسلامية أصحاب المزامير المصنوعة من الغاب وملعبو الثعابين وطوائف من يبيع الطرح والنساء يبعن الكحل ويدقن الدقة من يطلق عليهن: الحلبية والشهايمة والنباتية.

بعض هذه الجماعات كان لها مشايخها أو مشايختهن كالغوازى. كان للموسيقيين شيخ تسرى شياخته على الآلاتية، وكان يطلق عليهم «المزاهرية» وهم جماعة المغنين والمنشدين والعازفين فى التخت وطوائف المزمار البلدى وموسيقى النحاس والشموتية «المداحين والسفرتية» وطوائف أخرى رؤى أنها تمت إلى الموسيقى بسبب وأقرب إليها من غيرها من الحرف من ضمنها الحواة ومبيضو النحاس وملاعبو القردة القرداتية، وكان للشيخ وظائف متعددة منها: تحصيل الضريبة من جميع محترفى المهن المتقدمة «الفردة» والترخيص لمن يرغب احتراف الغناء بعد أن يحزم وكان له وكيل «المختار» ولكل عاصمة شيخ الحكومة تختاره.(٢٨)

هذه بعض الجماعات الهامشية والتى تعاظم دورها فى الحياة الاجتماعية المصرية والتى كان لها علاقة بنظام الطوائف والحرف، وبعض هذه الجماعات كما اتضح لنا كوَّن طائفة لها شيخها أو شيختها كما فى حالة الغوازى الراقصات، ويتساءل المرء عن العلاقة بين تعاظم دور هذه الجماعات والجماعات الأخرى التى وسمت باللصوصية مثل المنسر والنشالين وغيرها.

وللإجابة على هذا التساؤل نوضح الآتى:

أولاً: لا يمكن فهم تحركات جماعات الزعر والمناسر والشطار... إلخ إلا فى إطار سياق اجتماعى يضم إليهم الفئات الأخرى المهمشة حتى ولو لم تلجأ بعض هذده الجماعات إلى التحايل والسرقة واللصوصية، ومارست عملها وسط ظروف صعبة للغاية مثل المخايلين الذين يصرح لهم بالعمل، ويبدو أن المنع مرتبط أشد الارتباط باعتبارات سياسية وبعضها اجتماعية أخلاقية، هكذا حدث بالنسبة لعرائس القراجوز وصندوق الدنيا، ففى بعض الأحيان كان «القراجوز المصرى يؤدى عمله خيرًا، تأخذ النكات ثوب الخلاعة والمجون»(٢٩)، رغم أن أفـــراد الطبقات الدنيا يأخذهم المرح حتى لتكاد جوانبهم تنفجر من كثرة الضحك على حركاته. أما صندوق الدنيا فقد خضعت عروضه لرقابة القضاء وأحكامه، وفى فترة متقدمة أصدرت إحدى المحاكم جنح الأزبكية فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠١ حكمًا ضد حامل هذا الصندوق نظرًا لأن فيه صورًا ورسومًا قبيحة مخلة بالحياء

خاصة وأنه أدار به فى الشوارع العمومية يقدمه لكل من أراد مشاهدته فى مقابل أجر معين لأن هذه الحالة هى حالة عرض تامة ويعد هذا من الأمور المنتهكة لحرمة الآداب وحسن الأخلاق.

ثانيًا: ارتبط عمل بعض هذه الجماعات خاصة فى أثناء الموالد والاحتفالات العامة ونظرًا للازدحام بحدوث حالات كثيرة من التحايل والسرقة والنشل.

ثالثًا: ربط البعض بين تحركات جماعات منهم مثل بعض الفجر والقرداتية والحواة والقيام بأعمال سرقة ونشل، ورغم وجود خصائص عامة تميز بين كل جماعة وأخرى، فقد كانت الأنشطة تتداخل فى ظل عدم الاستقرار والتنقل من مكان إلى آخر، وكان التسول والاستجداء بطريق مباشر أو غير مباشر وظهور حالات من السلب والسرقة أحيانًا ما جعل الحدود بين هذه الجماعات غير فاصلة بينهم. فبعض «الفجر» كانوا يدربون القرود «القرداتية» وبعضهم كانوا يدربون الثعابين الحواة، وفى فترة متأخرة وبعد ظهور قانون عقوبات منذ أواخر القرن التاسع عشر أصبح هناك فى ميدان الجنح «جرائم النشل أو السرقة أو النصب أو الاحتيال التى يرتكبها طوائف النساء المحترفات ومعظمهن من النساء المتشردات أو الأغجار الجائلات بالبلاد والأسواق والموالد مستترات غالبًا تحت ستار حرف متنوعة مشروعة أو غير مشروعة ومن هذه الطوائف كوديات الزار والدلالات وقارئات الكف لاستكشاف الطالع والغوازى والراقصات المتجولات وتاجرات الطيور ومحترفات دق الوشم والختان».[٣٠] ويؤكد هذا مأمور بالسجون المصرية «من الفجر الذين يجوبون القرى من بين رجالهم من قد تخصص فى سرقة الطيور ودواب الركاب وإن من بين نسائهم من لا يسرق غير الأوانى النحاسية من داخل المنازل».[٣١]

وقد ربط أحمد تيمور باشا بين الفجر والنور وأحدهم نورى واعتبرهم «طائفة رحالة من الأوشاب يعيشون بالكدية والرقص وضرب الدف والطبل والغناء ويطوفون القرى والبلاد جماعات مستجدين فإذا أمسوا باتوا خارج القرية وبعضهم يسرق الدجاج ونحوه، ولم يسمع عنهم سطو ولا قتل، وفى مصر يقولون عنهم غجر وحلب لأن فيهم من هم أهل حلب».[٣٢]

أكد أحد الدارسين أنه من أشد الأمور المحرمة بين الغجر سرقة إخوانهم أو الخروج على هذه القاعدة أو تلك من قواعد العرف والتقاليد السائدة بينهم، لكن بعض النور يقوم بعمليات السرقة والنشل خارج نطاق منطقته حتى لا يشتبه فيهم أحد وحتى يأمنوا أحيانًا من جانب السلطات بتعرضهم للطرد خاصة وأن النور ينظر إليهم على أنهم من أدنى الفئات المجتمعية، وعندما يوصف إنسان آخر بأنه نورى فإن ذلك يتضمن وصفه بأحقر الصفات خاصة وقد اكتسبت كلمة نور معنى اللصوصية. وقد قرن المثل الشعبى بين نزعتهم للسرقة وبين أهل دمنهور ألف نورى ولا دمنهورى.(٣٣)

وإذا كان بعض الغجر يتواجدون فى الموالد من أجل الرقص فإن تواجد الحلبية ارتبط بالاستجداء وارتبط النور غالبًا بالنشل(٣٤)

وحتى بعض أفراد من القرداتية امتزج فنهم بالاحتيال على الناس والنشل باسم ترويض الحيوان:(٣٥)

قـرد يكاد من التـفـهم ينطق	وتراه من حسن الرشاقة يعشق
مـا جـاز دارًا فى ذراها ظافـرًا	إلا وكـاد بسـقـفـها يتـعلق
يسطو سطو العبد الخصى منافقًا	ويظل يرقص تارة ويصـفـق

وحتى وقت قريب كان بعض الحواة يطوفون بالشوارع حيث يتجمع الأطفال، يستدرج الحاوى عددًا منهم إلى حى خلاف الحى الذى يسكنون فيه، ويختار طفلاً نظيفًا ويعطيه الطبلة أو بعض محتويات الحاوى حتى يصل بهم إلى وكر عصابات خطف الأطفال، هذا ما كشف عنه مغامرات صحفى فى قاع المجتمع المصرى(٣٦).

هوامش وإحالات الفصل السادس

(١) رسالة دكتوراه، مقدمة إلى قسم اللغات الشرقية، فرع لغات الأمم الإسلامية وآدابها، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٢.

(٢) محمد فؤاد كوبر يلى: قيام الدولة العثمانية، ص ص ١٠٨ -١٠٩.

(٣) أندريه ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٧٤، ص ٢٨٣.

(٤) نعوم شقير: أمثال العوام فى مصر والسودان والشام، ص ٧٨.

(٥) محمد رجب النجار (د): حكايات الشطار والعيارين، ص ١٢٠.

لاحظ كاتب هذه السطور أثناء مشاهدته لأحد الأفلام المصرية (آخر الرجال المحترمين) بطولة نور الشريف وبوسى، كيف جسد المعلم (برغوت) على الشريف شيخ النشالين هذه القيم فى عبارة دالة موحية عندما قال ما معناه (اليومين دول بطلنا ننشل الموظفين لضآلة مرتباتهم).

(٦) انظر: أحمد صادق سعد: تاريخ العرب الإجتماعى.. تحول التكوين المصرى من النمط الأسيوى إلى النمط الرأسمالى، الطبعة الأولى، دار الحداثة، بيروت ١٩٨١، ص ١٣٢- ١٣٦. اعتمادًا على:

- Baer G.: Egyptian Guilds In Modern Times, Jerusalem, the Israel Oriental Society, 1964, p. p.. 57-58.

- Raymond, A.: Artis ans et Commercants au Cairo au XVIII ieme siecle, 2vol, Damas, I.F.D. 1973, p.p.. 381-382, p. 554.

أكد بير أن الطوائف الحرفية بمصر المحروسة كانت فى عام ١٨٠١ (٢٧٢) طائفة منها ١٠٤ طائفة للحرف الصناعية و٩٩ طائفة للتجار و٦٩ طائفة للنقل والخدمات (المرجع السابق، ص ٤١٠).

(٧) توفيق الطويل (د): التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨، الجزء الأول، ص ص ١٠٨- ١٠٩.

(٨) المرجع السابق، ص ٢٠٥.

(٩) حسين مظلوم رياض، مصطفى محمد الصباحى: تاريخ أدب الشعب، نشأته ـ تطوره ـ أعلامه، مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٦، ص ص ٨٥ - ٩١.

(١٠) حول تفاصيل كاملة لترجمة حياته انظر: على باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، الجزء الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣، ص ص٣٢٨-٣٤٠.

(١١) فريد دى يونج: تاريخ الصوفية فى مصر فى القرن التاسع عشر، ترجمة عبد الحميد فهمى جمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥، ص٣٣.

(١٢) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية، الجزء الأول ، ص ص ٢٢٦-٢٣١.

(١٣) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الخامس ، ص ص ٢٥١، ٢٥٢، ص٢٨٣، ويذكر فى أحداث جمادى الآخرة ٩٢٦هـ (٣٤١): «توفى الريس محمد فتات العنبر ريس المحبظين وكان أستاذًا فى صنعة الخيال، وكان فاق على باريبه فى هذا الفن.

Shaw, S.J.: The Financial and administrative organization and development of ottoman Egypt, 1517-1798, Princeton New Jersy, 1962. p.p 120-121.

(١٤) عبد الرحمن زكى (د) : القاهرة تاريخها وآثارها ٩٦٩-١٨٢٥ من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ ، دار الطباعة الحديثة ، القاهرة ١٩٦٦، ص١٩٦.

(١٥) المرجع السابق، ص ١٩٧.

(١٦) أولياء جلبى: سيا حتنامة سى، ص ١٢٨.

(١٧) انظر : أحمد رشدى صالح: الفنون الشعبية، مطابع دار القلم بالقاهرة ١٩٦١، ص٦١-٦٢.

(١٨) إبراهيم حمادة (د) : خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٨، ص ص٢٢٠-٢٢١.

(١٩) رحلة إلى مصر ١٧٦١-١٧٦٢، ص ص ٣٠٧-٣٣٤.

(٢٠) انظر بصفة خاصة : علماء الحملة الفرنسية : وصف مصر (١) المصريون المحدثون «دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين» تأليف شابرول، ترجمة زهير الشايب، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٨٩، ص ص ١٤٦-١٤٨.

(٢١) انظر التفاصيل الكاملة للراقصين العموميين فى كتابه سالف الإشارة إليه (ص ص٢٨٠-٢٨٤) والراقون والحواة وغيرهم (ص٢٨٥-٢٩٢) وقد خصص بعد ذلك فصولاً متكاملة لرواة القصص العامة (الشعراء رواة السيرة خاصة).

(٢٢) أحمد الدمرداشى : كتاب الدرة المصانة ، ص ص ٣١-٣٢.

(٢٣) عبد الرحمن الجبرتى : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، ص ص ١٣٥-١٣٦.

(٢٤) المرجع السابق ، ص ١٩٠.

(٢٥) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، الجزء الرابع، ص٣١١.

- يذكر أحمد تيمور باشا فى (معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الثالث، ص ص ٤٤-٤٥) أن الجنبازية: من يتولى تعليم وترويض الخيل ولعله يريد البهلوان ويظهر أن يريد الذين يلعبون على الخيل، ويذكر أنه فى الريف يقولون للغازية أى الراقصة: البرمكية (نفس المرجع، الجزء الثانى، ص ١٥٧). ويذكر بوركهارت (العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية فى عهد محمد على، ص ص ١٤٧ - ١٥١) أنه وجدت فى كل قرية كبيرة فى مصر طائفة من الراقصات يعرفن (بالغوازى) ينتحلن اسم (برمك) أو (برامكة) وهذا الاسم أقل شهرة من كلمة غوازى ويقدرهم ذكورًا وإناثًا من ستة إلى ثمانية آلاف نسمة، وهناك الحلبيات، الغوازى يتجولن كثيرا فى القطر مثل الغجر ويسمون بالغجر وفى سوريا يسمون كوديات. ويرى أحمد أمين (قاموس العادات والتقاليد والتعابير، ص ٨٧) أنه فى لسان المصريين تطلق كلمة «برمكى وبرامكة» على الذين فقدوا الغيرة وأتوا بأعمال جنسية مشينة ويرجع هذه التسمية إلى أن البرامكة كان لهم مغنون ومغنيات أيام عزهم فلما نكبوا تسكع رجالهم ونساؤهم على البيوت فسقطوا من أعين الناس ورموا بهذه الشنائع، ويرى (ص ص ٢١١ - ٢١٢) أنه فى عهد محمد على كانت الغوازى يرقصن فى الشوارع فصدر أمر بمنعهن من الرقص فحبًا فى الرقص كان يرقص بدلهن الخولات وهم طائفة من الرجال فقدوا رجولتهم وتأنثوا فى كلامهم وحركاتهم، ويصف فلوبير أحدهم ويدعى حسن البلبيسى الذى ارتدى ثيابًا نسائية مطرزة وأسدل شعره المضفور على منكبيه وزجج حاجبيه بالكحل وألصق فى ظهر سترته دنانير مذهبة وشد حول وسطه حزامًا من تمائم مربعة ذهبية وراح يدق الصاجات ويرقص «راجع ثروت عكاشة» (د): مصر فى عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء (القرن التاسع عشر) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ص ٢٣٦.

وقد ذكر الجبرتى أن (الخلبوص) (الخلابيص) هو الذى كان يصحب المغنيات (العوالم) فى الأفراح وأن (الخول) هو المخنث الرقاص ويسمى كذلك (الغايش) و قد استمر يلعب دوره حتى وقت ليس ببعيد جنبًا إلى جنب جماعات أخرى بدأت تظهر فى الأفراح العامة مثل (النقرزان) الذى يحمل طبلة صغيرة يدق عليها دقات ليتها نغمة خاصة تحدثها قطعة من الجلد السميك ومعه آخر يحمل عصا طويلة فى نهايتها كرة من الفضة وكان يتراقص فى عرض الطريق بعصاه فى حركات منتظمة تتناسب مع نغمات الطبلة التى يدق عليها صاحبه (انظر: عبدالمنعم شميس: حرافيش القاهرة، ص ص ٢٢- ٢٣).

(٢٦) راجع الملحق رقم (٧) من كتاب أحمد الدماصى (د): الاقتصاد المصرى فى القرن التاسع عشر، الجزء الأول (١٨٠٠ - ١٨٤٠) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٤٤، ص ص ٤٣٧- ٤٤٠.

(٢٧) راجع مقال (شيخ الطائفة) للدكتور محمود أحمد الحفنى: مجلة الموسيقى، العدد الخامس، السنة الأولى ١٦ يوليه ١٩٣٥، ص ص ١— ٣.

(٢٨) ستانلى لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧، ص ٤١.

(٢٩) محمد البابلى بك: الإجرام فى مصر، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٤١، ص ٩١.

(٣٠) محمد شاهين: كفاح الجريمة، المطبعة المتوسطة بمصر ١٩٣٦، ص ١٥٨.

(٣١) معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، الجزء الخامس، ص ص ٧- ٨.

(٣٢) نبيل صبحى حنا (د): جماعات الغجر، مع إشارة خاصة للغجر فى مصر والبلاد العربية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠، ص ٢٩٢.

(٣٣) المرجع السابق، ص ٥٦.

(٣٤) عبدالحميد يونس (د): خيال الظل، دار مصر للطباعة، القاهرة ١٩٦٥، ص ص ٧٤- ٧٥.

(٣٥) عبدالعاطى حامد: مغامرات صحفى فى قاع المجتمع المصرى، الطبعة الثانية، كتاب اليوم (٨٢) مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة ص ٤٢.

الباب الثالث
الحركة التاريخية لبعض الجماعات الهامشية

الفصل السابع
النشالون فى مصر.. سرقة الكحل من العين

إلى فترة قريبة كنت أتصور أن النشل وجماعات النشالين يرتبطون بظروف التطور الاجتماعى والتى حدثت أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كنت أربط دائمًا بين ظهور الترام فى شوارع القاهرة والإسكندرية، بل وكذلك بين إصدار أوراق البنكنوت ورواجها كما يؤكد على ذلك ميخائيل بك شاروبيم(1) وبين ازدياد ونمو «النشالين والشرطة». ساعد على ترسيخ هذا التصور الخاطئ أن محاولاتى لقراءة وإعادة قراءة صفحات من تاريخ مصر الاجتماعى لم تساعدنى على تغيير منحنى هذا التصور. فحوادث اللصوصية والسرقة وقطع الطريق ونمو الجماعات المرتبطة بصورة أو بأخرى بها موجودة فى الأدبيات التاريخية. بل وكذلك فى بعض الوثائق الموجودة بالمحاكم الشرعية مثلا أو مجلس الأحكام كذلك وغيرها.

لقد أعدت قراءة مؤلف شيخنا الكبير عبد الرحمن الجبرتى «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» بحثاً وتلهفًا عن ظاهرة النشل، غير أننى لم أجد غير هذه الكلمات فى هذا المجلد الضخم:

- «وفى ٤ يولية ١٧٦٨ أرسل على بيك الكبير وقبض على أولاد سعد الخادم بضريح سيدى أحمد البدوى وصادرهم.. وشرع فى بناء الجامع والقبة والسبيل

والقيسارية وأبطل منها مظالم أولاد الخادم والحمل والنشالين والحرمية والعيارين وضمان البغايا والخواطئ وغير ذلك»[٢].

وينقل لنا من أقوال الشيخ محمد شبانة ـ والذي كانت سليقته فى الهجو أجود من المدح عليى حد قول الجبرتى ـ يداعب الشيخ قاسم الأديب: [٣]

سبحان من قسم النحو س لقاسم وأذل هامه

يحتال فى نشل الحرير ولو تحصن فى دمامه

ويسل كحل العين من خوفه ينفى منامه

فالجبرتى ينقل لنا عبارات الاحتيال فى النشل، «يسل كحل العين» بما يفيد أن النشل كان موجوداً آنذاك، وإذا كان الحديث عنه وعن جماعاته لماما يأتى بين السطور مباشرة أو ذكر بعض حالاته الدالة عليه على نحو ما فعل قبل ذلك ابن إياس، عندما ذكر فى بدائعه فى أحداث رمضان ٩٢٤هـ:

"شخصاً من العثمانية كان فى خان الخليلى فقبض على شخص من العوام وزعم أنه سرق من جيبه أربعة آنصاف و أنه قبض على يده فى جيبه، طلع به إلى ملك الأمراء خاير بك أمر بقطع يده وعلقها على رقبته وأشهره فى القاهرة، فتأسف الناس عليه كيف قطعت يده على أربعة أنصاف وقد راح ظلماً"

والمتأمل لهذه الفقرة السابقة يكتشف للوهلة الأولى هذه النقاط:

١- نشال من العوام يحاول السرقة.

٢- قسوة خاير بك أمير الأمراء الذى أطلقت عليه العوام لفظ خاين بك.

٣- تأسف الناس وزعلهم من هذا الحكم الظالم.

ولم يسعف كاتب هذه السطور ما كتبه فقهاء ومشايخ فى ذلك الحين عند الحديث عن الفعل نشل على ما يذكر الشيخ يوسف المغربى: "ويمكن أن يؤخذ النشال بالمعنى المستعمل الآن من النشل الشىء أسرع نزعه ولا أسرع حركة من النشالين ولهم حكايات غريبة فى النشل» [٥]، ذكر ذلك أثناء تواجده فى مصر القرن السابع عشر، أو ما ذكره محمد مرتضى الزبيدى صاحب "تاج العروس من

جـواهر القـامـوس» [٦] عند حـديثه عـن الفعل "نشل" وارتبـاطه بسـرعـة العدو والإسراع فى النزع، والنشـال الذى يطلق على المختلس من اللصوص بعد أن كان يطلق على من يأخذ الجردقة فيغمسه فى القدر فيأكله دون أصحابه، ذكر ذلك فى مصـر القـرن الثامن عشـر. أو مـا ذكـره أوليا جلبى فى بيان لـهجـة المصـريين الخاصة حيث ذكر أنه من بين مفرداتهم نشال يان [٧] بمعنى من يقطع الجـيوب للنشل ونصاب بمعنى محتال.

ولم يشف غليل كاتب هذه السطور فى الحصول على الأجزاء من حديث أوليا جلبى عن النشـالين فى مصـر والتى ترجمـهـا الأسـتاذ مـجيب المصـرى ولم تنشـر حتى كـتـابة هذه السطور من سـيـاحـتنامـة سى، ولعل من عنده هذه الأجـراء أن يستقيظ ضـمـيره العلمى ويسـهل لمن يهـمـه أمـر الحديث عـن هذه الجـمـاعـات فى مصـر العثمـانية مهمة الكتابة خـاصة وأن الجزء العاشـر المتعلق برحلة أوليا جلبى عن مصـر مـوجود بدار الكتب المصـرية وبحـروف لاتينية. دخل أوليـا جلبى مـصـر فى السـابع من صفـر عـام ثلاثة وثمـانين وألف ووصف مـصـر وصـفـا دقيـقًـا يكاد يتفوق عـمـا قـام به علمـاء الحملة الفـرنسية بعد ذلك فى «وصف مـصـر»، ذكـر كل كبيرة وصغيرة ومما ذكره ما هو متاح لى: - [٨]

- «والآن فى مـصـر ثلاثمـائة من الحـراس يحـملون الهـروات فى أيديهم ومـعـهم اثنا عـشـر جـلادًا يفـتـحـون بيت الصـوباشـى كل صـبـاح، ويحـضـر جـمـيع خـدامـة ويدعون للإمام الشافعى على أنه برهـم وسـبب رفعتهم، ثم يتجول ليل نهار لتعرف الأحوال ولاشك أنهم يجـدون اللصـوص والنشـالين وكل لقطاء مصـر مـقـيـدين فى دفـتـر الصـوباشى، وإذا كـان الصـوباشـى يحكم حكمًـا مطلقًـا عـرف بالـوالى وكل المجرمين يخشونه».

- الفصل الثلاثون: موكب جند مصر.

النشـالون: إنهم تحت سـيطرة الصـوباشـى وهم يسـرقـون أكـيـاس النقـود، الخنـاجـر، السكاكـين إلـخ إلخ، أنهـم ٣٠٠ نشـال، ولابد من الاحـتـراس منهم فى الأمـاكن المزدحمة إنهم مهرة إلى حد بعيد فهم يسـرقـون العين من الكحل ويبقـى

الكحل في موضعه ولهم كذلك مشيخة مستقلة وإذا سرق شيئًا وطلبه الصوباشى بحث عنه شيخهم ووجده له فى التو، فجميع النشالين مسجلون فى دفتره».

معنى ذلك بكل بساطة، ما تؤكده باحثة متخصصة فى التاريخ العثمانى «وحتى الحرف الإجرامية والسيئة انتظمت فى طوائف فوجدت طائفة للنشالين وطائفة للصوص مقرها القاهرة، ولها رئيس هو شيخها، وكثيرًا ما كان هذا الشيخ يطالب بالبحث عن المسروقات وتقديم السارقين للمحاكمة»(٩).

ظاهرة النشل ليست إذًا وليدة ظروف أواخر القرن التاسع عشر ولكنها قديمة، تعود إلى أزمان بعيدة ولكنها نمت وتطورت وتسارعت وتيرتها ومعدلاتها بصفة خاصة فى النصف الأول من القرن العشرين لدرجة أصبح فيها «قسم مكافحة النشل» أحد الأقسام المهمة بوزارة الداخلية فى مصر.

وجد أحد الدارسين للبرديات أن لفظ «نشال» الذى ينزع الشئ ويخطفه مسرعًا ورد ضمن بعض الأوراق إحداها محفوظة فى دار الكتب المصرية بالقاهرة تنسب للقرنين ٣-٤ هـ «٩-١٠م» موضوعها عبارة عن «حساب حب» عثر عليها فى مدينة الأشمونين بمصر وارتبط فيها اللفظ باسم «سون النشال» وورد أيضًا ضمن نصوص إحدى الأوراق المحفوظة فى مجموعة كارل فسلى بمكتبة المعهد الشرقى فى مدينة براغ بجمهورية التشيك مرتبطًا باسم أحد أهل الذمة ويدعى «هليه بن النشال» وهي ورقة مؤرخة بعام ٤٤١هـ/ ٥ يوليو ١٠٤٩ م – ٢٦ مايو ١٠٥٠ عثر عليها أيضًا فى مدينة الأشمونين.

ويرى هذا الدارس «أن ظهور لفظ النشال فى النصوص البردية والوثائقية لا يعد حرفة شريفة معينة ولكنه يلفت النظر إلى وجود فئة من الخارجين عن النظام والقانون احترفت النشل والسرقة، ووجود بعض أسماءأهل الذمة ضمن بعض نصوص الأوراق والبرديات التي تنسب لمدينة الأشمونين بمصر يعتبر حالة استثنائية، ولا يعد ظاهرة على نشاط هؤلاء النشالين في هذه المدينة خلال تلك الفترة الزمنية؛ وذلك لأن غالبية أهل الذمة. كانوا أصحاب حرف ووظائف شريفة». (١٠).

ومما يؤكد ما ذكره أن كتب الفتوة استبعدت «النشالون» من الفتوة رغم ما ذكره فى اصطلاح الفتيان من ارتباط «النشال» بالذى يتناول الطعام من القدور يأكله قبل النضج وقبل اجتماع الآكلين، وهذا ما أكدته دراسة محمد علاء الدين منصور عن «جماعات الفتوة... فى الأناضول فى العصرين السلجوقى والعثمانى فى مصادرها الفارسيةص ص ٢٦-٢٧».

فى مصر العثمانية وكما ذكر أوليا جلبى فى كتابه «سيا حتنامه سى» ورغم قلة عددهم، فقدبلغت الجماعات التى تعتمد على النشل شأوا، ويتساءل الباحث عن تواجدهم فى القاهرة وعددهم ٣٠٠ تحت إشراف الصوباشى هل كان هؤلاء يمثلون إحدى الجماعات العسكرية المرتبطة بشكل أو بآخر بالمنسر أو الزعر؟ أم أن تواجدهم كجماعة بمثل ما تواجدت به جماعات أخرى، رغم عدم شرعيتها أحيانًا، مثل أرباب المغانى والخواطئ «البغايا» فى هذا العصر؟

رغم عدم وجود تفاصيل عنهم فى الكتابات التاريخية التقليدية، فالأمر المؤكد بلسان الجبرتى أن جماعتهم كانت موجودة فى القرن الثامن عشر واستمروا بعد ذلك فى القرن التاسع عشر، هذا ما لاحظه بعض الرحالة الأجانب، فكما يؤكد أحدهم «مصر الآن مليئة بالنشالين» (١١) ولهذا فقد نبه الزائر إليها بالطريقة المفضلة لحمل النقود «يجب ألا تعول على الصندوق أو الحقيبة فالكيس القطنى الشائع والذى يحفظ فى جيب الصدر كان يحوى عملات فضية وأخرى صغيرة «ويضيف» أما ذهبى الذى كنت حملت منه خمسة وعشرين جنيهًا والأوراق فقد أودعتها فى حزام جلدى جيد مصنوع فى المغرب، وقد صمم هذا الحزام ليلف حول الخصر تحت الملابس لحفظ الأشياء الثمينة وإخفائها».

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ازداد النشل فى مصر، مع تزايد حركة السياحة، بل إن مصر اشتهرت بذلك عند السائحين، وحتى منتصف القرن العشرين كنت تجد على شاطئ النيل بالقاهرة إعلانًا كتب فيه ما مضمونه «احترس من النشالين» وبصفة خاصة أمام المراكب التى تؤجر للسياحة.

وحقيقة الأمر لم تكن مصر أسوأ حالاً من بلاد أوروبية أخرى احترف بعض أفرادها طرائق للنصب والاحتيال والنشل ومارسوا أعمالاً ما أطلق عليه بالمافيا، ولكن الشىء الذى يميز النشالين ـ كما يؤكد أحمد أمين[١٢] فى مصر: خفة الدم والمهارة الممتازة حتى ليستطيع مهرة النشالين أن ينشلوا من غير أن يحس المنشول، بل قد ينشلون ضباط المباحث، فإذا لم يستطيعوا أخذ الشىء شقوا الجيوب أو فتحوا شنط النساء وأخذوا ما فيها، ثم لهم حيل وألاعيب، خصوصًا على من تفرسوا فيه أنه فلاح مغفل أو غريب الدار، وبعضهم يسرح الأطفال بعد أن يعلمهم طرق النشل، وكثيرًا ما يكون لهم شيخ يسلمونه ما ينشلونه وهو يعطيهم القليل منه ويستلب منهم الكثير.

فى مطلع القرن العشرين صدر فى مصر القانون رقم ٢ لسنة ١٩٠٨ الخاص بتشرد الأحداث واعتبر أن من جرائم الأحداث «التشرد» أولا والسرقة ثانيًا واعتبر جرائم النشل والسرقات هما فى الواقع أحد نتائج حالة التشرد والتى تكاتد تكون محصورة فى العواصم والمدن الكبرى دون الريف «فقد استغلت فئة من كبار اللصوص المحترفين أولئك الصغر الضالين فكونت منهم عصابات منظمة للنشل والسرقة تحت ستار التظاهر بالاستجداء أو البيع «أوراق اليانصيب مثلا» بل بلغ الأمر بالبعض منهم أن أنشأ لهذا الغرض مدارس فى الخفاء حيث يجمعون الصغار بطريق خطفهم وإرهابهم وإغرائهم بالنقود أو أنواع الحلوى ويدربونهم على استعمال المشارط لشق الجيوب وتسلق مركبات الترام وغيرها والاندساس بين الجماهير فى الزحام وخطف الحقائب وسرقة الدراجات وغير ذلك. وقد بلغ بهم الأمر من المهارة فى هذه الأساليب حدًا يثير الدهشة والعجب»[١٣].

تكاثر فى مصر ما أطلق عليهم «السبارسجية» أو «أولاد سبارس»[١٤] وهم الأطفال الذكور والإناث الذين يلمون أعقاب السجائر، لهم تقاليد متعارف عليها فى الاختصاص بالشوارع وفى ترابطهم. وكثيرًا ما يكون لهم كبير يرجعون إليه فى منازعاتهم ومنهم من يجمع إلى هذه الحرفة النشل خاصة فى أماكن التدخين كالقهاوى وفى مركبات الترام وذلك أن النشل لا يتعلمه النشال بمفرده، بل هو

سلوك يتعلمه من الآخرين والملاحظ أن أسلوب ارتكاب هذا السلوك يحتاج إلى قدر من التنظيم، أى يحتاج إلى قدر معين مما هو متاح فى ظل الإطار الثقافى الخاص الذى يتميز عن غيره، ويحتاج إلى قدر معين من التدريب والاحتراف كما يحترف الغير المهن الأخرى.

ولما كان «الحرامى أيده تاكله»[١٥] أى تحثه على السرقة لتعوده إياها، فإن هذا ينطبق على «النشال» كذلك، ذلك أن فريق النشالين «أسبق اللصوص إلى التعود على السرقة وأكثرهم تفننًا وهذا يرجع إلى أنهم اعتادوا النشل منذ الصغر»[١٦].

وكما ألمحت فى أسطر سابقة إلى أرتباط مفردات اللصوصية بالسرقة فثمة إقرار ما بين النصب «نصاب» والنشل «نشال» من اتصال. فكلاهما من الحرف «المهن» التى تعتمد على التعليم «علمته السرقة حط أيده فى الخرقة، أعلمك السرقة تحط أيدك فى جيبى» يضرب لمن يساجل أستاذه فى فنه وحرفته.

وكلاهما يعتمد على المهارة والذكاء والسرعة «النشال يأخذ من الحافى نعله ـ النشال يسرق الكحل من العين» وكلاهما يعتمد على السيم «الملاحن» والتى هى ليست لغة خاصة غايتها الإخفاء وإنما هى لغة فنية غايتها التفاهم السريع، أقرب إلى اللغة السرية، فالسيم معناه إشارة أو علامة وجدت بالقصد ومنشأها روح العداء بين الطبقات وروح الخوف الذى يوحيها وغايتها حماية فريق ضد فريق آخر أو جماعة غيرها تستخدمها الطوائف لإخفاء سرها من غير أعضائها.

وقد وضع محمد لطفى جمعة قاموسًا لملاحن السوقة أو السيم بين الطوائف فى مصر عام.١٩١٦م ضمنه «لحن النشالين والحرامية»[١٧] ونظرًا لأهميةهذا اللحن فقد ضمناه إحد ملاحق هذه الدراسة «ملحق رقم ٧» والقراءة الأولية له تكشف عن دلالات مهمة:

أولاً: دقة تنظيم عملية النشل والتى تبدأ من الألف وتنتهى بالياء أى حتى الانتهاء من عملية النشل حيث يتم استخدام لحن «آه» مع مد الألف طويلاً وتعنى الفراغ من العملية بنجاح، من بداية اختيار الزبون وتضييق الخناق عليه وبدء عملية النشل: رفع ذراع الزبون اليمنى إلى تحسس جيبه الصغير، إلى السرعة

فى نشله إلى عمل الاحتياطات اللازمة لسلامة وتأمين العملية هربًا من البوليس أو على الأقل الابتعاد عن الزبون الواعى. وأثناء ذلك كان يتم معرفة الزبون أهو معدم فقير أم غنى ثرى من المال الذى يمتلكه حتى القلم الذى فى سترته. معرفة أن الزبون مثلاً معدم عندهم «كحيتى» وأن العملية سيئة وبدون عائد «اللهسة جويس» أو أن العملية مريحة «مخورجة»، أو بمعنى آخر التمييز بين «الأروة بهو» أى من ملك فلوس كثيرة ومعرفة الزبون «الفخم» أى الجيد والزبون المعدم «السلك ضربه» الفقير.

ثانيًا : مراعاة توقيت عملية النشل التى تعتمد أساسًا فى أغلب الأحوال على الزحام «العملية مخورجة» أى الأتوبيس مزدحم والعملية مريحة و «مفيش دكنة ولا لهسة» بمعنى لا يوجد زحام والجو غير مناسب للنشل، يرتبط ذلك كما قلت بمعرفة أحوال الزبون خاصة «العم برنسيم سهنى» أى الزبون الساذج السهل نشله وسرقته وتضييق الخناق عليه «ياللود امسك الملس اللى فى خذتى» حتى التمكن من نشله بعد أن يكون قد وقع فى المصيدة.

ثالثاً: يخضع النشالون لتنظيم خاص على رأسه رئيس أو شيخ يأتمرون بأمره يعطونه ما نشلوه خاصة الذهب، ويدفع لهم ثمن بخس، ذلك أن النشال لا يستطيع عرض الذهب للبيع فى السوق خوفًا من افتضاح أمره، ومن هنا كان الاتصال بهذا الشيخ هو وسيلة لرد ما انتشل أحيانًا، ولكل نشال منطقته «حتته» ولا يجوز لغيره أن يتعدى عليها وينشل ما فيها، هناك من يقوم بتخطيط عملية النشل «دكتور» وهناك من يقوم بمراقبة الجو «ناضورجى» للتنبيه عن البوليس، وهناك من يغطى عملية الانسحاب «الروبان» ويشاغل الشرطة والناس بعد النشل.

رابعاً: هناك درجة من التخصص فى السرقة ونشل أشياء معينة لاعتياده ـ أى النشال ـ على طرق الوصول إليها[١٨]، ثمة فارق فى الأداء بين «سهنى» أى النشال الماهر وبين «شنكوتى ـ جويس ـ مهبلش» أى النشال غير الماهر أو المبتدئ، وأكثرهم تفننًا واحترافًا من تدرب على النشل واعتاده منذ الصغر، هناك من تدرب على النشل من «السيه» أى الجيب الخلفى أو «الصندوق» أى جيب السترة

أو «الطويل» الجيب الجانبى أو «الصلبة» أى الجيوب السرية أو «الحساس» أى الجيب الصغير، وهناك من يقوم بنشل بعض الأشياء المحددة القابلة للنشل مثل «الحداية - مقرقرة» أى المحفظة أو «ترمسة» بمعنى ساعة أو «خنداتم» بمعنى خاتم أو «وشاح» بمعنى الدبلة أو «الطباشيرة» بمعنى القلم الثمين أو حتى «السيلة» أى النقود السائلة، وكان ازدحام وتكدس وسائل المواصلات خاصة الترام أو القطار «الطويل» أو الحافلة أو الأتوبيس «البنديرة» يساعدهم على ذلك، وأغلب الأدوات التى تستخدم فى النشل هى «وعشرة» أى المشرط أو آلة لقطع الجيوب، والتى أصبحت تسمى فيما بعد البشلة أى «الموس» ومن هنا كان أحدهم يقول للآخر: «يا زنجر هات البشلة.. أحسن فيه مسمار «محفظة للسيدة» كبير فى الأرو «الحقيبة»[١٩].

خامسًا : السيم إشارة أو علامة أو رمز للحقيقة المقصودة، فالنعل عند اللصوص هو «الثور» فانتقلوا من «النعل» إلى مصدره الجلد ومن الجلد إلى مصدره الثور، ويسمون الثياب «نعجة» منتقلين من الثوب إلى الصوف ومن الصوف إلى النعجة وبعضهم يضع فى الكلمات عدة مقاطع أو حروفًا لا معنى لها ولكنها إذا أضيفت إلى الكلام البسيط العادى حجبته عن ذهن السامعين كقولهم «عندربية» لحنًا عن «العربية» فإذا جردناها من النون والدال صارت «عربية» وقولهم «البنداب معندصلج سنديبه» فإذا جردناها من بعض الحروف قرأت «الباب معصلج سيبه».[٢٠]

يرتبط أحيانًا النشل بالنصب، الأول يعتمد أساسًا على خفة اليد «يسرق الكحل من العين» والثانى على التحايل، ويجمعهما المهارة الفائقة والذكاء الخارق والتحايل. وإذا كانت مراجع ومصادر العصر العثمانى عاجزة حتى لحظة كتابة هذه السطور فى أن تزودنا ببعض الأساليب والحيل التى يلجأ إليها من يقوم بالنشل، رغم اعتراف المعاصرين واندهاشهم من الطرق والوسائل التى يلجأ إليها هؤلاء «انظر على سبيل المثال ما ذكره أوليا جلبى والشيخ يوسف المغربى عنهم». فإن بعض الكتابات المنشورة عنهم بصفة خاصة فى القرن العشرين تعطينا بعض - ولا أقول كل - الحيل التى يلجأ إليها اللصوص النصابون، النشالون عند السرقة لدرجة جعلت محمد شاهين يكتب «وأكثر اللصوص تحايلاً فى بلادنا هم

النشـالون»[٢١] وهو فى كتـابه الذى أصدره عام ١٩٣٦ يوضح لنا بعض هذه الحيل التى يلجـأ إليهـا اللصوص فى مصر، وجـاء لنا بأمثلة حية معاصرة أدرجناهـا فى أحد ملاحق هذه الدراسة «ملحق رقم ١٤».

زخـرت الأعمـال الأدبيـة ـ الفنيـة بالحـديث عـن نمط وسلوك بعض الجمـاعـات التـى ارتبطت فـى تصـور النـاس باللصـوصـيـة وأعـمـال السلب والنهب خـاصـة الطوائف المرتبطة بالسرقة والنشل. لدينا عشـرات النمـاذج المعطاة نذكر بعضهـا على سبيل المثال لا الحصـر. ففى إحدى مسرحيات الشيخ سلامة حجازى رواية سـارقة الأطفال «لحن النشالين»: [٢٢].

نحن نشـالو الجـيـوب قـد نهـضنا فى الغـروب

لا تدانينـا الخـطـوب ننشل الكيس الثـمـين

رك رك ثـم كـرك رك أصـبـح الكيس ولا شك

بعـد صـبـر وتهـالك قـسـمـة للسـارقـين

ومما قاله محمود عماد الشاعر وقد سرق نشال راتبه:[٢٣]

فى غرة الشهر والأيدى مسدودة نحوى تطالبنى بالدين فى الحين

والوقت حرب وللأزمـات سيطرة على الجيوب وحظ الطين كـالطين

يتحسر على الجنيهات الأربعة التى كانت مرتبه فيقول:

حتى إذا فاح منهـا ريحهـا عبقـا وللـدنانيـر ريـح كـالـرياحـين

هـوى إليهـا أخو علم بنكهتهـا سهل الإغارة شيطان كالشياطين

ومن المضحك فى ثورة ١٩١٩ أنه فى الوقت الذى أضرب فيه جماعات كثيرة من الشحـاتين والنشالين عن التسول والاستجداء وممارسة أعمال النشل تقديرًا للثورة العظيمة التى شارك فيها كل المصريين، وعندما أخذ الإنجليز سعد إلى المنفى راج فى أذهان العامة أن الإنجليز سرقوه فراحوا يهتفون ضدهم «يسقط النشالون» [٢٤].

فى لحن «السياس» كلمات بديع خيرى وألحان سيد درويش:[٢٥]

أوعى يمـــينك أوعى شـــمـــالك أوعى الأزمـــة توقف حـــالك

أوعى وشـــك أوعـــى ظهـرك أوعـى فـــوقك أوعى تحـــتك

أوعى لجـــيبك م الحـــرامـــيـــة أوعـى لروحك م الحـــانوتيـــة

وفكرى أباظة الذى تخصص فى كتابة بعض مذكرات عن الطوائف الهامشية فى عشرينيات القرن العشرين بأسلوبه الساخر، كتب فى «المذكرة العاشرة» من «مذكرات عريجى»:(٢٦).

«تضع المحافظة صورهم بجانب قسم الموسكى، فتشرط الجيوب وسط الزحام ويظن الناظر أنه يستفيد بحفظ ملامح الصورة مع أنهم أبرع من أى ممثل فى تغيير الخلقة، تراه بجانبك فى قطار الترام صباحًا «ابن بلد» مقلوظ باللاسة الحرير والجلابية السكروتة والبلغة الفاسى حتى إذا أتم مهمته وسلت المحفظة بخفة البرق تراه بعد الظهر أفندى لطيف ظريف يناقشك فى أى موضوع ليحتك بك ويقضى عليك بطريقته الأمريكية ويمضى خير فى سلامة وسلامة فى خير».

هذه الطريقة الأمريكانية كانت إحدى أهم طرق النشل آنذاك وهى التى ذكرها بيرم التونسى فى إحدى كتاباته وسببت له المتاعب، فعندما أصدر صحيفة «الخازوق» صدرها بالمقال التالى «لعنة الله على المحافظ»:(٢٧).

«بينما كنت سائرًا فى طريقى لا ليه ولا عليه إذا حدثتنى النفس الأمارة بالسوء وقادتنى رجلاى اللعينتان إلى العتبة الخضراء حيث يكثر النشالون على الطريقة الأمريكانية فتقدم منى نشال فى خفة ورشاقة وسرعة وانتشل محفظتى فصحت بأعلى صوتى «لعنة الله على المحافظ» ولا يخفى ما فى هذا العنوان من تورية خاصة وأن محافظ القاهرة آنذاك هو صهر السلطان.

ومن الروائع الأدبية التى صدرت «مذكرات نشال» عام ١٩٣٠ للمعلم عبد العزيز النص وهى قصة فكاهية تصور أخلاق وعادات النشالين وحيلهم وأساليبهم فى النشل أملاها المعلم عبد العزيز النص النشال المشهور على صاحب جريدة لسان الشعب، وطلب منه نشرها فى كتاب باللغة العامية «راجع الملحق رقم ١٢»، وعلى ما يبدو فعبد العزيز النص هذا كان أحد كبار النشالين فى مصر، وقد أصدرت

مجلة «الدنيا الجديدة ١٩٢٩ - ١٩٣١» عن دار الهلال تحقيقًا آنذاك عن «أكبر نشال فى مصر». (٢٨)

فى إحدى مسرحيات الريحانى عام ١٩٣١ «أموت فى كده» صورة فنية فى تشبيه صوابع النشال بأنها مثل الكماشة، فقد ضاعت من العمدة محفظته بعد سكره واتهم بائع اليانصيب عنانى بأنه نشلها: (٢٩).

العمدة «داخلاً» تعالى هنا يا مخسوف لما أقرض زورك أنا تخطف منى محفظتى ولا أخطفشى عمرك.

عنانى: اختشى باقول لك يا عجل السيد أنت راخر محفظة إيه جلنف؟

العمدة: وبتشتمنى يا حرامى يا نشال يا أبو صوابع زى الكماشة؟

أما شاعرنا العامى بيرم التونسى فمع الناس وفى حياة كل يوم صور كثيرة لهذه الجماعات والتى تعتمد على اللصوصية والسرقة والنشل، فعن «قهاوى الحرامية»(٣٠):

قهاوى فيها لصوص ... قاعدين بشكل عجيب

م الصبح للضهر ... للمغرب وللتشطيب

يدبروا فى الخطط ... ويرتبوا الأساليب

فى ساعة أو نص ... يا ما تنكسر دواليب

وخزنة تنشال ... وبالة من مكانها تغيب

غير النحاس والهدوم ... والعفش والكراكيب

وعن «بخمسين قرش»(٣١)

وخمسين قرش محفظتك تعودلك ... من النشال بالواسطة القوية

وعن «موسم الحج والنشالين»(٣٢)

رأيت بعينى النشالين فى الحرم ... عند الحجر لسود وعند المقام

زحـمـة وفـيــهـا من جميع الأمم   من تركمـان غشيم ومن هندى خام

والنشـالين شىء من بتوع الحـزم   وشـىء عـارفهم من بتـوع التـرام

الركن يستلموه مع اللى استلم   ويرجعوا بالمحفظة والحزام

ونشـالات نسوان قـرايب لـزم   ييجـوا مع القـافلة كـدا بانتظام

وعن «الفاتحة لمحمد على..!!»[٣٣]

لم اللصوص والنشالين والشحاتين وحطهم

فى أرض بور تصبح إذا ما أصلحوها ملكهم

هنا اللصوص مئات ألوف وأرضنا بور كلها

شيل من هنا احدف هنا وكل أرض وأهلها

حسبة بسيطة وهينة مش عايزة لجنة تحلها

ما انساش فى يوم رحت اشترى لأعز احبابى كفن

مات الفقير فى يوم عسير وجارى سلفنى الثمن

شال اللى هوه المحفظة زود على حزنى شجن

وبات على وقية حشيش مع الحبايب مختلى

خصص بيرم فى أعماله مكانة ملحوظة لجماعات «النشالين والمناصرة» طرائفهم، أساليبهم، مدى ما يسببونه للبعض خاصة الفقراء من متاعب، أماكن تواجدهم، دمج ذلك فى أكثر من قصيدة أهمها «النشالين والمناصرة» راجع الملحق رقم ١٦» والتى بدأ مطلعها: [٣٤]

النشالين والمناصرة والحرامية

أكتر من البياعين ومن الصنايعية

مقسمين البلد أقسام نفوذ وخطوط

وكل فرقة لها دايرة وداورية!

وعن «ضريح السيدة»[٣٥]

وفى المقام الكريم محتال ومحتالة
ع الزائرين يلعبوا نسوان ورجالة
يعرفهم المخبرين فيكى يا بغالة
ويدور عليهم نقيب يبحث عن الحلوان
فى كل يوم تنتشل كام محفظة فلاح
وكل يوم تضم الشباحة والشباح
واحدة الحلق من ودانها باللطافة راح
والثانية ضاع من سكات من صدرها الكردان

أما عن صورة «النشال»[٣٦]

راكب على بيسكليت بقرش اجرها
والقرش سارقه من أمه وكان لفطارها !!
يروح ويشرط هدوم الناس يمارها
وبنت شايلة طبق نابت يكعورها
وشنطة الست من أيدها يطيرها
واللبة من صدرها يخطفها بزرارها

ولم ينس بيرم فى مقاماته أن يصور لنا فى «المقامة الرغيفية»[٣٧] صورة سرقة الأحذية داخل الجامع على وجه الخصوص، وختم وصفه قائلاً:

كأنى باللصوص لصوص مصر إذا انبثوا جنوبًا أو شمالاً
وقاموا ينشلون الناس جهراً وقد أمنوا سجونًا واعتقالا
فما تركوا بيوتًا أو جيوبًا ولا عافوا حذاء أو شوالاً
ولا اختبأوا بليل أو نهار ولا خافوا عقابًا أو نكالاً
سينتخبون عضواً عن قريب يروح عن اللصوص البرلمانا

ظلت صورة النشال عالقة بالنكتة المصرية التى تروى عن تحمس أحد السودانيين للوحدة بين مصر والسودان، وقاد مظاهرة فى القاهرة فى خمسينيات القرن العشرين، فحملوه وأخذ يهتف «مصر والسودان هته واحد» ولما أنزلوه اكتشف أن أحد المتظاهرين قد نشله فأخذ يصرخ «مصر والسودان ستين هتة[٣٨]. وكذلك ببعض رسوم الكاريكاتير حتى يومنا هذا «الملحق رقم ٢٠».

وحتى الأفلام المصرية لم تخل عناوينها من الحديث عن «نشالة هانم» أو «النشال» والأخير بطولة شويكار ومحمود المليجى وفريد شوقى، ويدور حول كمال الذى يحترف النشل، وذات يوم ينشل حافظة الموظفة عفاف، لكنه يقع فى حبها، ويرد لها المحفظة ويعمل فى أحد البارات الذى يديره إدوارد ويسلمه كمال إيراد اليوم وبه ساعة قديمة والتى بها معلومات عن الجاسوسية.

ويلتقى عبد العاطى حامد فى «مغامرات صحفى فى قاع المجتمع المصرى[٣٩] بجماعات من النشالين، يحدثه أحدهم عن أسماء الأدوات المستخدمة فى النشل، عن لغة النشالين، كيف يستخدم الجريدة فى النشل «كنت امسك «الجرنال» واخفى عين الشخص الذى أريد أن أسرقه لكى أشغله بينما يدى تمتد لكى تأخذ المحفظة ولا استعمل يدى كلها، بل يكفى إصبعين فقط الإصبع الكبير فوق الإصبع الصغير فتصبح كالمقص، وبهذا أستطيع أخذ المحفظة بخفة.. وابتدأ زنجر يجرى معه تدريبات عنيفة أحيانًا كان يمثل الزبون وأنا الحرامى وعندما أخطئ يصحح لى الخطأ».

ويضيف الكاتب على لسان نشال: «كان يوجد بعض الكمسارية بياخدوا عمولة منى.. فالكمسارية يعرفون النشالين ولا يكلمونهم لأنهم يخافون من الحرامية حتى لا يسرقوا منهم الإيراد.. والحرامية عندهم نظر فهم يعطون عمولة للكمسارية.

هوامش وإحالات الفصل السابع

(١) انظر: الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث، الجزء الخامس، المجلد الأول، القسم الثانى، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٩٨، ص١٠١٢. و«الشرطية» أى النشالين الذين يستخدمون المشرط فى شق الجيوب وسرقة ما بها، المشرط هو المبضع (شرطى أى نشال) كما جاء فى مختار الصحاح.

(٢) عبدالرحمن الجبرتى: عجاذب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الأول، ص٤٨٦.

(٣) المرجع السابق، الجزء الثانى، ص ١٩٢.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الخامس، ص ٢٧٣.

(٥) يوسف المغربى: دفع الإصر عن كلام أهل مصر، مصدر سبق ذكره، ص ٩٢ب.

(٦) المجلد الثامن، الطبعة الأولى، المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر المحمية سنة ١٣٠٦ هـ، ص ١٣٦، (فصل النون من باب اللام).

(٧) أولياجلبى: سيا حتنامة سى، ص ١٦٠.

(٨) المرجع السابق، ص٦٣، ص ص ٤٨٠ - ٤٨٣.

(٩) ليلى عبد اللطيف (د): المجتمع المصرى فى العصر العثمانى، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجامعى، القاهرة ١٩٨٧، ص٣٧.

وفى دراستها عن (الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، جامعة عين شمس ١٩٧٨، ص ص ٢٣٣-٢٣٥) وجدت هذه الباحثة أن (الصوباشى) والذى كان يطلق عليه (الوالى)، (الزعيم) كان يشارك أغا الانكشارية فى حفظ الأمن فى القاهرة وهو أقل رتبة من أغا الانكشارية ويعينه الباشا وكان يعاقب المخالفين بعقوبات مختلفة وينفذ حكم الإعدام الذى تصدره السلطات. وفى دراسة أخرى لها (دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى، مكتبة الخانجى بمصر ١٩٨٠، ص٩٨) أبانت أنه مع تدهور سلطة المحتسب فى القرن الثامن عشر أصبحت الحكومة تعتمد على أغا الانكشارية فى القيام بمهام المحتسب، وكان الانكشارية يتقاضون رسم (حماية) من بعض الطوائف نظير حمايتها من سلطة الإدارة أطلق عليها (حاميات).

ويرى كاتب هذه السطور أن المثل الدارج (حاميها حراميها) يكاد أن يكون له علاقة ما بالحديث السابق.

(١٠) سعيد مغاورى محمد(د): الألقاب وأسماء الحرف والوظائف فى ضوء البرديات العربية، المجلد الثانى (١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م)، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ص ٨٣٥.

(١١) بيرتون (ريتشارد ف.): رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، الجزء الأول، ترجمة الدكتور عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ص٣٥.

(١٢) قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص ٣٩٧.

(١٣) محمد البابلى بك: الإجرام فى مصر، ص١٠٤.

(١٤) أحمد أمين: المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(١٥) أحمد تيمور باشا: الأمثال العامية، ص١٧٩.

(١٦) محمد شاهين: كفاح الجريمة، ص ١٦٠.

(١٧) محمد لطفى جمعة: مباحث فى الفلكلور، شركة الأمل للطباعة والنشر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٩، ص ص ١٣٣ - ١٤٠.

(١٨) صرح محمد شاهين (مأمور بالسجون المصرية) فى كتابه (كفاح الجريمة ص١٠٢) أن أحد رجال الحفظ حدثه قائلاً «لما كنت فى خدمة البوليس بالعاصمة جاءنى رجل قد نشلت حافظته بعد شق ملابسه ولا يعرف الجانى، فاستعنت على كشف الخبر بكبير النشالين الذى صرح بأن هذا الشق من يد فلان النشال بمجرد أن وقع نظره عليه وكم كنت دهشًا عندما أثبت التحقيق فى النهاية صدق فراسته».

(١٩) عبد العاطى حامد: مغامرات صحفى فى قاع المجتمع المصرى، ص ص ٨١ - ٨٢.

فى الفترة الأخيرة وضع الأستاذ على عيسى كتابًاعن اللصوص والنشالين، وقد جاء فى الكتاب أن اصطلاح (الهناجرة) يطلق على الذين يمزقون جيب الزبون بالموسى، أما (البهالنة) فهم الذين يصرفون انتباه الزبون عن جيبه بوقوف فتاة جميلة بجواره فى ازدحام الأتوبيس: أما (الهزازون) فهم الذين يتشاجرون فى الطريق العام فيتدخل أحد المارة لفض الاشتباك فيفقد محفظته.

(٢٠) محمد لطفى جمعة: المرجع السابق، ص ١٢٣.

(٢١) كفاح الجريمة، ص ١٠٠.

(٢٢) محمد فاضل (الدكتور): الشيخ سلامة حجازى، مطبعة الأمة بدمنهور ١٩٢٢، ص١١٣.

(٢٣) صبرى أبو المجد: مذكراتى فى السجن... (صفحات مطوية من تاريخنا الوطنى)، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٨٩، ص١٦٥.

(٢٤) روزاليوسف، العدد ١١١٨ (١٩٤٩)، ص٢٥.

(٢٥) حسن درويش: بديع خيرى.. الأزجال البديعية والألحان الريحانية دراسة فنية سياسية اجتماعية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة ٢٠٠١، ص٩٤.

(٢٦) بقلم الأسطى حنفى (أبو محمود) بها مقدمة شائقة للأستاذ فكرى أباظة، المكتبة التجارية بمصر ١٣٤١ هـ (١٩٢٢)، ص ص ٤٧ - ٤٨.

(٢٧) محمد كامل البنا: بيرم التونسى كما عرفته، مطابع جريدة الصباح بالقاهرة ١٩٦١، ص ص ٢٩ - ٣٠.

(٢٨) وحول إحدى حوادث النشل والتى قام بها (النص) راجع ما ذكره عبد المنصف محمود (اللواء): من ذكريات ٣٠ عامًا فى كفاح الجريمة، مطابع جريدة المصرى، القاهرة ١٩٥٣، ص ص٢٥ - ٣٣. حيث يؤكد (ص٥١) أن أكثر حوادث المدن تكون فى النشل بطرق مختلفة وأهمها الطريقة الأمريكانية والنشل عن طريق القردة.

(٢٩) على الراعى (د): فنون الكوميديا من خيال الظل.. إلى نجيب الريحانى، كتاب الهلال (٢٤٨) مؤسسة دار الهلال، القاهرة ١٩٧١، ص٢٧٢.

(٣٠) بيرم التونسى: الأعمال الكاملة (٤) بيرم وحياة كل يوم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦، ص ص٩٤ - ٩٥.

(٣١) المرجع السابق، ص ٥٠.

(٣٢) المرجع السابق، ص ١٠٧ - ١١٠.

(٣٣) المرجع السابق، ص ص١١٤ - ١١٦.

(٣٤) بيرم التونسى: الأعمال الكاملة (٣)، بيرم والناس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦، ص ص٥٣ - ٥٦.

(٣٥) المرجع السابق، ص ص ٨٠ - ٨٢.

(٣٦) بيرم التونسى: الأعمال الكاملة (١١)، ستات، نقد، سياسة، نقد وسياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦، ص٢٨.

(٣٧) بيرم التونسى: الأعمال الكاملة (٨)، المقامات (١)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥، ص ص ١١٤ -١١٥. وحول الطريقة الأمريكانية راجع (المقالة الأمريكانية) من نفس المرجع، ص ص ١٢٩ - ١٣٢.

(٣٨) صلاح فضل (د): «إدريس على يستعيد تهجير النوبى» مقال فى جريدة الأهرام بتاريخ ٢٩ يوليو ٢٠٠٢.

(٣٩) عبد العاطى حامد: المرجع السابق، ص ص ٨٢ - ٨٣.

الفصل الثامن

اللصوص فى مصر.. السلب والنهب وقطع الطريق

لعل السلب والنهب وقطع الطريق والسرقة من الأمور التى ارتبطت بتحركات جماعات اللصوص والسراق والحرامية وقطاع الطرق وهى التى وضحت بصورة أكثر فى الأدبيات التاريخية، وهى عمليات مستمرة على الدوام تتكاثر فى بعض الأحيان وتتناقص فى أحيان أخرى طبقًا للظروف الموضوعية التى يمر به المجتمع، وهى من الأمور القديمة المتطورة كمًا وكيفًا حسب ظروف الزمان والمكان، والمتواجدة فى كل المجتمعات البشرية - والتى يمكن معرفة معالمها وآثارها الجانبية على سائر البلاد والعباد.

يمكننا رصد بعض تحركات الجماعات الهامشية المرتبطة باللصوصية والنهب منذ أواخر العصر المملوكى وحتى بدايات عصر محمد على باشا فى هذه اللقطات والمسارات التاريخية.

يتحدث ابن إياس عن تحركات المناسر والزعر والسراق تخللها حوادث سلب ونهب، الأمر الذى أدى إلى اختلال الأمن، عبر عنها فى أحداث جمادى الأولى عام ٩٠٩هـ بقوله:(١)

من دولة الغورى ومن جوره لقد حملنا ما لا نطيق

وقد كفى من فعله ما جرى من قلة الأمن وقطع الطريق

يتحدث ابن إياس عن انتفاضات قام بها العوام وتحركات للمناسر والزعر والحرامية والسراق تخللها حوادث نهب ومن نماذج ما ذكره:(٢)

. فى أحداث محرم ٩٠٧هـ شكى جماعة كثيرة للأتابكى قيت الرجبى «أن أصحاب الأملاك ضيقوا عليهم وطالبوهم بعشرة أشهر معجلاً بسبب هذه الغرامة وما لهم قدرة على ذلك «وعندما لم يلتفت إلى كلامهم كبروا عليه ورجموه هو ومن معه وعندما استمر الاقتتال «الزعر والعبيد نهبوا عدة دكاكين من البسطيين إلى داخل باب زويلة، وقد قبض على جماعة من الزعر والعبيد ووسط منهم نحو من أربعة عشر إنسانًا.

. فى صفر ٩٠٧هـ «هجم المنسر تحت الليل على سوق الجمالين وسوق الخشيبة والوراقين ونهبوا منها نحو من عشرين دكانًا ولم تنتطح فى ذاك شاتان».

. فى حوادث ٩٠٨هـ «هجم المنسر على سكان المساطحى التى بجوار باب الحاجب ونهبوا عدة بيوت وخطفوا عدة عمائم وشدود وكونوا نحو ستين رجلاً ومعم قسى ونشاب» والى القاهرة قبض على بعضهم وسطهم وشنقهم.

. يتحدث فى احداث صفر ٩١٢هـ عن فتنة كبيرة بين الزعر فى الرملة تحت القلعة، وأن الوالى قتل بعضهم.

. فى أحداث رمضان ٩١٣هـ «جماعة من السراق نقبوا قاعة الذهب وبعض الدكاكين وهجم المنسر على شخص أعجمى تاجر وذبحوه ونهبوه».

. فى أحداث جمادى الآخر ٩١٨هـ «هجم المنسر على سكان الزريبة من المتفرجين ونهبوا عمائمهم وقماش الناس».

. مع تفاقم الأزمة الاقتصادية بكل أبعادها، يتحدث ابن إياس فى أحداث ربيع الآخر ٩١٩هـ أن الغورى أطلق سراح ٨١ إنسانًا «حتى الحرامية استتوبهم وأطلقهم حتى أصحاب الجرائم والزغلية والعمال ممن عليه مال منكسر».

وكان العوام بسبب تشحيطة الخبز والدقيق تسببت عليه بالكلام المنكى وقالوا له جهارًا «الله يهلك من يقصد الغلاء إلى المسلمين فسمع ذلك بأذنه فتنكد فى ذلك اليوم «وفى أحداث ذى القعدة ٩٢٠هـ» كثر هجم المناسر فى الحارات والأماكن من القاهرة وغيرها حتى ضج الناس من ذلك وفى رجب ٩٢١هـ «صعد السلطان إلى القلعة وهو فى غاية السودنة من العوام».

ومن أبرز الأحداث التاريخية والتى ذكرها ابن إياس فى فترة الاضطراب التى صاحبت تهيؤ السلطان الغورى لمقاتلة ابن عثمان، وما حدث أثناء خروجه وفى غيبته وتولى طومانباى الحكم والسنوات الأولى للفتح العثمانى لمصر:(٣)

- قبل خروج الغورى لملاقاة سليم وفى أحداث محرم ٩٢٢هـ «رسم السلطان بتوسيط خمسة أنفار من المنسر الذى شاع أمره فى القاهرة، وكان من ضمنهم كبيرهم الذى يمس «أبو عزرابيل».

- فى ربيع الآخر ٩٢٢هـ سافر صحبته «الغورى» شيخ المشايخ المسمى بسلطان الحرافيش وجنده وصنجقه وطبله فكان قدام طلب السلطان.

- وفى غيبته «صار على رءوس الناس طيرة بسبب المناسر والحريق «بل وصل الأمر الذى عد من العجائب، دخول الحرامية القلعة ونهبهم لبيت من بيوت المماليك، الأمر الذى جعل الدوادار طومانباى «استتاب جماعة من الحرامية».

من خلال الاستقراء التاريخى لتحركات هذه الجماعات المرتبطة باللصوصية والنهب نود أن نضع هذه النقاط فى الاعتبار:

أولاً: رغم ما اتسمت به سنوات بعض الولاة من أمن واستقرار، فإن ذلك كان نسبيًا للغاية، فقد تبدو صورة البلاد فى بعض الأوقات آمنة مطمئنة، أو كما يقول المثل الدارج «من بره هلا هلا،، ومن جوه يعلم الله» لكن هذا الأمان والاستقرار كان مرتبطًا بظروف وأوضاع معينة، وحتى وإن تقلصت تحركات هذه الجماعات الهامشية لوقت من الأوقات، وكانت أشبه ما تكون فى حالة من «البيات الشتوى» سرعان «ما تعود ريمة لعادتها القديمة» إذ تبدأ فى التمرد والخروج على سلطة الدولة وتهدد الأمن العام والخاص وتتزايد العصابات

المنظمة التى توجد روابط وثيقة بين أعضائها حيث يشعر كل عضو بالانتماء إليها، يتوافر شعور بالولاء لها لدى جميع أفرادها، تنتشر وتتحرك من مكان إلى آخر، تسطو على المنازل والمتاجر والسفن النيلية وتمتد أيديها فى بعض الأحيان إلى قافلة الحج بما تحمله من مال ومتاع، كل ذلك رغم ما يقال مثلاً:

فى عهد خسرو باشا «١٥٣٥ ـ ١٥٣٦»: كانت مصر فى أيامه فى غاية الأمن من اللصوص والقطاع»[٤]

ثم تولى مسيح باشا الخادم فى أوائل سنة اثتين وثمانين وتسعمائة وكان ذا مهابة متصفًا بالعدل والعفة يكره أهل الفساد واللصوص وقطاع الطريق ويتجسس عن أخبارهم ومواطنهم ويرسل لحكام الأقاليم فى إحضارهم ويقتل منهم من يظفر به ويشنع فى قتله»[٥]

ـ وفى ولاية حسين باشا «١٠٤٥هـ» وفى زمنه كانت الناس آمنة على مالها وأنفسها وقتل من السراق خلقًا كثيرًا»[٦]

ـ فى عهد على بك الكبير «أمنت فى وقته الطرق من اللصوص والعربان وقطاع الطرق حتى أن الناس كانوا يسافرون فى البلاد ليلاً حاملين الأموال وغيرها فلا يجدون أحدًا يتعرض لهم من عربان وغيرهم من قطاع الطرق»[٧]

ـ أو حتى ما ذكره الشيخ خليل بن أحمد الرجبى فى كتابه «تاريخ الوزير محمد على باشا» من أن أهم ملامح عصره كان «قمع شوكة المفسدين من طوائف أجلاف الفلاحين والعربان بقطر مصر وأذلاهم»[٨]

فسنوات الأمن والاستقرار لا يمكن أن تقاس بأى حال من الأحوال بسنوات المجاعة والحروب والانتفاضات والتمردات وتحركات العوام والجماعات الأخرى الهامشية مثل اللصوص وقطاع الطرق والزعر والعياق وغيرهم خاصة وأن بعض الولاة وبعض الأفراد كانوا على صلة ما بهذه الجماعات يستعينون بهم أحيانًا فى صراعهم أو يتركون لهم أحيانًا «الحبل على الغارب» دون رادع يذكر ولدينا على سبيل المثال:

ـ عندما تمرد أحمد باشا «آلذى لقب بالخائن» على الدولة العثمانية وأعلن نفسه سلطانًا على مصر «١٥٢٤» عاونه الزعر فى قتل عدد من جنود الانكشارية ومصادرة أموال الأعيان والتجار.

ـ فى عام ١٦١٣ أرسل والى مصر فتوات وزعر حارة الفوالة وذلك من أجل إخماد تمرد بعض العسكر عليه.

ـ ونقلاً عن أبى السرور البكرى أطلق خليل باشا سراح بعض اللصوص الذين قبض عليهم متلبسين بالجناية وعندما أصر أحد رجال الديوان على إصدار الحكم بالإعدام لأن هذه الحادثة لا تحتاج إلى محاكمة لثبوت الجناية «فلم يكن جواب الباشا إلا الأمر بهدم بيت ذلك الناصح فاستغرب الرجل ذلك، وسأل عن السبب الموجب له فأجابه الباشا قائلاً: كيف يحق لك الاعتراض على إذا أمرت بهدم بيتك المبنى من حطام الدنيا ولا يحق لذلك البانى العظيم معارضتنا إذا هدمنا بناية بغير وجه شرعى «ثم أبطل الهدم وأطلق اللصوص الذين «قلوا بعد الحادثة احتراما للباشا»[٩]

ـ فى عام ١٧٧٧ قام إسماعيل بك الصوباشى بتجنيد «فتوات وزعر الحارات» لمناصرته فى صراعاته ضد خصومه، ويذكر الجبرتى فى أحداث هذا العام ١١٩١هـ «خرج القاضى والمشايخ والتجار وأرباب الصنائع والمغاربة وأهل الحارات والعصب، وغلقت الأسوق، وخرج الناس فى يوم الاثنين حتى ملئوا الفضاء، فلما عاين ذلك إسماعيل بك وعلم أنهم يحتاجون إلى مصروف، ومآكل وأكثرهم فقراء وذلك غاية لا تدرك، فأشار على تجار المغاربة والالضاشات بالمكث ورجع بقية العامة وأرباب الحرف ومشايخ الأشاير والفقراء من أهل الزوايا والبيوت»[١٠]

ويذكر أندريه وريمون أن «بعض هؤلاء المناسر عاشوا فى مختلف الأحياء دون رادع يذكر وعنمدا أمسكهم الناغس تركهم الوالى الزعيم الصوباشى يهربون مقابل رشوة، لقد كان الأمر بشعًا لحد شاذ فقد نهب ٤٨ دكانًا فى طولون مما تسبب فى خسائر كبيرة وعندئذٍ ذهب التجار المغاربة يشكون للباشا مهددين برفع شكواهم إلى السلطان إذا لم يعزل الوالى، فعين الباشا واليًا جديدًا قام يتعقب اللصوص»[١١]

برز دور هذه الجماعات زمن الحملة الفرنسية والتى فى أثناء ثورة القاهرة الأولى «اتهم إبراهيم أفندى كاتب البهار بأنه جمع له جمعًا من الشطار وأعطاهم الأسلحة والمساوق»(١٢)

ثانيًا: يتكاثر دور هذه الجماعات إبان فترات الأزمات الاقتصادية ـ السياسية وعلى وجه الخصوص فى فترات الغلاء والوباء والمجاعة، ويلاحظ كذلك مدى الارتباط بين إغارات العريان وقطع الطريق، بل إن بعض البدو أعطى الحماية لبعض اللصوص وقطاع الطريق، وهؤلاء كان بعضهم من البدو والبعض الآخر من الفلاحين، فعند هبوط مياه النيل يتكاثر الفلاحون أو العرب وينزلون بالخيل فى البحر فى جهات معلومة ويأخذون المركب بما فيه من أموال ومتاجر ويقتلون من فيها ولا يسأل أحد من الأمراء عن ذلك بل للأمير قسم فيه ونصيب مقدر يأخذه، وكذلك كان البر فى كل جهة منه طوائف من الفلاحين يسمى الرجل نفسه شيخ العرب الفلانى وله رجال ينهبون فى الطرق»(١٣)

على أى حال الإشارة إلى تزايد هؤلاء من قطاع الطرق والمناسر والزعر والجعيدية والحرامية متناثرة فى المؤلفات التاريخية على سبيل المثال لا الحصر:

ـ فى عهد حسين باشا ٩٨١هـ «كثر فى زمنه المناسر الليلية» وعندما ولى مسيح باشا الخادم قيل إنه قتل نحو عشرة آلاف نفس وغالبهم من أهل الفساد «لأن المناسر فى زمن حسين باشا كثيرة قطعها مسيح ومن عهدها إلى الآن انقطع أثر المناسر والسراق»(١٤)

ـ فى ولاية مصطفى باشا البستنجى ١٠٥١هـ «اشتد البلاء على الناس فكانوا بين قرمين عنيدين الغلاء واللصوص ولما اشتد الحال بالناس اجتمعوا رمزًا تحت قلعة الجبل وصاحوا على الباشا، وشكوا من أفعال والى القاهرة وكشاف الأقاليم وضجوا ونادوا: ما يحل من الله يا باشا اتق الله فى خلقه، فاضطرب الباشا وخشى العاقبة وخلع فى الحال والى القاهرة(١٥). وفى ذلك الوقت وقع الغلاء والقحط «وكثرت المناسر بمصر وعم البلا منهم فصارت المناسر فى كل ليلة تأخذ محلا واستمر الأمر متزايدًا من المناسر، ورحلت الناس من أوطانهم

وصاروا إذا مسك أحد من المناسر لم يأمر بقتله ويقول للوالى استتوبه، فينزل الوالى يأخذ رشوته ويطلقه فى الحال إلى أن جاءوا إلى بركة الرطلى»[١٦]

ـ فى فترة الحملة الفرنسية وفى ٨ صفر ١٢١٣هـ ـ ٢٢ يوليو ١٧٩٨م «اجتمعت الجعيدية وأوباش الناس ونهبوا بيت إبراهيم بك ومراد بك بقيسون وأحرقوه ونهبوا أيضًا عدة بيوت من بيوت الأمراء وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك»[١٧].

ويضيف الجبرتى فى أحداث ١٢ صفر ١٢١٣هـ ـ ٢٦ يوليه ١٧٩٨م «اجتمع أرباب الديوان عند رئيسه فذكر لهم ما وقع من نهب البيوت فقالوا له: هذا فعل الجعيدية وأوباش الناس»[١٨]

وفى أحاث «٢٩ جمادى الأولى ١٢١٣ هـ ـ نوفمبر ١٧٩٨م» «هجم المنسر على بوابة طيلون وكسروها وعبروا منها إلى السوق فكسروا القناديل وفتحوا ثلاثة حوانيت وأخذوا ما بها من متاع المغاربة التجار وقتلوا القلق الذى هناك[١٩]

وعلى الرغم من أن الفرنساويين فى «١٥ صفر ١٢١٣ هـ ـ ٢٩ يوليه ١٧٩٨م» قد «قبضوا على شيخ الجعيدية ومعه آخر ويندقوا عليهما ببركة الأزبكية ثم على آخرين أيضًا بالرميلة وأحضروا شيئًا كثيرًا من المنهوبات»[٢٠] إلا أن هذا لم يمنع تحركات الحرافيش ولغطهم على حد تعبير الجبرتى ومعهم الجعيدية، ففى «شوال ١٢١٣ ـ ٨ مارس ١٧٩٩م» وفى العيد «رمحت الجعيدية والحرافيش وخطفوا ثياب النساء وأزرهن وما صادفوه من عمائم الرجال وغير ذلك[٢١]

فى فترة الفوضى السياسية ـ الاجتماعية التى صاحبت خروج الفرنسيس من مصر استمرت أعمال السلب والنهب من قبل هذه الجماعات، ففى أحداث عام «١٢١٨هـ ـ ١٨٠٣م» اجتمع الكثير من الأوباش والجعيدية والعسكر خارج الدار يريدون النهب»[٢٢]

وأثناء خروج مراد بالعساكر «انقطعت الطرق وأخذت الحرامية فى كل ليلة تطرق أطراف البلد[٢٣]». الأمر الذى دعاه بعد ذلك إلى الذهاب إلى طملوها «قرية من قرى منوف» وطالب أهلها «برسلان» و«باشا النجار» وكان كان منهما

شيخ عصبة من المفسدين وقطاع الطريق، وعندما لم يجدهما نهب القرية وحرقها، وبحثًا عنهما هدم فى طريقه عدة بلدان، ويذكر على مبارك فى خططه أن رسلان شيخ نصف سعد وباشا النجار عمدة نصف حرام، لكل منهما عصبة ومنصر يقطعون الطريق ويحارب بعضهم بعضًا، وقد اختفى كلاهما عند شيخ العرب الحفناوى جبير عمدة نصف سعد بناحية البتانون[٢٤]

هذه الفترة التى كانت فيها مصر فى «منتصف الطرق» على حد قول المؤرخ المصرى الشهير محمد شفيق غربال فترة شهدت ازدياد وسطوة قطاع الطرق والمناسر، ويصف خليل بن أحمد الرجبى «المنسر»[٢٥] بأنهم ناس من الفلاحين والعرب وبأيديهم تارة شعل مضيئة بالنار فيصعدون إلى الحارات وينهبون البيوت ويجرحون، وكان أهل المحلات على الدوام مستحضرين ومستعدين بالبارود والسلاح، ويروى أنه قد ظهر بالطرق بالليل ورجال يقال لهم «البطحجية» ومعهم أشياء يضربون بها كل من كان مارًا منفردًا، أما عن عصابات قطاع الطرق فيؤكد أنه كان «بقطر مصر رجال موصوفون بالقوة مذكورون بالكرم والفتوة بلا مسمى وخيالاً ما ألمًا[٢٦] ويذكر من بينهم رسلان، ابن زغلول، الأشقم، سلامة شديد، إسماعيل الزعلوك.

واعتمادًا على الجبرتى فقد شهدت السنوات الأولى من حكم محمد على:[٢٧]

- عندما شاع فى الناس حصول زلزلة خرجوا خارج البلد «وتسلق العياريون والحرامية تلك الليلة على كثير من الدور والأماكن وفتشوها «أحداث ٢٣ فبراير ١٨١٠».

- بعض العيارين من السراق تعدوا على قهوة الباشا بشبرا وسرقوا جميع ما بالنصبة من الأوانى والبكارج والفناجين والظروف أكثر من خمسين قبض عليهم وشنق الجميع وخوزقوهم، «أحداث ٢٧ يونيه ١٨١٦».

- وفى أحداث عام ١٨١٧ « شنقوا عدة أشخاص فى أماكن متفرقة قيل إنهم سراق وزغلية وحرامية».

المتصفح لصفحات كتاب خليل بن أحمد الرجبى «تاريخ الوزير محمد على

باشا يدرك تمام الإدراك مدى حرص الباشا على وضع حد لما يقوم به اللصوص من إخلال بالأمن، أكدت أوامره ومكاتباته صرامة موقفه هذا، فبتاريخ ٨ محرم ١٢٥٢هـ أصدر أمره إلى مدير الجيزة وبخه قائلا له: «يابك قد وسخت البكوية، إما أن تزيل هؤلاء اللصوص من الوجود أو أن أزيلك وأبقيهم فأى الأمرين تختار، فيدنى حالاً»[٢٨]

وفى ١٨ ربيع الآخر ١٢٥٢هـ صدر أمر منه إلى عباس باشا الأول مضمونه «اللصوص الذين سرقوا معمل النيلة بميت بره فروا هروبًا قبض على ستة أنفار سجنوا تسعة عشر شهرًا أو اتهموا بذلك، ولما تبين عدم ثبوت شىء عليهم طلب تخلية سبيلهم لمباشرة مزروعاتهم بعد التضمين عليهم «إذ لا يهمل فى البحث والتفتيش على أولئك اللصوص الهاربين»[٢٩]

هوامش وإحالات الفصل الثامن

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ص ٥٩.

(٢) المرجع السابق، صفحات ١٦ ـ ٣٩، ٢٠، ١٧ ـ ٤٠، ٦٩، ١٢٦، ٢٧٩ ـ ٢٨٠، ٣١٧ ـ ٣١٨، ٤١٦، ٤٦٦.

(٣) المرجع السابق، الجزء الخامس، صفحات ٨ ـ ٩، ٤٣ ـ ٤٤، ٤٩.

(٤) أحمد شلبى بن عبدالغنى: أوضح الإشارات، ص ١٠٨.

(٥) محمد عبدالمعطى الإسحاقى المنوفى: أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، الطبعة الأولى، المطبعة الأزهرية المصرية ١٣١١هـ، ص ١٥٩.

(٦) محمد بن أبى السرور البكرى: الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة، ميكروفيلم بدار الكتب المصرية رقم (٣٤٣٢١) ١٨٥١١ تاريخ ٢٢٦١ تاريخ تيمور ٢٥٤٢، ص ٣٩.

(٧) إسماعيل بن سعد الخشاب، أخبار أهل القرن الثانى عشر، تحقيق عبدالعزيز جمال الدين، عماد أبو غازى، الطبعة الأولى، العربى للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٠، ص ٤٦.

(٨) مرجع سبق ذكره، ص ١٦٦.

(٩) جورجى زيدان: مصر العثمانية، ص ١٥٨.

(١٠) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار. الجزء الثانى، ص ٢٠.

(١١) فصول من التاريخ الاجتماعى فى مصر العثمانية، ص ٤٢.

(١٢) عبدالرحمن الجبرتى: مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، ص ٧٤.

(١٣) خليل بن أحمد الرجبى: المرجع السابق، ص ص ٧٢.

(١٤) محمد بن أبى السرور البكرى: النزهة الزاهية، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(١٥) ميخائيل شاروبيم بك: الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ١٧٩٨، ص ص ٩٠ ـ ٩١.

(١٦) محمد بن أبى السرور البكرى: الروضة المأنوسة، ص ٤١.

(١٧) عبدالرحمن الجبرتى: مظهر التقديس، ص ٣٨.

(١٨) المرجع السابق، ص ٣٩.

(١٩) المرجع السابق، ص ٧٨.

(٢٠) المرجع السابق، ص ٤٢.

(٢١) عبدالرحمن الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثالث، ص ٨٢.

(٢٢) المرجع السابق، ص ٢٩٣.

(٢٣) عبدالرحمن الجبرتى: مظهر التقديس، ص ٢١.

(٢٤) على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، الجزء الثالث عشر، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠١، ص ١١٧.

(٢٥) تاريخ الوزير محمد على باشا، ص ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٢٦) المرجع السابق، ص ١١٦.

يذكر الجبرتى (عجائب الآثار، الجزء الثانى. ص ص ١٠٢ ـ ١٥٩) أن ابن رسلان كان قاطع طريق بالمنوفية وهو معروف بشيخ العرب رسلان عندما توجهوا للقبض على ابن زغلول صالح على نفسه بثلاثمائة كيس ورجع الحال إلى حاله، وقد تمكن محمد على من القبض عليه وأعدمه خاصة وأنه كان من أشهر قطاع الطرق على المسافرين فى البحر ويذكر الجبرتى (عجائب الآثار، الجزء الرابع، ص ٩٤) وكلما مرت بناحيته مركب حاربها ونهب ما فيها من بضائع التجار وأموالهم أو أنهم يفتدون أنفسهم منه بما يرضيه من المال فكثر تشكى الناس منه».

(٢٧) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار، الجزء الرابع، ص ١٧٦، ص ٣٩٠، ص ٤٣٦، ص ٤٤٧.

(٢٨) الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على باشا، الجزء الثانى، ص ٩٤.

(٢٩) المرجع السابق، ص ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

الفصل التاسع

نحو دور سياسى عام لجماعات هامشية

التقاء العوام بأولاد القرافة والأطراف

يتحدث بعض الدارسين عن محددات الدور السياسى للجماعات الهامشية فى تاريخ مصر الحديث، وهى ظاهرة متواجدة على الساحة المصرية قبل العصر المملوكى - العثمانى، فقد تزايدت فى هذا العصر وبانت معالمها بعد أن كونت هذه الجماعات الكثير من الأشكال الهلامية الساخطة على الدوام والتى تنفجر فى صراعات مرتبطة أساسًا بحركات العوام، انخرطت هذه الجماعات فى الانتفاضات التى ضمت قطاعًا كبيرًا من العامة الحرافيش والشحاتين وأصحاب الحرف وقادها فى بعض الأحيان علماء ومشايخ من الأزهر، أحد الدارسين يقسم المشاركة إلى[1]:

- انتفاضات يقوم بها الجعيدية والزعر والحرافيش لحسابهم طلبًا للرزق.
- أعمال عنف يقوم بها أعضاء هذه الجماعات لحساب بعض الحكام.
- انتفاضات يقوم بها أعضاء هذه الجماعات منخرطين فى لحمة ونسيج انتفاضات العامة والطلاب والعلماء للمطالبة بتغيرات محددة.

لوحظ منذ أواخر العصر المملوكى على وجه التخصيص، وفى ظل ما يمكن أن يسمى باختلال التوازن أو عدم تناسب مقدرات القوة العسكرية أن البعض كان يلجأ دائمًا إلى استنفار هذه الجماعات الهامشية للدخول فى الصراع العسكرى داخل البلاد إن لم يكن فى بعض الأحيان خارج البلاد.

والأسطر التالية توضح لنا إلى حد كبير ومن خلال الوقائع التاريخية بعض مؤشرات هذا الدور والذى اختلطت وتمازجت فيه فى بعض الأحيان تحركات العوام الحرافيش بتحركات هذه الجماعات الهامشية، وبصفة خاصة تلك التى ارتبطت فى التصور الرسمى بأعمال اللصوصية والسلب والنهب وذلك طوال ثلاثة قرون، أى منذ بدايات أفول دولة المماليك وصولاً إلى ظهور دولة مصر محمد على.

ومصدرنا الأساسى خلال تلك الفترة الأولى انهيار دولة المماليك وبدايات الفتح العثمانى لمصر هو المؤرخ المصرى الشهير ابن إياس الذى أوضح لنا فى بدائع الزهور فى وقائع الدهور بعض طبيعة هذا الدور والذى تراوحت فيه علاقة هذه الجماعات بالسلطة الحاكمة ما بين النبذ والإقصاء من جانب السلطة فى لحظات كثيرة، ومحاولة كسب تأييد هذه الجماعات فى بعض اللحظات والمواقف، وفى لحظات أكثر يتعرض لمحاولات هذه الجماعات إثارة الاضطراب والتمرد من جانبهم.

فالسلطان الغورى، استتاب بعض السراق والزعار وقتل بعضهم لتأمين ما يمكن أن يسمى بلغة عصرنا الجبهة الداخلية وتقدم معه شيخ الخرافيش وجنده وصنجقه وطبله أثناء زحفه لملاقاة ابن عثمان، كانوا فى مقدمة صفوف القتال، خاصة وأن الحرفشة مرتبطة بمصارعة الرجال والتهيؤ للقتال، وقد استمر دورهم القتالى فى فترة تالية إذ يحدثنا الجبرتى أنه فى إحدى ثورات القاهرة ضد الوجود الفرنسى خرج جمع عظيم من الأوباش والحرافيش والأطفال ولهم صياح ونباح وتحارب بكلمات.

وعلى ما يذكر ابن إياس، وقبل معركة الريدانية[٢]:

فى أحداث ذى القعدة ٩٢٢هـ نادى طومان باى بأن «الزعر والصبيان الشطار والمغاربة وكل من كان مختفيًا على قتل قتيل أو عليه دم يظهر وعليه أمان الله». وأهم ما حدث آنذاك فى ذى الحجة ٩٢٢هـ «عرض السلطان الزعر بالوطاق فاجتمع منهم الجم الغفير فأوعدهم السلطان أنه إذا قاتلوا عسكر ابن عثمان بقلب وانتصروا عليهم ينفق على كل واحد منهم عشر أشرفية وينعم على كل واحد منهم بسيف وترس ورسم للأمير انصباى أمير آخور كبير بأن يصلح بين زعر الصلبية وزعر المدينة.

وفى حوادث محرم ٩٢٣ هـ نادى طومان باى فى الناصرية وقناطر السباع للزعر والعياق بأن كل من قبض على عثمانى يقطع رأسه ويحضرها بين يدى السلطان.

ويبدو أن الزعر والصبيان الشطار والعياق قد استجابوا لدعوة طومان باى الأمر الذى جعل العثمانية بعد دخولهم القاهرة «طفشت فى العوام والغلمان من الزعر» هكذا ذكر ابن إياس، وفى بدايات الحكم العثمانى «صار الزعر والغلمان ينهبون البيوت فانطلق فى أهل مصر جمرة نار».

ومرة أخرى وفى رمضان ٩٢٤هـ «لما شق خاير بك القاهرة ضجت إليه العوام من قلة الخبز فى الأسواق وانطلقت ألسن العوام فى حق ملك الأمراء بالكلام الفج وقالوا له انظر فى أحوال المسلمين نور الله تعالى ألا يصير ذلك فى ذمتك فتنكد ملك الأمراء فى ذلك اليوم إلى الغاية».

وفى رمضان ٩٢٨هـ «حصل له خاير بك غاية البهدلة من الناس».

حفل العصر العثمانى بتحركات العوام أو الرعية وتظاهراتهم المتوالية والمستمرة والتى لم تنقطع، التحم أولاد البلد مع أولاد القرافة، الأوباش مع الحرافيش، حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية مع غوغاء العامة، اختلط الحابل بالنابل خاصة فى فترات المجاعة والغلاء، تزايدت الدعوة إلى عزل بعض الولاة الباشوات رجم البعض منهم بالحجارة، وهتف ضدهم ورجمت كذلك بيوت بعض الأمراء، نودى بالعدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع.

والذى لاشك فيه أن العقد الأخير من القرن الثامن عشر والعقد الأول من القرن التاسع عشر قد شهد الزخم المتتالى لمسار حركة العوام شاركهم بعض من هذه الجماعات الهامشية والتى لعبت دورًا لا يستهان به خاصة فى فترة التواجد الفرنسى على أرض مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١.

ويحق لنا أن نسمى هذا الدور «دور المشاركة العامة» ذات الطبيعة الاقتصادية - السياسية. وإذا كانت جماعات من المتلصصة قد انتهزت فرصة الأحداث والأزمات التى مرت بها البلاد وقامت بأعمال نهب وسلب، خاصة وأن الجريمة تزداد إبان هذه الفترات. فيحق لنا أن نقول إن ثمة جماعات من هؤلاء، بوصفهم لصوص ظرفاء، قد تجاوزوا هذا الحد القائم على السرقة أساسًا بمراحل ونالهم ما نال العامة أساسًا من هموم وآمال.

وإذا كانت هذه الدراسة لا تهدف بتاتًا إلى رصد تحركات العوام فى مصر العثمانية. فإنها ترصد البعض القليل منها بدرجة تأثيرها وإيقاعها على دور هذه الجماعات الهامشية ومشاركتها وبحيث يمكن تقرير ما بين تحركات العوام ومشاركة الجماعات الهامشية التى تعتمد على اللصوصية من اتصال.

الأزمة الاقتصادية - السياسية درست بشكل مفصل فى بعض الكتابات التاريخية توالى الأوبئة والمجاعات وما ترتب عليها من الغلاء أدت إلى التحام العامة بفئات مهمشة وخاصة الشحاتين والفقراء.

لنتذكر بعض ما ذكر مسبقًا وما يمكن أن يضاف لتوضيح هذه الصورة، ففى أكثر من عهد لبعض الولاة توالت الشدائد، ويذكر شاروبيم فى أكثر من موضع مثل هذه النماذج[٣]:

فى ولاية حسن باشا جانبلاط وقع فى أيامه غلاء عظيم وارتفعت الأسعار واشتد الحال على الفقراء حتى «أكلوا الميتة وجذور الأشجار وطافوا فى الشوارع يتخطفون الخبز من الأفران ويرجمون بيوت الأمراء بالأحجار ويصيحون يضجون».

فى ولاية حسن باشا السلحدار وقع الغلاء بمصر وامتنع الوارد من الغلال إلى القاهرة، ضج الفقراء وطافوا بالأزقة والحارات يتساءلون وصاروا يتخطفون ما يجدونه من الخبز فى الأفران وفى الدكاكين.

فى عهد على باشا قلج كانت أيامه كلها شدائد وقع فيها غلاء شديد، السواد الأعظم وقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع واستغاثوا، خطف الأهالى الخبز من الأسواق ومن الأفران والذى على رءوس الخبازين مع ندرته فكان يذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيديهم العصى حتى يخبزوه.

ألم يتحدث بعض المؤرخين على أنه قد أتى على مصر فصل الشحاتين - الهبا - الشراقى الكبير والذى يسمع «بفصل له ثلاثة أسماء إلا هذا»(٤). ووصف بعضهم سنة «١١٠٧ هـ - ١٦٩٥ - ١٦٩٦» بقوله: «كانت سنة الله لا يعودها على أمة محمد».

هذه السنوات «السواد» والتى هتف ببعضها العامة(٥):

سنتك يا قطامش سوده — سنتك يا قطامش نجعة

قطعت الحاج فى الرجعة — سنتك يا قطامش سوده

قطعت الحاج بالعودة

هى سنوات شهدت تجمع «أولاد مصر»(٦). على حد قول أحمد الدمرداشى «فى عهد رجب باشا ١١٢٥ - ١١٢٦هـ، ١٧٢٠ - ١٧٢١م» ورعاع الخلق من الرعايا»(٧). على حد قول يوسف الملوانى والذى يضيف أنه قد حصل لهذا الباشا «رجب باشا» احتقار لم يحصل لغيره من الباشوات» وأنه «لم يقدر على المقاومة لشدة ما ناله من الأذية البالغة ومشافهة أهل إسماعيل بك الدفتردار - الذى قتله الباشا - بالمسبة والقول القبيح حتى صاروا يغروا عليه الغوازى من النسا يغنون عليه ويقولون كلامًا قبيحًا من جملته: «باشا يا باشا يا وش القملة.. من قال لك يا معكوس تعمل دا العملة».

ورغم نزول هذا الباشا «فى الضلمة» هو والقاضى إلا أن الرعاع من الرعية انتظرته وصفقت عليه وناولته بالألفاظ القبيحة، وكما يؤكد أحمد شلبى بن عبدالغنى فى موضع آخر «أن رجلاً من الرعية أتى قدام القاضى وقال له: يا شيخ الإسلام، أنت الذى جيت لمصر تجدد لأهلها دينها؟ حريم إسماعيل بك دفتردار مصر الشبرخيتى كانت لديهم حزازة منه كونه أن قتل سيدهم فصاروا يحضرون الغوازى ويعطونهم الفلوس ويقولون لهم: قولوا كلامًا على الباشا فبقوا يتكلمون على الباشا كلامًا قبيحًا لا يليق بالوزراء من حجة قولهم له:

يا باشا يا باشا يا وجه القملة   من قلة عقلك يا باشا تعمل دا العملة[٨]

فى ثلاثينيات القرن الثامن عشر تكررت صورة رجم بعض الولاة عند قدومهم إلى مصر بالحجارة، هم ومن معهم قاموا فى وجه «محمد باشا السلحدار عام ١٧٣١م» وشكوا له من المعاملة وغلو الأسعار، عندما فزع عليهم الوالى ضربه الرعية بالطوب. وكما يذكر أحمد شلبى بن عبد الغنى»[٩]. جاءت ضربة فى فخذ الباشا، كذلك قاموا فى وجه «عثمان باشا عام ١٧٣٣» ورجموه وتكرر الحال بالنسبة «لباكير باشا عام ١٧٣٥».

هى فترة شهدت ظاهرة متكررة قيام الرعية وغوغاء العامة بالهجوم على الجامع الأزهر وأبطالهم الدروس والأذان والصلوات أحيانًا وصعودهم إلى المنارات يدعون ويتضرعون، حدث ذلك أكثر من مرة على سبيل المثال:

فى فترة ولاية محمد باشا النشنجى «١١٣٧ هـ - ١٧٢٤م» قامت الرعية وقفلت حوانيتها ونهبت أسواق القاهرة وهاجمت الجامع الأزهر على العلماء وهم فى الدروس، ووقع الضرب فى الجامع من الرعية. ثم أنهم نزلوا الرميلة إلى بيت جركس وبقيت بين العسكر «بين العزب وجركس» فقصدوا القرافة وباتوا طوال ليلتهم يدعون الله بالعفو ويدعون على جركس وطايفته، وطلع الناس على المنارات يدعون الله بالعفو عنهم والدعاء على جركس، أو لليلة وثانى ليلة إلا المنارات التى بجوار بيت جركس فلم يطلع عليها أحدًا، ثم أن جركس كتب مراسلة إلى القاضى يأمره بعدم طلوع المنارات وطلبهم من الله، وكان دعايهم فوق المنارات:

«يا من له المراد، فى كل ما أراد، بجاه مصطفى الحبيب، تعفو عن البلاد»(١٠).

فى أحداث عام ١٧٧٧ يذكر الجبرتى «بعض مجاورى المغاربة تبعهم بعض العوام وبأيديهم العصى والمساوق وضربوا أتباع الأغا ورجموه بالأحجار» وأنهم «أبطلوا الدروس والأذان والصلوات وقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة، وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء»(١١).

مع غلاء الأسعار وعندما طلبوا منهم مغارم لجوامك العسكر ١٨ صفر ١٢١٩هـ - ٢٩ مايو ١٨٠٤م» اجتمع الكثير من غوغاء العامة والأطفال بالجامع الأزهر ومعهم طبول وصعدوا إلى المنارات يصرخون ويطبلون وتحلقوا بمقصورة الجامع يدعون ويتضرعون ويقولون «يا لطيف»(١٢).

ولعلنا نتذكر مواقف حرافيش القاهرة، العوام، أولاد البلد من العسكر العثمانية وبعض الأغوات وظلم أمراء المماليك فى تسعينيات القرن الثامن عشر وقبيل مجىء حملة بونابرت إلى بر مصر، لعلنا نتذكر فى «١٦ يوليه ١٧٩١» عندما نودى على طائفة القليونجية والأرنؤوط والشوام بالسفر ولا يتأخر أحد وعندما اجتمع منهم طائفة وذهبوا إلى الباشا أرسل معهم شخصًا من الولاة أنزلهم إلى بولاق فى المراكب «وصار أولاد البلد والصغار يسخرون بهم ويصفرون عليهم بطول الطريق»(١٣).

وموقفهم من تعدى وظلم أحمد أغا الوالى على أهل الحسينية «١٢٠٥هـ» وإيذاء الناس وأخذ المال ونهب البيوت. الأمر الذى أدى إلى عزل هذا الوالى، وقد لعب الشيخ العروسى دورًا أثناء هذا الوقت.

نتذكر هؤلاء الذين ساروا فى ركاب الشيخ أحمد الدردير وبأيديهم نبابيت ومساوق وصعدوا إلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول وبدءوا فى نهب بيوت الأمراء كما نهبوا بيوتهم وبتحريض من هذا الشيخ على النهب «ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم» حتى صار للشيخ حسن الكفراوى الذى تزوج ببنت أحد الجزارين بالحسينية» نجد ومنعة على من يخالفه أو يعانده ولو من الحكام».

ولعلنا نتذكر أحداث «ذى الحجة ١٢٠٩ هـ ـ ١٩ يونية ـ ١٧ يونيه ١٧٩٥» والتى انتهت بإقرار «الحجة» الشهيرة والتى لعب فيها الشيخ السادات دورًا لا يستهان به عندما ظلم أتباع محمد بك الألفى بعض الأهالى، وطلبوا منهم ما لا قدرة عليه، تظاهروا واجتمع عليهم خلق كثير من العامة والحرافيش وتبعوهم إلى بيت الشيخ السادات، وعندما أرسل لهم إبراهيم بك أيوب بك الدفتردار يسألهم عن مرادهم قالوا له «نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها واحدثتموها» فقال لهم «لا يمكن الإجابة إلى هذا كله فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات»(١٤).

فى زمن الحملة الفرنسية لعبت بعض هذه الجماعات خاصة طوائف الجعيدية وزعر الحارات البرانية دورًا لا يستهان به، ولعلنا نعيد تذكار ما فعله الجعيدية من عمليات نهب فى الأيام الأولى من نزول الفرنساويين إلى القاهرة وكيف أنه قد تم القبض على شيخ الجعيدية ومعه آخرون أطلق عليه الرصاص رميًا ببركة الأزبكية والرميلة، وكيف أدان أرباب الديوان نهب البيوت أمام بونابرت بقولهم فى «١٣ صفر ١٢١٣ ـ ٢٧ يوليه ١٧٩٨»: هذا فعل الجعيدية وأوباش الناس»(١٥).

وفى الثورات التى اندلعت آنذاك كان هؤلاء من أهم دعائمها. ففى ثورة القاهرة الأولى «٢١ أكتوبر ١٧٩٨ ـ ١١ جمادى الأولى ١٢١٣هـ» يذكر الجبرتى(١٦)»: حضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهو جسيم ويقولون بصياح فى الكلام «نصر الله دين الإسلام».

ويتحدث الجبرتى عن المناشير الملصوقة بالشوارع والأسواق والتى حذرت من أفعال هؤلاء الجعيدية والأوباش «كتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ وأرسلوها إلى البلاد ـ أنه حصل بعض خلل فى مدينة مصر المحروسة من طرف الجعيدية وأشرار الناس فحركوا الشرور بين الرعية والعسكر الفرنساوية»(١٧).

وأثناء ثورة القاهرة الثانية «٢٤ شوال ١٢١٤ هـ - ٢٠ مارس ١٨٠٠م» خرج «الأوباش والحرافيش والأطفال ولهم صياح ونباح وتجاوب بكلمات «الله ينصر السلطان ويملك فرط الزمان»(١٨).

فى هذه الثورة كان تآلف «أولاد القرافة والعامة وزعر الحسينية»(١٩). نموذجًا فريدًا للمقاومة، اتضح من خلال تجمعهم عند باب النصر، وفى نفس الوقت الذى كان فيه كل حرفوش يقطع رأسًا من رءوس الفرنساوية، كان يذهب بها إلى قائد المقاومة لأجل أخذ البقشيش، كانت توجه ضربات إلى بعض المشايخ والعلماء الذين والسوا الفرنساوية، أوذيت كرامتهم و«مسح ببعضهم الأرض» كما يقال فى الكنايات العامية المصرية، خاصة وأن بعض هؤلاء قد أدان رسميًا» الأعمال التى قام بها الجعيدية والزعر.

يتم الالتحام مرة أخرى بين «أولاد القرافة» و «أولاد البلد» فى الثورة العارمة التى اندلعت بالقاهرة بعد خروج الفرنساوية «ثورة ١٢١٨هـ - ١٨٠٤» والتى كان من أبرز قياداتها حجاج الخضرى وابن شمعة شيخ طائفة الجزارين «اللذان اشتهرا بالفتونة»، فعندما شرعوا فى «٢٤ ذى القعدة ١٢١٨هـ - ٦ مارس ١٨٠٤م» عمل فِردة وشرعوا فى كتابة قوائم لذلك ووزعوها على العقار والأملاك أجرة سنة يقوم بدفع نصفها المستأجر والنصف الثانى يدفعه صاحب المِلك نطقت أفواه الناس بقولهم «الفِردة بطالة» وفى «٢٥ ذى القعدة ١٢١٨هـ - ٧ مارس ٢١٨٠» ضج الفقراء والعامة والنساء وخرجوا طوائف يصرخون وبأيديهم دفوف يضربون عليها، ويندبن وينعين ويقلن كلامًا على الأمراء مثل قولهن «ايش تأخذ من تفليسى يا برديسى» وصبغن أيديهن بالنيلة وغير ذلك فاقتدى بهن خلافهن وخرجوا أيضًا ومعهم طبول وبيارق»(٢٠).

ومن أمتع ما كتبه نقولا ترك عن أحداث ذلك الزمان:

«فى خامس يوم من شهر جماد آخر سنة ١٢١٨ بدأ يقل وجود الحنطة فى المحلات والمواد والمواضع التى تباع فيها، وبدأ يقل وجود العيش فى الأسواق ودكاكين الخبازين، وسبب ذلك أن السناجق والكشاف ابتدوا يشترون الحنطة

الواردة من الصعيد ويخزونها، وبعضهم كانوا كلما حضر مركب من الصعيد ملئوا حنطة فكانوا يضعون أيديهم عليه ويأخذونه من غير ثمن ولا أعطى حقًا وكان بذلك كرب عظيم، وكانت النساء والأولاد الفقراء والمساكين حينما يرونهم يأخذون الحنطة والفول والشعير يخزنونه أمام أعينهم وهم لا يقدروا أن يشتروا يرجعوا فى قففهم وزنابيلهم خايبين الأمل فكانوا يدعون عليهم ويشتمونهم فى وجوههم ويقولو لهم ياليتكم ما دخلتم بالسلامة إلى مصر جيتم لكى تهلكونا من الجوع، وتحجزوا عنا القوت وتتركونا نموت فانشا الله لا ننهبه إلا من بيوتكم ولا نأكله إلا من بعد موتكم، وكانت الغز تسمع هذه الشتايم والمسبات ويصمون آذانهم ولا يلوون عنانهم، وكانت قلوبهم قاسية جدًا على الرعايا والسبب فى ذلك أن رعايا القطر المصرى هم كثيرون فى العدد وقليلون فى الجلد، وسريعون فى الميلان وألسنتهم مرة وألفاظهم مضرة يخافون ولا يستحون وكانوا يكرهون دولة المماليك طبعًا وكانت الغز تعلم ذلك، فلهذا السبب كانوا يتمنون لهم المضرة والوقوع فى المهالك»(٢١).

ومع تعدى طوائف العسكر وازدياد المظالم والفرد وقبض مال الميرى المعجل وحق طرق المباشرين ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة، انضمت بعض جحافل هذه الجماعات الهامشية الفقيرة إلى تحركات العوام وأصحاب الحرف والطلاب والعلماء، كانت صرخات هؤلاء المدوية أمام بيت القاضى فى أحداث «١٢ صفر الخير ١٢٢٠ هـ ـ ١٢ مايو ١٨٠٥»(٢٢) حيث ركب المشايخ إلى بيت القاضى واجتمع به الكثير من المتعممين والعامة والأطفال حتى امتلأ الحوش والمقعد بالناس وصرخوا بقولهم:

شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم.

ـ يا لطيف

ـ يارب ما متجلى

أهلك العثملى

حسبنا الله ونعم الوكيل

الذى لاشك فيه تاريخيًا أن تحركات «العوام» هذه لم تكن بأى حال من الأحوال بعيدة عن تلاحم جماعات هامشية بهم بعضها وجد فى التظاهر متنفسًا له والبعض الآخر وجد فى النهب والسلب وسيلة من الوسائل لدفع الفاقة والحرمان عنهم، هؤلاء هم الذين وصفوا آنذاك بأوصاف أسافل وأراذل العامة وأوباش وأوغاش الناس.

هذا ما أكده الجبرتى فى أكثر من موضع من عجائبه، على نحو ما حدث فى غرة رمضان ١١٩٩هـ (٨ يونيه ١٧٨٥):

«ثار فقراء المجاورين والقاطنين بالأزهر وخرج العميان والمجاورون يرمحون بالأسواق ويخطفون ما يجدونه من الخبز وغيره وتبعهم فى ذلك الجعيدية وأراذل السوقة».

هوامش وإحالات الفصل التاسع

(١) انظر: محمد نور فرحات (د): المجتمع والشريعة والقانون، ص١٨٣ وكذلك دراسة أحمد صادق سعد: تاريخ العرب الاجتماعى. تحول التكوين المصرى من النمط الأسيوى إلى النمط الرأسمالى (ص ص١٥٩ ـ ١٦١، ص ٢٠٣) حيث يتحدث عن دور هذه الجماعات فى إطار تحركات العوام منذ بدايات العصر العثمانى وخاصة الدور الذى قام به الزعر فى معاونة الوالى أحمد باشا (الخائن عام ١٥٢٤. إلى تحركاتهم فى ظل انتفاضات ١٦٣٥، ١٦٧٧، ١٦٧٨، ١٦٨٧، ١٦٩٤، ١٧١٦، ١٧١٨، ١٧٢١، ١٧٨٦، ١٨٢٤، ١٨٢٥، ١٨٣١، وصولاً إلى دور هذه الجماعات التى أطلق عليها البعض (الكتلة النكرة) قبيل وأثناء الحملة الفرنسية وبصفة خاصة ذكر أحداث نجاح زعر الحسينية عام ١٢٠٩ هـ فى عزل أحمد أغا صاحب الشرطة ومشاركة الجعيدية والزعر فى أحداث عام ١٢٠٩ فى تلك الانتفاضة الشهيرة احتجاجًا على مظالم المماليك والتى انتهت بكتابة الحجة.
وكذلك دراسة الدكتور محمد رجب النجار حول (حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى) والذى خصص صفحات (١٧٨ ـ ٢٢٩) لدراسة (فتوة الحرافيش والزعار والعياق فى مصر) والذى ركز على دورها الوطنى البطولى وبصفة خاصة زمن الحملة الفرنسية.

(٢) بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الخامس، صفحات: ٦٩، ١٢٦، ٢٧٩ ـ ٢٨٠، ٣١٧ ـ ٣١٨، ٤١٦، ٤٦٦.

(٣) ميخائيل شاورببيم بك: الكافى، الجزء الثالث، ص ٩٨، ص١٠١، ص١٠٤.

(٤) أحمد شلبى بن عبد الغنى: أوضح الإشارات، ص١٩٨.

(٥) أحمد الدمرداشى كتخدا عزبان: كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة، ص ٧٧.

(٦) المرجع السابق، ص ١٤١.

(٧) يوسف الملوانى: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب دراسة وتحقيق: عماد هلال ـ عبد الرازق عيسى، العربى للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٩، ص ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

(٨) أحمد شلبى بن عبد الغنى: مرجع سابق، ص ٣١٥.

أشير إلى أهمية الدور الذى لعبته (الغوازى) فى الحياة العامة فى مصر العثمانية، علينا أن نتذكر

ما ذكره ابن إياس فى بدائع الزهور عن صورة قاضى عسكر الذى أتى إلى مصر واتخذ بعض الإجراءات الصارمة منها منعه خروج النساء من المنازل، وعندما خرج من مصر غنت (الغوازى) هذا المقطع:

قوموا بنا نقحب ونسكر   قد خرج عنا قاضى عسكر

(٩) المرجع السابق، ص ٥٧٦، ص ٥٨٨، ص ٥٩٥.

(١٠) المرجع السابق، ص ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

(١١) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار، الجزء الثانى، ص١٢.

فى هذا الجزء الثانى (ص ص ١٣٤ ـ ١٣٥) يتحدث الجبرتى عن أحداث غرة رمضان ١١٩٩ هـ (٨ يوليه ١٧٨٥) عندما ثار فقراء المجاورين والقاطنين بالأزهر وخرج العميان والمجاورون يرمحون بالأسواق ويخطفون ما يجدونه من الخبز وغيره وتبعهم فى ذلك «الجعيدية وأراذل السوقة».

(١٢) المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ٤٦٦.

أشير إلى أهمية الدور الذى لعبته مآذن ومنارات الجوامع فى الحياة السياسية والاجتماعية لمصر العثمانية ويكفى هنا أن نذكر القارئ بما كتبه عبد العزيز البشرى «تقاليد الفن فى مصر» من كتاب (قطوف «٢») الطبعة الأولى، ديسمبر ١٩٤٧، ص ص ٩٥ - ١٠٠:

(أهازيج السحر التى تتقدم أذان الفجر، وهى أناظيم فيها استغفار وفيها تشفع بالنبى صلى الله عليه وسلم وفيها توسل بآل بيته تسليمات الله عليهم ويدعوها العامة الأوله، هذه كان لها فى القاهرة تقليد جميل.. مما يؤكد على أن أهل مصر أو سكان القاهرة على الأقل كانوا أصحاب فن وأهل ذوق وعشاق تطريب: «حدثنى الثقات الصادقون من مشيخة القارئين أن جميع مؤذنى المساجد فى القاهرة كانوا إذا ظهروا المآذن للهتاف بالأولى أو الأوّله وقفوا وقد أرهفوا آذانهم وعلقوا أنفاسهم فى انتظار الأمر الذى يصدر إليهم عن مئذنة الشيخ صالح أبى حديد بالنغمة التى يجرون فيها الأهازيج لليلتهم فإذا جلجل مؤذن الشيخ صالح بنغمة الرصد مثلاً، أسرع مؤذنو المساجد حوله بالصياح بها وأخذ أخذهم مجاوروهم ومن تقع للأسماع أصواتهم وهكذا فلا تمضى دقائق إلا والقاهرة كلها تجلجل بنغمة الرصد وإذا بدءوا بالبياتى أو بالحجاز أو بالسيكاه.. إلخ» فهكذا وما شاء الله كان).

(١٣) عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار، الجزء الثانى، ص٣٠٢.

(١٤) المرجع السابق، ص ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(١٥) المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ١٦.

(١٦) عبد الرحمن الجبرتى، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، ص ٦٨.

(١٧) المرجع السابق، ص ٧٨.

(١٨) عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار، الجزء الثالث، ص ١٥٧.

(١٩) عبد الرحمن الجبرتى، مظهر التقديس، ص ١٧٣.

(٢٠) عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار، الجزء الثالث، ص ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤.

يصف الجبرتى البرديسى (عجائب الآثار، الجزء الرابع، ص ٦١) بأنه كان ظالمًا شوما طائشا سيئ التدبير وقد أوجده الله جل جلاله وجعله سببًا لزوال عزهم ودولتهم واختلال أمرهم.

(٢١) راجع: مذكرات نقولا ترك، نشرها جاستون فييت، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٠، ص ١٥٤.

(٢٢) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار، الجزء الثالث، ص ٥٢٠.

ملاحق الدراسة

الملحق الأول

أسطر عن الزعر والصبيان الشطار والعياق ومحاولة نشل في السنوات الأولى من مجئ ابن عثمان مصر (١٥١٧م)

محمد بن أحمد بن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الـدهور، الجـزء الخامس، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامـة للكتـاب، القاهـرة ١٩٨٤، صفحات: ١١٩-١٢٠، ١٤٠-١٤١، ٢٧٣.

وفى يوم الأربعاء تاسعه حضر دوادار خاير بك نائب حلب وزعم أنه قد فرّ من
ابن عثمان ، فأخبر أن ابن عثمان أرسل عسكرا نحو خمسة آلاف فارس صحبة ابن سوار
٣ وقد أشرفوا على أخذ مدينة غزة ، بل أشاعوا أخذها ، وأن نائب غزة قد هرب .
فاضطربت الأحوال لهذه الأخبار وتنكد السلطان إلى الغاية ، ونادى فى ذلك اليوم
بأن العسكر المعيّن للسفر ممن أخذ النفقة يخرجون فى ذلك اليوم من غير تأخير ، ومن
٦ تأخر لا يسأل ما يجرى عليه . — فلما كان يوم الخميس عاشره خرج العسكر على
وجوههم مسرعين ، وأشيع سفر السلطان بنفسه وأنه هو الذى يلاق ابن عثمان ،
وصحبته الأمراء قاطبة وسائر العسكر . وحضر صحبة دوادار نائب حلب أمير كبير
٩ غزة وهو فى الحديد ، وجماعة من أجناد الحلقة بغزّة وهم فى الحديد ، وأرسل نائب
غزة يرافع فيهم بأنهم كاتبوا ابن عثمان بأن يحضر إلى غزّة ويملكها من غير مانع .
فلما حضروا بين يدى السلطان حلفوا له أن هــذا الأمر ما وقع منهم ولا كاتبوا
١٢ ابن عثمان وإنما دولات باى نائب غزة بينه وبين أجناد غزة حظ نفس، فكذب عليهم
بهذه التهمة (٦٢ ب) الباطلة ، فصدّقهم السلطان على ذلك . وأرسل جان بردى
الغزالى نائب الشام يشفع فيهم ويبرّئهم مما قالوه فى حقهم بالباطل ، ففكّهم السلطان
١٥ من الحديد وأرسلهم إلى نقيب الجيش حتى يتبصّر فى أمرهم . — وفى يوم الخميس المقدم
ذكره أخلع السلطان على الأمير يوسف البدرى الذى كان وزيرا وقرّره ناظر الذخيرة
الشريفة ووكيل بيت المال ، عوضا عن الزينى بركات بن موسى بحكم انفصاله عنها .
١٨ وفى يوم الجمعــة حادى عشره تزايد أمر الإشاعات بأن ابن عثمان أرسل إلى غزة
عسكرا صحبــة جماعة من أمرائه ، منهم شخص يسمى إسكندر باشاه وآخر يسمى
داوود باشاه ، وآخرون من أمرائه ، وأشيع بأنهم قد ملــكوا مدينة غزّة وأحرقوا
٢١ منها بعض بيوت ، وأن نائب غزة هرب ، وعسكر ابن عثمان زاحف على مصر ،
وأن الأحوال غير صالحة . فلما تحقق السلطان [من] هذه الأخبار أشيع أنه يخرج إلى
لقاء ابن عثمان بنفسه ، ونادى فى ذلك اليوم بأن الزعر والصبيان الشطّار والمغاربة

(٥) يخرجون : يخرجوا .

وكل من كان مختفيا على قتل قتيل أو عليه دم يظهر وعليه أمان الله والعرض لهم
فى الميدان ، وأن السلطان يصرف لهم الجوامك والمركوب، ويكونون صحبة الزردخاناه
إذا سافر السلطان . فلم تعجب الناس هــذه المناداة لقوله : ولو كانوا قد قتلوا القتلاء ٣
يظهرون وعليهم أمان الله ، فكان السكوت عن هذا أجمل . فاضطربت الأحوال
فى ذلك اليوم وارتجت القاهرة وخرج العسكر المعيّن للسفر على وجوههم مسرعين . —
وفى ذلك اليوم خرج الأمير خُدابردى الأشرفى أحــد المقدّمين الذى كان نائب ٦
الإسكندرية ، فخرج فى موكب حفل بغير طلب ، وقدّامه الجنايب الحربية ، وصحبته
الجمّ الغفير من مماليكه ، وقيــل كان عنده نحو ثلاثمائة مملوك ، فارتفعت الأصوات
(٦٣ آ) بالدعاء من الناس قاطبة للعسكر بالنصر على ابن عثمان ، وقد صارت الناس ٩
فى وجل بسبب ابن عثمان .

وفى يوم السبت ثانى عشره جلس السلطان على التكّة بالحوش وحضر الأمراء ،
فاستحثّهم السلطان على أن يخرجوا كلهم فى ذلك اليوم فقال الأمير طُقطباى حاجب ١٢
الحجّاب : أنا عزمت على السفر إلى البحيرة . وكان السلطان جعله متحدّثا فى كشوفية
البحيرة ، فقالوا الأمراء : الخروج إلى قتال ابن عثمان أوجب من البحيرة وأنت
ما خرجت صحبة السلطان الغورى لما سافر ولا نُهب لك رك ولا قاش . فتعلّل أنه ١٥
ضعيف ، فحصل بينه وبين الأمراء فى ذلك اليوم تشاجر عظيم بحضرة السلطان ،
وقصد المماليك الجلبان أن ينزلوا ينهبوا بيته ويحرقوه ، وقيل إن بعض المماليك لكمه ،
وقاسى من البهدلة ما لا خير فيــه ، فتقرر الحال على أنه يخرج إلى التجريدة صحبة ١٨
الأمراء ، ومنع السلطان المماليك من نهب بيته . — وفى ذلك اليوم نادى السلطان
للعسكر بالعرض قاطبة .

وفى ذلك اليوم خرج قايتباى نائب حماة الذى قرر بها عوضا عن جان بردى الغزالى، ٢١
فخرج بطلب حربى . — وفى ذلك اليوم خرج الأمير أرزمك الناشف أحد المقدّمين
وطلّب طُلبا حربيا ، وكان قدّامه جنايب وطبلان وزمران وعلى رأسه صنجق ،

(٢) ويكونون : ويكونوا (٤) يظهرون : يظهروا

هذه السنة توفى الشهابى أحمد بن الأمير أسنبغا الطيارى رأس نوبة النوب كان ، وكان الشهابى أحمد من أعيان أولاد الناس الرؤساء ، وكان حشما ريسا لا بأس به ، ومات وله من العمر ما قارب التسعين سنة ، وكان من المعمّرين فى الأرض .

وفى يوم الخميس ثانى عشره وردت الأخبار بأن ابن عثمان قد خرج من غزّة ، وأن أوائل عسكره قد وصل إلى العريش . وأشيع أن السلطان رسم بحفر خندق من سبيل علان إلى الجبل الأحمر وإلى آخر غيطان المطرية ، ثم إن السلطان نصب على ذلك الخندق الطوارق والمكاحل معمّرة فيها بالمدافع ، وصفّ حولها العربات الخشب التى صنعها بالقلعة كما تقدّم ذكر ذلك ، ثم إن السلطان رسم للأمير ماماى الصغير المحتسب بأن ينادى فى القاهرة للسوقة وأرباب البضائع (٧٣ ب) من الزيّاتين والخبّازين والجبّانين واللحّامين بأن يتحوّلوا ببضائعهم إلى الوطاق عند تربة العادل ، وينشئوا هناك سوقا ويبيعوا على العسكر الذى هناك . ثم إن السلطان رسم للوالى بأن ينادى فى القاهرة للعسكر الذى تأخّر بأن يخرج إلى الريدانية ولا يتأخّر منهم أحد ، فنادت المشاعليّة فى الحارات والأزقة بأن المماليك السلطانية تخرج فى ذلك اليوم إلى الوطاق ، وكل من تأخّر منهم يشنق على باب داره من غير معاودة ، وجعل يكرّر المناداة فى ذلك اليوم مرتين ، فإنه قد بلغ السلطان أن جماعة من المماليك السلطانية صاروا يتوجّهون إلى الوطاق فى باكر النهار حتى ينظرهم السلطان ثم يرجعون إلى بيوتهم ويباتون بها ، فشقّ ذلك على السلطان وحجر عليهم بأن يباتوا بالوطاق فى كل ليلة .

وفى يوم الجمعة ثالث عشرينه وردت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان قد وصل أوائله إلى قطيا ، فاضطربت أحوال الناس لذلك . — وفى يوم السبت رابع عشرينه عرض السلطان الزعر بالوطاق ، فاجتمع منهم الجمّ الغفير ، فأوعدهم السلطان أنه إذا قاتلوا عسكر ابن عثمان بقلب وانتصروا عليهم ينفق على كل واحد منهم عشرة أشرفية ،

(٢) الرؤساء : الريسا . (١٥) فإنه : فإن .
(١٦) يتوجهون : يتوجهوا .(١٧) يباتوا : يباتون . (٢٢) وانتصروا : وانتصر .

وينعم على كل واحد منهم بسيف وترس ، ورسم للأمير أنصباى أمير آخور كبير
بأن يصلح بين زعر الصليبة وزعر المدينة . — وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان اهتمّ
٣ بعمل حائط يستر بها على المكاحل التى نصبها فى الريدانية ، وأشيع أن السلطان
جعل يحمل الحجارة بنفسه مع البنائين ، فلما رأوا العسكر أن السلطان حمل الحجارة
بنفسه ، فصارت المماليك يحملون الحجارة ويشيلون التراب مع الفُعلة فى حفر الخندق
٦ وعمل الحائط التى تستر (٧٤ آ) على المكاحل . — ثم وردت الأخبار بأن عسكر
ابن عثمان قد وصل إلى بلبيس .

وفى يوم الأحد خامس عشرينه حضر الأمير قانصوه العادلى الذى كان كاشف
٩ الشرقية ، وكان السلطان قد أرسله ليكشف أخبار عسكر ابن عثمان ، فلما وصل
إلى الصالحية رأى جماعة من عسكر ابن عثمان قد وصلوا إلى هناك ، فقبض على
شخصين منهم وحزّ رءوسهما وأحضر بهما إلى بين يدى السلطان ، وكان صحبة تلك
١٢ الرءوس شخص من أبناء حلب من جماعة خاير بك نائب حلب الذى خامر على
السلطان الغورى والتفّ على ابن عثمان ، فلما وقف بين يدى السلطان طومان باى
أخبره أن الواصل إليه خاير بك نائب حلب وصحبته ابن سوار وصحبته جماعة من أمراء
١٥ ابن عثمان ، وأن هذا الجاليش فيه من عسكر ابن عثمان ثمانية آلاف فارس وقد بطلت
خيولهم من التعب والجوع ، وأن الغلاء موجود فى عسكره . ووجدوا مع ذلك الرجل
الحلبى عدّة مطالعات من عند خاير بك نائب حلب إلى الأمراء المقدّمين الذين بمصر ،
١٨ فأخذ السلطان المطالعات الذى كانوا معه ووضع ذلك الرجل الحلبى فى الحديد .

وأشيع أن عسكر ابن عثمان لما دخل إلى بلبيس نادى لأهل بلبيس بالأمان
والاطمان ، وأن أحدا من العثمانية لا يشوّش على أحد من أهل بلبيس ولا ما حولها
٢١ من الضياع ، فدعوا له أهل بلبيس والفلاحين قاطبة . ثم أشيع أن عسكر ابن عثمان
قد وصل إلى المكرشة ، فلما تحقّق السلطان ذلك أراد أن يخرج بالعسكر ويلاقيهم
من هناك فلم تمكّنه الأمراء من ذلك ، ولو لاقاهم من هناك لكان عين الصواب ،

(١٧) الذين : الذى . (١٨) الذى كانوا : كذا فى الأصل

إلى بلده إسطنبول ، وهى القسطنطينية ، فكذّبهم الله تعالى فيما قالوه ، ودخلها وأقام بها أياما وبطلت أقوالهم الكاذبة ، فكان كما يقال :

٣ لا ترقب النجم فى أمر تحاوله ... فالله يفعل لا جدْى ولا حمل

مع السعادة ما للنجم من أثر ... فلا يضرّك مرّيخ ولا زُحل

وقيل بلغ الخندكار أن شاه إسمعيل الصوفى طرد عسكر ابن عثمان عن البلاد التى

٦ كان ملكها واستناب بها جماعة من العثمانية ، فطردهم الصوفى عن بلاده واستخلصها من أيديهم ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك (١٤١ ب) خرج من إسطنبول مسرعا وأقام بأدرنة حتى يرى ما يكون من أمر شاه إسمعيل الصوفى ، هكذا أشيع بين الناس ،

٩ والله أعلم بحقيقة ذلك . — وفى يوم الخميس ليلة الجمعة عشرين شهر رمضان صنع له الزينى بركات المحتسب مسايرة حفلة ، وركب معه جماعة من أعيان المباشرين ، فشقّ من القاهرة بعد صلاة العشاء بأربعين درجة وقدّامه أنكشارية وقوّاسة مشاة ،

١٢ وفوانيس ومشاعل كثيرة ، فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وارتفعت له الأصوات من العوام بالدعاء ، وكانت من الليالى المشهودة ، وارتجت له القاهرة فى تلك الليلة ، وكان محبّبا للناس قاطبة .

١٥ وفيه وقع من الحوادث أن شخصا من العثمانية كان فى خان الخليلى ، فقبض على شخص من العوام وزعم أنه قد سرق من جيبه أربعة أنصاف ، فلما قبض عليه طلع به إلى ملك الأمراء ، فلما أوقفه بين يديه وقصّ عليه قصّته وما فعله به فى خان الخليلى ،

١٨ وأنه قبض على يده وهى فى جيبه ، وأخذ من جيبه وهو ماش أربعة أنصاف ، فلما سمع ملك الأمراء ذلك رسم للوالى بأن يقطع يده ، فقطع يده وعلّقها فى رقبته وأشهره فى القاهرة ، فتأسّف الناس عليه كيف قطعت يده على أربعة أنصاف وقد راح ظلما .

٢١ وقد تقدّم لملك الأمراء أنه شنق شخصا على عيدان خيار شنبر سرقها من جنينة فى زقاق الكحل ، فشنقه على باب الجنينة وراح ظلما على عيدان خيار شنبر . وكان ملك

(١٨) ماش : ماشى .

الملحق الثانى

لا أسرع حركة من النشالين ولهم حكايات عجيبة فى النشل

الشيخ يوسف المغربى: دفع الأصر عن كلام أهل مصر، تحقيق الدكتور عبدالسلام عواد، دار النشر "العلم"، إدارة التحرير الرئيسية للآداب الشرقية، موسكو ١٩٦٨، ص ٢٠١.

يقولون في السب فلان نذل بالاهمال وانما هو نذل بالمعجمة
قال النذل والنذيل الخسيس من الناس المحتقر في جميع
احواله جمع انذال و نذول و نذلاء ونذال و نذل كرم نذالة
و نذولة انتهى وتقدم في مثل هذا الاسب ان يمثل بغير
[٥] كرم كان يقول و نذل كفصح قال النذل بعيد عن الكرم ولو نظفا
واما الندل بالمهملة فهو الوسخ ندلت يده كفرح ويقولون
منديل وللطيب مندل وكلاهما صحيح قال المنديل بالكسر
والفتح وكمنبر الذي يتمسح به وتندل به وتمندل تمسح ومندل
كمقعد الخف وبلد بالهند والعود او اجوده كالمندلي او
[١٠] هو منسوب الى البلد ويقولون فلان نشال للمختلس ولو
اي النشال في اللغة غير هذا قال نشال كشداد من ياخذ
حرف الجردقة فيغمسه في القدر فيأكله دون اصحابه انتهى
ويمكن ان يوخذ النشال بالمعنى المستعمل الان من نشل الشيء اسرع
نزعه والاسرع حركة من الفشالين ولهم حكايات عجيبة في النشل
[١٥] يطول شرحها وكذلك النشل المستعمل في اصطلاح التقاوي
يقولون فلان نطل في الصنعة عليه ولم يعلم قال ما ظفرت بناطل
اي بشي ونطل الخمر عصرها والنطلة بالضم الجرعة والنيطل هو
الرجل الداهية والطويل المذاكر فلعل مولم فلان نطل اصله
نيطل فحرف يقولون جعلت للسرموجة نعلا حديدا ولبس نعوا با
[٢٠] قال النعل ما وقيت به القدم من الارض كالنعلة وانتعل لبسها

وصبره

الملحق الثالث

النشال هو المختلس من اللصوص

محمد مرتضى الزبيدى: تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية بمنشأة بجمالية مصر المحمية سنة ١٣٠٦هـ، "مادة نشل"، ص١٣٦.

منها سلا وهو على حذف الجار أي نسل بها أو منها وإن شئت كان مثل ولدها ونسل الثوب عن الرجل سقط نقله الجوهري والنسولة كالحلوبة والركوبة ما يتخذ للنسل من الإبل والغنم نقله الجوهري والزمخشري وهو مجاز وقال أبو زيد النسولة من الغنم ما يتخذ نسلها يقال ما لبني فلان نسولة أي ما يطلب نسله من ذوات الأربع وعجيب من المصنف كيف أغفل هذا وقال اللحياني هو أنسلهم أي أبعدهم من الجد الأكبر وأنسل الرجل حان أن ينسل إبله وغنمه وبه فسر قول أبي ذؤيب

أعاشني بعدك واد مبقل ✱ آكل من حوذانه وأنسل

ويروى وأنسل والمعنى سمنت حتى سقط عني الشعر وذنب نسول سريع العدو قال الراعي

وقع الربيع وقد تقارب خطوه ✱ ورأى بعقوته أزل نسولا

والنسل محركة اللبن يخرج من الإحليل بنفسه نقله الجوهري وقال ابن الأعرابي يقال فلان ينسل الوديقة ويحمي الحقيقة ووقع في صدر كتاب الأربعين البلدانية للسلفي في وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم أكرم مرسل وأطهر منسل ورجل عسال نسال

(نشل) أي سريع العدو والنسل من أودية الطائف كما في العباب (كناشلة) أي بالسين والشين والشين أكثر واقتصر عليه الجوهري ونقل أبو تراب عن بعض الأعراب نقذ ما شلة بهذا المعنى وقد تقدم (وقد نشلت نشولا) وكذلك الساق وقال بعضهم إنها لمشولة اللحم (ونشل الشيء) ينشله نشلا (أسرع نزعه) ومنه الحديث فأخذ بعضده فنشله نشلات أي جذبه جذبات كما يفعل من ينشل اللحم من القدر (و) نشل (المرأة) ينشلها نشلا (جامعها و) نشل (اللحم ينشله وينشله) من حدي ضرب ونصر (وانتشله انتشالا (أخرجه من القدر بيده بلا مغرفة) وفي الصحاح انتزعه منها وفي الحديث أنه مر على قدر فانتشل منها عظما أي أخذه قبل النضج (فهو نشيل) كأمير (ومنتشل) وقال أبو حاتم ولا يكون من الشواء نشيل إنما هو من القدير وقال الشاعر

ولو أني أشاء نعمت بالا ✱ وباكرني صبوح أو نشيل

(أو) نشل اللحم ينشله نشلا (أخذ بيده عضوا فتناول ما عليه من اللحم بفيه) وهو النشيل (و) النشيل (كأمير ما طبخ من اللحم بغير تابل) يخرج من المرق وينشل قاله الليث (والفعل كالفعل) قال لقيط بن زرارة

ان الشواء والنشيل والرغف ✱ والقينة الحسناء والكأس الأنف ✱ للضاربين الهام والخيل قطف

(و) النشيل (اللبن ساعة يحلب) وهو صريف ورغوته عليه قاله أبو زيد وأنشد

علقت نشيل الضأن أهلا ومرحبا ✱ بحالي ولا يهدي لخالك محلب

وقد نشل (و) النشيل (السيف الخفيف الرقيق) نقله ابن سيده قال وأراه من النشول وهو ذهاب لحم الساق (و) النشيل (الماء أول ما يستخرج من الركية) قبل حقنه في الأسقاق قال الأزهري هكذا سمعته من الأعراب قال ويقال نشيل هذه الركية طيب فإذا احقن في السقاء نقصت عذوبته (والمنشلة المستحب تفقدها في الطهارة) هو (ما تحت) حلقة (الخاتم من الإصبع) عن الزجاجي وفي الصحاح موضع الخاتم من الخنصر سميت بذلك لأنه إذا أراد غسله نشل الخاتم أي اقتلعه ثم غسله ويقال تفقدوا المنشلة إذا توضأت (وقول الجوهري وهو في الحديث وهم وإنما هو في كلام بعض التابعين) قال شيخنا وكونه في كلام بعض التابعين لا ينافي أنه حديث لا سيما وقد صرح بأنه حديث أكثر أئمة الغريب ابن الأثير وغيره انتهى ✱ قلت وقد جاء في حديث أبي بكر رضي الله تعالى عنه قال للرجل في وضوئه عليك بالمنشلة (والمنشال) بالكسر (حديدة) في رأسها عقافة (ينشل بها اللحم من القدر كالمنشل) والجمع مناشل (و) منشال (فرس حجر بن معاوية) بن مالك بن ربيعة بن معاوية الأكرمين (ونشل ضبثه) وسوّده ولوّه و(سلفه) كله بمعنى واحد عن أبي عمرو (و) النشال (كشداد من يأخذ حرف الجردقة فيغمسه في القدر فيأكله دون أصحابه)

(مستدرك) هذا هو الأصل ثم أطلق على المختلس من اللصوص ✱ ومما يستدرك عليه أنشل اللحم من القدر انشالا انتزعه وقيل أنشله انتهشه بفيه ونشله نشلا جذبه وعضه ونشولة دقيقة والنشول ذهاب لحم الساق ونشل الرجل نشولا قل لحمه وقال أبو تراب عن خليفة نشلته الحية ونشطته بمعنى ونشيل كأمير قرية بمصر من أعمال الغربية منها الشمس محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن خليل بن أسد

(نصل) ابن الشيخ خليل الكردي النشيلي الشافعي أخذ عن البلقيني وسمع على الحافظ ابن حجر وصحب الشيخ محمدا الغمري وجده الأعلى الشيخ خليل صاحب الضريح بنشيل توفي بعد الستمائة وله كرامات ذكرها المناوي في طبقاته

الملحق الرابع

على بك الكبير وأبطال مظالم النشالين والحرامية والعيارين (١٧٦٨م)

عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، تحقيق الدكتور عبدالرحيم عبدالرحمن، الجزء الأول، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٩٨، ص ٤٨٦.

وفى ثامن عشر صفر [1] ، اخرج على بيك جملة من الأمراء من مصر ، ونفى بعضهم إلى الصعيد ، وبعضهم إلى الحجاز ، وأسل البعض إلى الفيوم ، وفيهم محمد كتخدا تابع عبد الله كتخدا ، وقسر حسن كتخدا ، وعبد الله كتخدا تابع مصطفى باش إختيار مستحفظان ، وسليمان جاويش ، ومحمد كتخدا الجردلى وحسن أفندى الباقرجى ، وبعض أوده باشية ، وعلى چربجى ، وعلى أفندى الشريف جمليان .

وفيه [2] : صرف على بيك مواجب الجامكية .

وفيه [3] : أرسل على بيك ، وقبض على أولاد سعد الخادم بضريح سيدى أحمد البدوى ، وصادرهم ، وأخذ منهم أموالاً عظيمة لايقدر قدرها ، وأخرجهم من البلدة ، ومنعهم من سكناها ، ومن خدمة المقام الأحمدى ، وأرسل الحاج حسن عبد المعطى ، وقيده بالسدنة عوضًا عن المذكورين ، وشرع فى بناء الجامع ، والقبة والسبيل والقيسارية العظيمة ، وأبطل منها مظالم أولاد الخادم والحمل والنشالين والحرمية والعيارين [4] ، وضمان البغايا والخواطىء وغير ذلك .

وفى تاسع شهر ربيع الأول [5] حضر قابجى من الديار الرومية بمرسوم ، وقفطان وسيف لعلى بيك من الدولة

وفيه [6] وصلت الأخبار بموت خليل بيك الكبير بثغر سكندرية مخنوقًا .

وفى يوم السبت ثانى عشره [7] ، نزل الباشا إلى بيت على بيك باستدعائه ، فتغدى عنده ، وقدم له تقادم وهدايا .

وفى يوم الأحد ثامن عشر ربيع الآخر [8] ، اجتمع الأمراء بمنزل على بيك على العادة ، وفيهم صالح بيك ، وقد كان على بيك بيت مع أتباعه على قتل صالح بيك ، فلما انقضى المجلس ، وركب صالح بيك ، ركب معه محمد بيك ، وأيوب بيك ، ورضوان بيك ، وأحمد بيك بشناق ، المعروف بالجزار ، وحسن بيك الجداوى ، وعلى بيك الطنطاوى ، وأحدق الجميع بصالح بنك ، ومن خلفهم

---

(1) ١٨ صفر ١١٨٢ هـ / ٤ يولية ١٧٦٨م

(2) ١٨ صفر ١١٨٢هـ / ٤ يولية ١٧٦٨م

(3) ١٨ صفر ١١٨٢هـ / ٤ يولية ١٧٦٨م .

(4) العيارين الشطار ، الفترات ، الجعيدية .

(5) ٩ ربيع الأول ١١٨٢ هـ / ٢٤ يولية ١٧٦٨م

(6) ٩ ربيع الأول ١١٨٢هـ / ٢٤ يولية ١٧٦٨م

(7) ١٢ ربيع الأول ١١٨٢ هـ / ٢٧ يولية ١٧٦٨م

(8) ١٨ ربيع الأول ١١٨٢ هـ / ٢٧ يولية ١٧٦٨.

الملحق الخامس

قُطّاع طرق .. مناسر .. بطحجية

الشيخ خليل بن أحمد الرجبى: تاريخ الوزير محمد على باشا، تحقيق دانيال كريسيليوس، حمزة عبدالعزيز، حسام الـــدين إســـماعيل، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٧، صفحات ٧٢-٧٤، ١٦٦-١٧٤.

(ص١٧) وتارة تسير المركب في وسط البحر إذا كان متسعاً، فإذا طلع عليهم الفلاحون أو العرب ونادوا عليهم أن يأتوا للبر الذي هم وقوف[1] به لا يجيبونهم فيضرب الفلاحون الرصاص من مكاحلهم على المركب ومن فيها ويصيحون عليهم وينتشرون في البر كالجراد ويكثرون من الصياح وضرب البارود بالرصاص، فيضربون عليهم من المركب المدفع والبارود فيرجعون هاربين وهم يشتموا ويصيحوا، وتارة يشتد الحال ويكثر الرجيف على أهل المركب ويكون البارود الذي يأتيهم من البر كثير، وتارة يموت أناس وينجرح أناس من هؤلاء ومن هؤلاء فيؤول الأمر إلى بذل دراهم فيدفعونها لهم ويتركوهم يمضوا في طريقهم، وتارة يكون البحر نازلاً هابطاً كعادته في عقب الشتاء فيتكاثر الفلاحون أو العرب وينزلون بالخيل في البحر في جهات معلومة ويأخذون المركب بما فيه من أموال ومتاجر ويقتلون من فيها، ولا يسأل أحد من الأمراء عن ذلك ، بل للأمير قسم فيه ونصيب مقدر (ص١٨) يأخذه، وكذلك كان البر في كل جهة منه طوائف من الفلاحين يسمى الرجل نفسه شيخ العرب الفلاني وله رجال ينهبون في الطرق، وكثر ذلك وعم أقطار مصر كلها، فحصل الخلل الكبير واضطرب أمر القطر إضطراباً عظيماً حتى وصلت العرب إلى اليزبكية وإلى الحسينية ووقع القتل والسلب خارج باب الشعرية وعند المذبح

---

١ - في نسخة [دار الكتب] "واقفون".

٢ - بالرغم من أن كل قرية تقع على النيل في مصر كان بها خفراء مسئولون عن الإبلاغ عن قوارب اللصوص، وذلك حماية للإبحار النهري، إلا أن ذلك لم يكن كافياً لحماية المراكب من خطر الإعتداء على الأنفس والممتلكات، فقد كانت لمثل هؤلاء اللصوص حيلهم في سرقة المراكب النيلية. أنظر: نيبور، كارستين: رحلة إلى مصر ١٧٦١-١٧٦٢م، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة سنة ١٩٧٧، ص١٢٥-١٣٧.

السلطاني[1] وتحت القلعة من جهة الجبل وخارج باب القرافة[2] وباب الغريب[3] عند الأزهر، وكثر ذلك جداً، وكان الذي يتوجه إلى بولاق يسأل أيّ الطرق أحسن في هذه الجمعة، فيقال طريق باب اللوق[4]، واحذر أن تتوجه من طريق القنطرة عند المغربي[5] فإن التعدي هناك، وكذا يقال في طريق مصر العتيقة، وساير[6] الجهات، وإزداد الأمر في ذلك حتى كانت الحارات بإطارف مصر كالأزهر ونواحيه ودواير خط الحسين والحسينية والباطلية والعطوف ودرب النوبي وغيرهم من سائر نواحي أطراف مصر يأتيهم بالليل ناس من الفلاحين والعرب يقال لهم المنسر وبأيديهم تارة شعل مضيئة بالنار فيصعدون إلى الحارات (ص١٩) وينهبون البيوت ويقتلون

---

١ - المذبح السلطاني: كان يقع في منطقة الحسينية، عند ميدان الجيش الآن. أنظر: البكري، محمد بن أبي السرور، ت سنة ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م: قطف الأزهار من الخطط والآثار، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٤٥٧جغرافيا، ورقة رقم ١١٤ (أ) ؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٣٤١، ج٤، ص٢٧٠ ؛ علي مبارك: الخطط، ج١، ص١٠٣، ج٢، ص٤.

٢ - باب القرافة: يقع عند نهاية سور مجرى العيون من جهة القلعة، عرف أيضاً بباب الخولي لقربه من زاوية الخولي، كما عرف أيضا بباب قايتباي لتجديده له. السكري، علي بن جوهر: الكوكب السيار إلى قبور الأبرار، تحقيق محمد عبد الستار عثمان، سوهاج سنة ١٩٩٢، ص٤٣-٤٤.

٣ - باب الغريب: هو باب البرقية الذي بني في العصر الفاطمي في السور الشرقي لمدينة القاهرة، وموقعه عند جامع الغريب الذي بناه عبد الرحمن كتخدا (أثر رقم ٤٤٨) بجوار هذا الباب الجبرتي: عجائب، ج٣، ص٩٣، ج٤، ص٣٤٦.

٤ - طريق باب اللوق: كان هذا الطريق يمتد من قنطرة باب الخرق فشارع حسن الأكبر الحالي فباب اللوق حتى شاطيء النيل. المقريزي: الخطط، ج٢، ص١٤٧ ؛ علي مبارك: الخطط، ج٣، ص٦١.

٥ - قنطرة المغربي: كانت في منطقة الأزبكية جهة شارع عدلي.الآن حيث مقام الشيخ المغربي. الجبرتي:عجائب، ج٣، ص٣٣، ج٤، ص٢٤٦ ؛ علي مبارك: الخطط، ج٣، ص١١٨ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وحدة مدينة القاهرة، ص٢٤٠.

٦ - في نسخة [دار الكتب] "وكذا في ساير".

ويجرَحُون، وكانت أهل المحلّات على الدوام مستحضرين ومستعدين بالبارود والسلاح ويسهرون بالدور خوفاً من طرق المنسر، وبالجملة فقد كان ذلك أمراً صعباً مهولاً، والأمرا نيام في بيوتهم يسمعون ذلك ولا تأخذهم حمية في الدفع عن الرعيّة، وزاد الأمر في مثل هذه الأشياء حتى صَار الناسُ بحيث لا يقدرون على المشي ليلاً في طرق مصر إلا أن يكون ثلاثة أو أربعة أو خمسة رجّال ومعهم النور مع الإحتراس على أنفسهم بالمسَاوق ونحو الشماريخ المعروفة، وسبَبَ ذلك أنه ظهر بالطرق بالليل رجال يقال لهم البطحجّية ومعهُم أشياء يضربُون بها كل من كان ماراً منفرداً، وتارة يضربون الإثنين ويأخذون من الناس ثيابهم وما مَعهُم من الدراهم، حتى عمت البَلْوى بذَلك وكثرت هذه المعاني بمصِرَ، فإرتفع الأمن وزاد الخوف وكثر الفِسقُ، وكانت إذ ذَاك الأمرا على ثلاثة أقسَام: أمراء مِصْريون، وأمرا فلاحَون، وأمرا من العرب، فكان الكلب من الفلاحَين يجمع له مائة رجل أو مأتين، وبعضهم يجمع الألف وبَعضُهُم (ص٢٠) تكون جماعته ألفين وبعضهم أكثر من ذلك، ويسمي الكلب نفسه شيخ العرب فلان، وكل واحد منهم مصاحب لأمير من أمرا مصر ليشاركه فيما يأخذه من أموال الناس، فكانت العلماء تذهب وتتكلم مع مثل إبراهيم بيك شيخ البلد ويحذرونه عواقب ذلك ويخاطبونه في قمع هؤلاء الأوباش ورفع ضررهم عن الناس وعن البلاد، ويقولون له أن القطر صار خراباً بسبب ذلك، فيأمر بعض صناجقه بالخروج إليهم فيخرج مع عسكره ويرسل لهم ينبههم ويقول لهم أرحلوا عن أرضكم ومحلكم، فيرحلون بأموالهم ويتوجهون إلى أيّ جهة من أيّ بلد شاؤا، فيمكثون بها حتى يأتي ذلك الأمير ويرجع بعد ذلك إلى مِصْرَ ويقول أنهم هربوا وأنه لحق منهم عشرة فقتلهم بالكذب، ثم يرجعون إلى محلهم ويعودون إلى فسادهم، وأن لم يكن بين الأمير وبينهم صحبة يرسل لهم الأمير الذي يكون مرافقاً لهم ويعرفهم عن الحقيقة، فتَارَة يرحلون ويهربون، وتارة لا يبالون بذلك الأمير بل يرسلون له أرجع فإن لم يرجع حاربوه، وتارة يهزموه (ص٢١) ويقتلون من أتباعه ومماليكه ويرجع مهزوماً منكساً رأسه.

الفصل الثالث

في قمع شوكة المفسدين من طوائف أجلاف الفلاحين والعربان بقطر مصر وإذلالهم

وهذا الفصل من العجايب، والـذي تضمنه يذكر في الوقـايع الغرايـب، وحـاصل مضمون هذا الفصل وما أذكره فيه مـن القـول الفصـل، أن في دولـة الغـز الإبراهيمية والمرادية (ص١١٣) كان ببلاد مصر ونواحيها وقراهـا وضواحيهـا رجـال موصوفـون بالقوة، مذكورون بالكرم والفتوّة اسماً بلا مسّمى، وخيالاً ما ألما، وتفصل مسـاكنهم ونذكر أماكنهم.

فمنهم ببلدة تلا[1] بفتح المثناة واللام بعدها كذلك مخففة رجل اسمه شيخ العـرب رَسْلاّن[2] برا مهملة مفتوحة وسـين كذلـك سـاكنة، ثـم لام ألـف ونـون بعدها، وكان رجلاً ربعة جسيم البدن أسمر اللون له قوة شديدة وأتباع كثيرة، وكـان من الفرقة المعروفة بسعد، لأن جميع الفلاحين والعرب فرقتان سـعد وحـرام كمـا هـو شهير[3]، ورَسلان هذا كان من سعد، وكان يلبس الثياب النفيسة مـن الهنـدي الجليـل،

---

[1] - تَلا: بلدة قديمة من إقليم الغربية، أصبحت بعد ذلك أحد أقسام مديرية المنوفية سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م، ثـم سميـت مركـز تـلا في سـنة ١٨٧١م، محمـد رمـزي: القـاموس الجغـرافي، ق٢، ج٢، ص١٨-١٩، ١٧٣-١٧٤.

[2] - شيخ العرب رسلان: وفي أواخر القرن ١٨م كان ابن رسلان قاطع طريق بالمنوفيـة. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٢، ص١٠٢، ١٥٩.

[3] - فرقتا سعد وحرام: جماعتان من المماليك والبدو أظهرتا كثيراً من التحدي لسلطات الحاكم في النصف الأول من القرن ١١هـ/١٧م، وقد أطلق على الأولى نصف سعد الفقارية، وضمـت مماليك وعناصر من أهل الحضر والبدو، وظهرت كجماعات قوية هدفها السيطرة على أكبر مـا يمكـن مـن دخل مصر. وعرفت الجماعة المنافسة لها بأسم نصف حـزام القاسميـة، وضمـت المماليك المنافسين

إلا إنه لا يضع على رأسه إلا لبدة من الصوف المعهود لبسها لفقرا الفلاحين وخدمهم وأتباعهم، فكان هو لا يلبس الطربوشة مثل غيره من أعيانهم، بل مستديم لبس اللبدة من دونهم، وكان يتعمم عليها بالشال الكشمير العظيم الكراخانية وله عذبة طويلة، وكانت فتحات أكمامه متسعة، وهو ساكن متوطن بقرية تلا، له دار جليلة متسعة، وله بها الخيول (ص١١٤) الجيدة، والعبيد العديدة والجمال والمزارع الجليلة، وكان على الدوام يركب ويصحبه الألف من الفرسان والألفان والثلاثة آلاف ويغير على بلاد حرام ويقع بينه وبينهم الحرب والطعن والضرب حتى يهزمهم ويقتل الرجال ويذبح على صدور النسا الولدان والأطفال، ويفعلون الفواحش المنكرة وينهبون الأمتعة والأموال الفاخرة،ولا يدعون كبيرة ولا صغيرة إلا فعلوها، ولا يغادرون خصلة من القباحة إلا أحصروها، ويرجعون بالأغنام والجمال آلافاً مؤلفة، وبالدجاج والأوز والثياب والغلال أصنافاً مصنفة، فيأخذ من ذلك اللعين رسلان لنفسه ما يريد ويعطي باقيه لعسكره الأحلاف ولمن معه من طوائف الفلاحين والعبيد، ويتوجه إلى بلده فيمكث بها مدة فيتفق أن يقع بين الفلاحين كرب وشدة، فيستنجد به أناس فينجدهم ويحارب بجيشه أعداهم ويخذلهم، وكان له رجال يقفون بطريق المسلمين ويؤذون المارة من سَاير الطوائف (ص١١٥) أجمعين، فيسلبونهم ثيابهم ويأخذون أموالهم وأسبابهم، وكل من لم يسلم لهم بالإذعان قتل أو جرح، ولرسلان فيما يأخذونه قسطاً كبيراً متكاثراً.

وإتفق أن مراد بيك ركب من مصر بعساكره ورجاله وصناجقه وأبطاله، وأراد حرب رسلان وقتاله وصدامه ونزاله، ولا يعود إلا بعد قتله لرسلان وإذاقته الذل

وعناصر حضرية وبدو نصف حرام، وإنتهى الأمر بإسقاط أسم الجماعات البدرية وعرفوا بيساطة بالقاسمية والفقارية، وهي الجماعتان السياسيتان اللتان تنازعتا على زعامة مصر حتى منتصف القرن ١٢هـ/١٨م، حيث عزز القازدغلية سيطرتهم على مصر. أنظر:

Holt, Egypt and the Fertile Crescent, 84.

والهوان، فسار وبلغ الخبر رسلان فجمع رجاله وحشر أبطاله وتقابل مع فرسـان مـراد بيك في واسع البر، فلما فهم أن لا خلاص له في حربهم، أمر رجاله ففروا وفـرّ، فـأمر مُرَاد بيك مماليكه الشجعان وصناجقه وكشافه الفرسان أن لا بد من لحاقهم برسـلان، وأن يحضروا به قتيلاً أو أسيراً، فأكبت الشجعان رؤسـها في قرابيس السروج وكـروا كراً شديداً في تلك الأرض والمروج، وبقـي رسـلان منفـرداً، وفي ذلـك البر متوحـداً والفرسان جميعاً تسوق خلفه الخيول وكلهم يرمح جواده ومـا لهـم أبداً إليـه دنوّ ولا وصول، لأنه كان (ص١١٦) تحته فرس يضرب بها الأمثال، وهي من أصـايل الخيـل، عديمة المثال، ففر عليها رسلان وهو من الفراسة بمكان، ومازال كذلك حتى إنقطعت عنه الخيول وردت بالتعب الشبان والكهول ولم يبق خلفه يكر عليه ويريـد أن يوصـل كيده إليه سوى أحد كشـاف مراد بيـك وكـان يسـمى مـراد كاشـف، وهـو مـن الشجعان المعروفـة والفرسـان المذكورة الموصوفـة، وهـو المعـروف الآن بمحمـد بيـك المبدول[1]، وتحته جواد أحمراً صم محجل بسواد معدوداً من خيار الخيل الجيـاد، ومـازال

---

[1] - محمد بيك المبدول: كان أسمه مراد كاشـف، أمير الحـاج سـابقاً، تـابع الأمير حسـن بيـك الأزبكاري حاكم ولاية جرجا، وعندما رقي في شوال ١٢٠٠هـ/يوليو-أغسطس ١٧٨٦م إلى رتبة البكوات سماه حسن باشا القبطان محمداً كراهة في أسم مراد بيك فصار يكتب في الإمضـاء محمـد بيك حسن، إشترك في محاربة إبراهيم بيك ومـراد بيـك في الصعيـد مـع قـوات حسـن باشـا، كمـا إشترك في الحمـلات على عربـان أولاد حبيـب بالمنوفيـة سـنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٩م، وعنـد رجـوع المماليك إلى القاهرة بعد حادثة حسن باشا ذهب إلى إبراهيم بيك ورجع معه، وانضم إلى مراد بيـك في منازعاته مع إبراهيم بيك. كان متديناً ومحباً للعلماء فبنى للشـيخ سـليمان الفيومي المـالكي داراً بحارة عابدين، كما بنى جامعاً بحارة الميدرل بعابدين سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٨م وألحق بـه قبراً لـه لمـا مات في سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨-١٨٠٩م دفن به، وقد أخذ الخديو إسماعيل هذا الجـامع عنـد بنائـه سراي عابدين وتخطيط منطقة عابدين في القرن الماضي وبنى بدلاً منه جامعاً آخر على نفقتـه بجـوار السـراي من الجهة الجنوبية الغربية ونقل إليه مدفن محمد بيك المبدول الموجود الآن، وألحق به مدرسة للأطفال وسبيل، وانتهـى البنـاء وأقـر لـه وقفاً في ٥ جمـادى الأولى ١٢٩٢هـ/٩ يونيـو ١٨٧٥م.

بكر خلف رسلان فريداً لا يرافقه إلا قربانة[1] وسيف هندي مصان حتى صار بحيث إذا ضربه بالقربانة وصلت إليه فصمم حينئذ بتحريرها عليه، وضربها فخرجت كالمدفع الكبير ولها صوت له دويّ وهدير، فوصلت إلى رأسه فأحرقت عمامته، وكان تأجج شعيلها في دخان شاله عمامته ولم تصل إلى إضرار جسمه ولا أثرت تغيير وسمه، فرق رسلان إنه إذا رجع لضرب الكاشف وصده وتغيره عنه وقوّة رده ربما أدركته رفقته الفوارس (ص١١٧) فيكون في هول عابس، وكان قد وصل إلى ترعة مملوة بالما فخفق نحوها الأبصار والإيما، وكانت متسعة الأخدود بحيث لا يتمكن من شاطيها الثاني أحد تلك الجنود، ولا يتمكن من ذلك جواد مشهود ولو كان داحساً أو أبجر عنترة الجسور، فأقبل إليها رسلان بفرسه الشهيرة وصاح بها النجاة يا حميدة السيرة، ولكزها في الجنبين بركابه فهمزت بقوتها حتى وقفت بذلك الشاطي ورحابه وحجزت بينهما سعة ذلك المجرى، وبقى منفرداً آمناً لا يرهب أمراً، ثم ذهب من هناك إلى مأمنه وإختفى أسبوعاً ثم عاد إلى أهله ووطنه، ورجع مراد بيك بعساكره ودخل مصر متظاهراً بمناكره، وكانت عاقبة رسلان التوبة، فرجع إلى ربه بأحسن أوبّة، وترك ما كان لديه من المنكر وندم على ما فرط منه وإستحقه وأنكره، وبقى على ذلك مدة قليلة وتوفاه الله، وصار رهين عمله عند من تولاه.

الجبرتي:عجائب الآثار، ج٢، ص١١٥، ١١٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٧٨، ١٩٤-١٩٥، ج٣، ص٦٥، ٩٣، ٢٠٧، ٢٨٧، ج٤، ص١٠٥ ؛ علي مبارك: الخطط، ج٣، ص٨٨، ٩٠، ج٥، ص٤٦، ١٠٨، ١٠٩ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٣، سج٣، ص١٢٣٤ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص٢٨٣-٢٨٦.

[1] - قربانة: بندقية قصيرة من طراز قديم، وهي واسعة الفوهة، كان يحملها المشاة والفرسان. أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في الجبرتي، ص١٦٦.

وكان من مشاهير المفسدين ومن كبار الخاسرين، رجل يقال له ابن زغلول[1]، أضر فعلاً (ص١١٨) من الشيطان والغول، يقف مع رجاله على شاطي البحر ولا يتركون سفينة إلا وألحقوا بمن فيها الضر والقهر من النهب والقتل للمخالف، وكل من سار بذلك المحل كان بشأن التالف، لا يستحي ولا يعرف الوقار ولا يخشى من القبيح بالنسا ولا بالصغار، كأنما هو صاعقة في الفساد والظلم محرقة أو بلية من عذاب الله لسرور المؤمنين مغرقة، طال ما أضر العباد وأظهر الشر والعناد، لا مرؤة له معروفة ولا فتوة لديه موصوفة ولا كرم ينقل في سيرته ولا ذرة خير في باطن سريرته لعين ذميم شيطان رجيم، لم يزل في عتوه وفجوره وظلمه وتعديه وجوره حتى أرسل إليه حضرة أفندينا أيده الله من أحضره سريعاً، فصعدوا به إلى القلعة وقد أنكر ما صنعه جمعه ومنعه، وندم اللعين ولا ينفعه الندم، فقد زلت منه القدم وبقى كالعدم، فأمر حضرة صاحب السعادة بحذف عنقه وسد جميع سبله وطرقه، فأنزلوه مصاحباً للمذلة مقروناً بالصفع ملزوماً بالعلة، (ص١١٩) فقطعوا رأسه الخبيث وزال شره الحثيث ونقل روحه إلى النار وبئس القرار، فأراح الله العباد والبلاد وفرحت بقتله السفار في كل واد وناد، وأمنت المراكب في البحر وإرتاحت السايرون في البر، وخلت تلك الطريق من الأوباش وحسن فيها السير لطلاب المعاش، وهذه من حسنات أفندينا الكبيرة التي هي مخلدة وفي ذكرها شهيرة، جزاه الله على ذلك خير الجزاء وأجزل له من الخيرات والمسرات أعظم الأجزاء.

---

[1] - ابن زغلول: أحد قطاع الطرق بناحية القليوبية، كان هو وعصابته يقطع الطرق على المسافرين في النيل سنوات ١٢٢٢-١٢٢٣هـ/١٨٠٧-١٨٠٨م، وذكر الجبرتي أنه حينما توجه الأمراء للقبض عليه صالح على نفسه بثلثمائة كيس ورجع الحال إلى حاله. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٥٦-٥٧.

ومن جملة شياطين الفلاحين الملازمين لإضرار عباد الله في كل حين، رجل يقال له الأشقم[1] من شرقية المنصورة، كان آفة من الآفات وبلية من أكبر البليات، قاطع للطريق مستحل دم الرفيق، لا يرهب من الفرسان ولا يخشى صولة الشجعان، وله جماعات يتبعونه وعشاير يرهبونه ويطيعونه، وكلهم بلا شديد وإضرار لا يزول ولا يبيد، يسلب وينهب وليس له دين ولا مذهب، لا رغبة له في صوم ولا صلاة ولا راحة تمتد بالرفد والصلاة، قرين الشيطان (ص١٢٠) يشتت السكان عن الأوطان، أرسل له حضرة أفندينا سريعاً من قطع عنقه وسد طرقه، فذهب كأمس الدابر ولحق سكان المقابر وخرجت روحه إلى السعير بعدما لقيت هول منكر ونكير، وهذه كذلك من الحسنات المشهورة التي هي على جبين الزمن مسطورة، وهذه أشيا متكاثرة معروفة عند أهل القطر ظاهرة بحيث لو تتبعت أفراد هؤلاء الشياطين طالباً حصر عددهم أجمعين لطال الكلام مع شهرته حتى للعوام.

وإن لم يكن لحضرته إلا إخماد شوكة العربان وقمع صولتهم على أهل القطر في كل مكان حتى كأنهم هم أمرا الزمان وحكام ذلك الأوان، ولاسيما ما كان يفعله عرب البحيرة مما أورثوه لأهلها من الخلل والحيرة، حتى كانت كل قرية لها صاحب منهم فهو أميرها ويسمونه بالصديق، وما هو في الحقيقة إلا زنديق يأخذ من القرية ما إحتاج إليه وما كان من الغلال والسمن مفتقراً إليه بغير ثمن وغير محمدة بل الضرر المستديم منه بكل مفسدة، وفي بعض الأحوال (ص١٢١) يدعي أنه غضبان منهم لما بلغه عنهم من كراهته وذلك من أكاذيبه وكبير خبائثه، فيخرج من القرية إلى الغيطان ويتباعد بالبادية إلى نحو المزارع الخارجة عن الأوطان وبهايم أهل تلك القرية في المرعى فيكر عليهم بقوة المسعى ويضرب الرعاة ويقتل بعضهم فيهربون ويتركون ما معهم، فينهبون البهايم والنوارج والمحاريث، ويمرحون في تلك الأرض أشباه الجنّ والعفاريت، ويسيرون بذلك المنهوب إلى قبايلهم فيتوجه أرباب تلك المواشي لأصحابهم وأقاربهم

[1] – الأشقم: لم نعثر على أي معلومات عنه.

ويذهبون جميعاً للقبايل مستجيرين وضارعين مستغيثين ويستشفعوا لهم بأحبابهم وأولادهم، ويدفعون إليهم الأموال مقدار النصف من أمثالهم، ويتضرعون إليهم ويخضعون لديهم، فتارة يقبلوا ذلك منهم وتارة يدفعون بعض ذلك إليهم ويأخذون الباقي، ويرجع الفلاحون تدمع منهم الأماقي، وكان لهم في ذلك شئون كثيرة وأصناف من المكاره شهيرة، وطالما قتلوا الرجال (ص١٢٢) بل وذبحوا الأولاد والأطفال، وكان بعض البلاد بها الشياطين أصحاب القوّة وأرباب الفراسة والفتوّة من كبار مشايخ الفلاحين، فكانوا يحمون جهتهم وينتقمون هم من أهلها بدل أوليك الشياطين قبحهم الله أجمعين.

وناهيك بطايفتي سعد وحرام، وكانت جميع الفلاحين في القطر وجميع الأعراب من جميع الجهات فيه يفترقون على فريقين، وهما المذكوران من الطايفتين، وقد يكون نصف البلد الواحدة سعداً ونصفها الآخر حرام، وكل من ملك منهم صاحبه قتله ولا يخشى الله ولا الملام، وتارة يجتمع جمعان كل جمع منهم خمسة آلاف وعشرة آلاف ويزيدون تارة بأضعاف الأضعاف، ويقع بينهم الملاحم ويقتل من الفريقين ما لا يحصى ويصيرون على الأرض عدد الحصى[1]، ويتفرع من ذلك إنقطاع الطرقات وإرهاب السفار في كل الجهات ويرتفع الأمن من الأوطان وتقلق القطان والسكان، وهذا كان غير منقطع أبداً بل يزداد كثرة وتجدداً، (ص١٢٣) فاختل بهذا السبب القطر خللاً كبيراً وعم الإضرار ساير الناس كبيراً وصغيراً، وبقى ذلك من[2] أكبر العجايب وأشد المتاعب والمصايب لكون الأمرا الأولين لهذه الأحوال وما يلزمها مهملين، فقل إيراد الجبايات الخراجية وتعطل معظم الأموال الميرية وتعبت الرعية وقويت البلية، فجعل الله سبحانه وتعالى حضرة هذا الصدر الجليل الوزير المهاب ذي المكارم والتفضيل سبباً

---

[1] - في نسخة [دار الكتب] "الحصا".

[2] - في نسخة [دار الكتب] هذا الحرف مكتوب في الهامش الأيسر من الصفحة، وغير موجود في نسخة [سوهاج].

لإزالة ذلك كله، وأراح الرعية على العموم من تحمل كله وقمع هؤلا الفجار وصدّهم بقوة سيفه البتار، ووالى عليهم الهزايم وجعلهم في ذل أصحاب الجرايم وآتى منهم بكل شهم وبطل و لم يبق منهم صاحب خطر ولا خطل، وصارّ يجي المشهور من أوليك الأوباش وينادي عليه بمصر فتحصل المسرة والإنتعاش، ويذهبون به تارة للرميلة فيقطعون هناك[1] عنقه وتذهب منه الحيلة وتنفذُ قوته وتزداد ندامته وتهرب منه أنصاره وجماعته.(ص١٢٤)

[وإن لم يكن لحضرة الصدر إلا قتله للرجل العنيد المارد العتيد المسمى بسلامة شديد[2] فإنه كان من مصايب الدهر ومن أكبر الأضرار في العصر فتاك هتاك لدما المسلمين سفاك قاطع طريق للطرق يسيء الفعل والخلق، كان ذلك اللعين من طايفة أعراب بَلِيّ[3] من كل شر وسو ممتلي قطع الله دابره بحضرة الصدر العلي حذف عنقه وسدّ طرقه وأراح الله العالم من شره وآمنت السفار من ضره.

---

[1] - في نسخة [دار الكتب] هذه الكلمة مكتوبة في الهامش الأيمن، وقد وضع الكاتب علامة في النص للدلالة عليها

[2] - سلامة شديد: كان سلامة بن شديد شيخ عرب الحويطات، وإشترك عرب الحويطات مع طوسون باشا في حرب الوهابيين في سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م، وكان ابن شديد يشترك مع حكومة محمد علي في الحروب إلى سنة ١٢٣٥هـ/١٨١٩-١٨٢٠م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٥٦، ٢٨٢، ج٤، ص١٠، ٥٨، ١٣٦، ١٧٢، ٣٠٧.

[3] - أعراب بَلِيّ: واحدة من أكبر القبائل التي إستوطنت في غربي الجزيرة العربية، وأحد فروعها عرفت بأسم "الحمداني" تمركزت حول منطقة أخميم بصعيد مصر. وقد حبسوا شيخهم ثم خوزقوا بالقرب من قبة العزب في ربيع الثاني سنة ١٢٣٠هـ/مارس ١٨١٥م. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢١٩ ؛ كحالة: معجم قبائل العرب، ج١، ص١٠٤-١٠٧. وأنظر أيضاً:

Description de l'Egypte, Etat Moderne, Vol. XVIII, 25-26.

حيث ذكر أن بلي أحد قبائل قطاع الطرق بإقليم الشرقية.

وهذه الحسنات المشهورة المسطرة المذكورة فجزى الله حضرة الصدر كل خير عن صنايعه، فكل سرور معدود للرعية من بضايعه، وكذلك فعل بنصار شديد[1] الزنديق العنيد، كان من[2] الدواهي العظمى والبلايا الكبرى ضاراً بالعباد والبلاد، قطعت رأسه وزال ذلك الإفساد، وذلك أيضاً من حسنات الصدر العلي ذي العز والفخر الجلي.

وكذلك فعل بإسماعيل الزعلوك شيخ العرب بدسوق[3]، مع أنه صعلوك كان آية في الإيذا (ص١٢٥) كبيراً في الفحش والبذا، أضراره كالخمر والميسر، موسر من الشر ومن الخير معسر، بل ليس فيه ذرة من الخير والإيمان، فهو خبيث وقرين للشيطان، قطعت رأسه في أسرع زمن، وذلك لحضرة الصدر من أعظم المنن، أراح بقتله الناس وأزال بحتفه الضر عن ساير الأجناس.

ولو أردت الإكثار من تعداد أمثال أوليك الضالين والوصف لتلك الفرق الخاسرين لأجهدت الأنفاس وملأت القرطاس، فقد كانت أرض قطرنا مملوة من أمثالهم، مضطربة بكثرة أشكالهم، فكم أرتاعت الموحدون من أفعالهم وأغلقت أبواب السفر للتجارة من إيذايهم وسلبهم، حتى منّ الله على القطر وسكانه بحضرة هذا الصدر فإستظلوا بإمانه، أطمأنت منهم القلوب وأزيلت عنهم بحضرته أصناف الكروب، ولعمري أن الأمن الموجود في هذا العصر المسبب عن وجود حضرة الصدر[4] لم

---

[1] - نصار شديد: شيخ عرب قبيلة الحويطات البدوية، أحد فروع بدو سيناء، وهي من القبائل التي تعاونت مع القوات المصرية في حملتها ضد الوهابيين. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٣٦-١٣٧، ٣٠٧.

[2] - في نسخة [دار الكتب] تبدأ هنا صفحة ١٠٧. .

[3] - إسماعيل الزعلوك: لم نعثر على أي معلومات عنه.

[4] - في نسخة [دار الكتب] تبدأ هنا صفحة ١٠٨.

الملحق السادس

المشاديد (الفتوات – الجدعان)

على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القـــاهرة، الجــزء الثانى "خطط القاهرة وشوارعها ودروبها وحاراتها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢، ص ٢٤٣.

عادة من تقدمه من الملوك إلى أن بنيت فيه الترب شيئاً بعد شيء ، حتى انسدت طريقـــه ، واتصلت المبانى من ميدان القبق إلى تربة الروضة خارج البرقية . (انتهى باختصار) .

(قلت) : ومحله اليوم ترب المجاورين وترب قايتباى .

[تربة الروضة]

وأما تربة الروضة فهى الترب الواقعة بين التلول وسور البلد بقرب باب الغريب ــ الذى هو الآن أحد أبواب القاهرة ــ ويغلب على الظن أنه كان فى محل هذا الباب أو بالقرب منـــه باب البرقية الذى ذكره المقريزى عند ذكر أبواب القاهرة إلا أنه لم يتكلم عليه ولم يبين محله وإنما قال عند ذكر جامع البرقية إن هذا الجامع من باب البرقية بالقـــاهرة ، وعمّره مغلطاى الفخرى ، وذلك سنة ثلاثين وسبعمائة (انتهى) (قلت) : وفى وقتنا هذا لم يوجد بهـــذه الخطة جامع مسمى بهذا الاسم ، بل الجامع الموجود هناك معروف بجامع الغريب ، فلعله هو جامع البرقية . ويشهد لذلك ما هو موجود فى حجج أملاك هذه الجهة من ذكر حارة البرقية .

(تتمـــة) : كفر الطاعين وكفر الزغارى المتقدم ذكرهما هما حارتان كبيرتان متلاصقتان بالسور . سكانهما يميلون إلى التعصب والتحزب ، وكانت لهم غارات فيما سبق ، فكانوا يتحالفون على المغالبة والمضاربة بالعصى والمساوق . ويستعملون الشد والعهد بينهم ، بمعنى أن كل طائفة منهم لهم كبير يدعونه بالعم وهو يدعوهم بالمشاديد ، فكان الواحد منهم إذا أراد التعصب على سكان جهة أخرى ــ كالعطوف مثلا ــ لمضاغنة بينهما أرسل إليهم يخبرهم بأنه يريد التعصب عليهم ، فيعطونه ميعاداً ، ويخرجون خارج البلد جهة الخلاء ، ويتضاربون بالمساوق ونحوها ، وربما فزع بعضهم بسلاح إذا طال القتال ، واشتد بينهم . وفى بعض الأوقات كان يموت منهم القليل ، وإذا وصل الخبر إلى الحكومة فكانوا ينكرون ذلك ، ويعدُّونه من الفتوة . ولكن فى هذه السنين قد بطل ذلك ، وانسد هذا الباب شيئاً فشيئاً حتى صارت التعصبات والتحزبات كأنها لم تكن شيئاً مذكوراً . وكانت هذه الأمور لا تقع غالباً إلا من سكان الحارات القريبة من الخلاء مثل الحسينية والحطابة والعطوف ، وغيرها من تلك الجهـــات .

هـــذا ما يتعلق بوصف شـــارع الدراسة وما فيـــه من العطف والحارات وغيرها قديمـــا وحديثا .

الملحق السابع

قاموس لملاحن النشالين والحرامية
وضعه وجمعه بالقاهرة سنة ١٩١٦

محمد لطفى جمعه: مباحث فى الفولكلور، شـركة الأمـل للطباعه والنشر، القاهرة ١٩٩٩، ص ١٣٣-١٤٠.

لحن النشالين والحرامية

آه : مع مد الألف طويلاً وتعنى عند النشالين الفراغ من عملية النشل بنجاح

أجدى ياللود : دمك من هذا الزبون

استدها من النوى : يقولها النشال لزميله فى حالة عدم تمكنه من نشل الزبون ومعناها لاتنزل فى المحطة القادمة

الأروة بهى : الفلوس كثيرة ، والأروة مطلقاً يعنى الفلوس .

إمسك الملس إين قبل مايجدى : ضيق الخناق على الزبون بسرعة

إمسك باللطى : ضيق الخناق ببطء

إمسك إين : ضيق الخناق

اهرس : يعنى تكلمْ فى لحن النشالين

إفتح الصهريج : هيا نسرق

اندقل : قفل المخزن

اندلف : ألف جنيه

الأسود : الأفيون

الادكادى : الخنصر

البنديرة : الحافلة أو الأتوبيس عند النشالين

بنداب : ألباب ، يقول اللص لزميله بنداب معندصلج سنديه يعنى الباب معصلج سيه أى الباب صعب فتحه فاتركه .

بربور : كتينة الساعة

بلبل : الشيشة

بوى : الأب

ترمسة : الساعة

تشرين هرين : حرامية

جويس : نشال غير ماهر أو مبتدىء

جزة : العباءة فى لحن اللصوص

جديلةيمينه : ارفع ذراع الزبون اليمنى

جوستين : الجيب يقول النشال لزميله جس الجوستين أى تحسس جيبه

جيه : المخدرات

جدى : اهرب يقول النشال أو الحرامى لزميله جدى من الكبارى

يعني اهرب من ضابط البوليس

حداية : المحفظة

الحساس : الجيب الصغير

حلدش وندائي : سور المخزن منخفض

حبل : حزام

حل : منزل

حيطة : نصبة القهوة

حد جدى اللي فى خلته بسرعة : يعنى أسرع فى نشل الزبون

حور من خلتى اخسى الملس اين ملهسنا : يعنى ابتعد عنى لأن الزبون ينظر إلينا .

حتة : منطقة النشل ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن لكل نشال منطقته ولايجوز لغيره أن يتعدى عليها وينشل فيها

خشب : المخبر أو رجل الشرطة السرية عند حرامية المخازن

خند شب : الخشب

خنداتم : الخاتم

خندمرة : الخمر

خنفسة: حذاء أسود

دكهس كبارى : يعنى النشال سرق الحكومة

دكهس فى الترمسة ولهسها منه : انظر للساعة

دكتور : من يقوم بتخطيط عملية النشل

دولاب : قفطان .

دو : رقم اثنين

الرويان : من يغطى عملية الانسحاب ويشاغل الشرطة والناس بعد النشل

رويه : رقم أربعة

ريويه : أخ

السيه : الجيب الخلفى عند النشالين

السيلة : النقود السائلة عندهم

السلك ضربه : يعنى الزبون معدم أو فقير

سيطة : المخزن بدون حراسة فى لغة حرامية المخازن

سندور عندليتا : سور المخزن مرتفع عندهم

سندهاة : الساعة

سمرجية : الخمرة

سهتي : نشال ماهر

سوس : رقم ثلاثة

سندكرة : السكر

شاروت صوان على القامى سوق جدامى : يقولها الحرامي لزميله بمعنى اذهب للسرقة فى سوق المواشى

شنكونى : نشال غير ماهر أو مبتدىء

الصندوق : جيب السترة عند النشالين

الصلبة : الجيوب السرية عندهم

صرصار : حذاء صغير

الطويل : الجيب الجانبى عند النشالين

الطويل : القطار عندهم

طبأة : الدكان عند اللصوص

طباشيرة : قلم ثمين يقول النشال لزميله فى خذه طباشيرة يعنى مع الزبون قلم ثمين وغال فى جيب سترته ٠

عزمان : يقول النشال لزميله كم عزمان يعنى ما معه من النقود ؟

عندجلة : الدراجة عندهم

عندميل : التاجز أو العميل الذى يبيع له حرامى المخازن البضائع المسروقة

عصاية : المفتاح المصطنع

العبودى : الأفيون

غراب : زعبوط (نوع من الملابس)

فرخة : الكيس عند اللصوص

قمقم : القزازة (الزجاجة)

قاعدة : كرسى

كوشة : الطعام الجاف عند لصوص البحر

كتف : يعنى اسكتْ أو تكتمْ عند النشالين

كبارى : ضابط البوليس

كميتى : الزبون معدم عندهم

كركر : الجوزة

كوديانة : امرأة

كوديانة أمرى : الأخت

اللديرى : أصبع الإبهام عند النشالين

لهست : يقول النشال لزميله أنت لهست يعنى هل انتهيت من عملية النشل

اللهسة جويس : يعنى العملية سيئة وبدون عائد.

المصدر : جيب الصدر عند النشالين

المدعى : الزبون أو المجنى عليه أو الضحية فى لحن النشالين.

مقعة : الخمرة

ميه : فلوس

ماى : أم

مهبلش : يعنى نشال مبتدىء أو غير ماهر

مخورجة : يقول النشال لزميله العملية مخورجة أو البلد مخورجة يعنى البلد حلو أو الاتوبيس مزدحم والعملية مريحة

مافيش دكنة ولا لهسة : يعنى لايوجد زحام والجو غير مناسب للنشل

مقرقرة : المحفظة

ناضورجى : من يقوم بمراقبة الجو للتنبيه عن البوليس

نزل على مراتى : ضغط على

نتشه : يعنى اترك الزبون

هجام : نشال

هه يا على : يقولها نشال البحر عندما يريد تنبيه زميله

وكد نفسك : يعنى حاذر عند النشالين

وعشرة : مشرط أو آلة لقطع الجيوب

يااللود امسك الملس اللى فى خذنتى : يعنى ضيق الخناق على الزبون

حتى أتمكن من نشله

ياكى : رقم واحد ٠

الملحق الثامن

أحد النشالين المحترفين يتبرع لثورة ١٩١٩

عبدالفتاح يونس: "زكى المهندس يحكى عن ثورة ١٩ وطه حسين وطربوشه الأثير!"، الأهرام الأدبى، جريدة الأهرام ١٧ ديسمبر ٢٠٠٢، ص ٣٤.

شخصيات عاشت ...

زكى المهندس يحكى عن ثورة ١٩ وطه حسين .. وطربوشه الأثير!

الأهرام ١٧ ديسمبر ٢٠٠٢ ص ٣٤ (الأهرام العربي)

عبد الفتاح يونس

عام ١٩٦٨ كنا طلابا بكلية دار العلوم وقبيل منتصف العام الدراسي كنا نعد العدد السنوى من مجلة الكلية للصدور، وكانت تحوى بالطبع العديد من الموضوعات عن دار العلوم وتاريخها الطويل، وتلقى الضوء على أساتذتها الرواد الذين اسهموا فى الحفاظ على لغتنا العربية وكانوا بحق حراسا امناء عليها.

ورشحني استاذي الدكتور محمد عيد استاذ النحو، والصرف والمشرف العام على المجلة لإجراء حوار مطول مع استاذنا الرائد زكي المهندس صاحب التاريخ الوطني العريض وصاحب المجهودات الكبيرة فى ضم دار العلوم لجامعة القاهرة لتكون إحدى كلياتها عام ١٩٤٦.

وذهبت إلى الأستاذ زكي المهندس فى مكتبه بمجمع اللغة العربية فى مبناه القديم بميدان الجيزة وترامى الحوار بيننا عبر جلسات طويلة بالمجمع ثم فى رحلة السير على الأقدام التي كان يحرص عليها فى همة ونشاط الشباب برغم بلوغه الثمانين من العمر حتى منزله امام حديقة الاورمان بالدقى.

كنت أسير إلى جانبه بشارع جامعة القاهرة وعلى رأسه «طربوشه» الأثير بينما عصاه الأبنوس اللامعة من أعلى تتقدمه إلى الأمام.

حكى لي الأستاذ زكي المهندس عن مسيرته الطويلة التي قدم فيها الكثير لوطنه واللغة العربية، وكنت أحس انه يشعر بالفخر الشديد وهو يسترجع سنواته بذاكرته القوية التي يقول عنها: إنها أغلى شيء اعتز به لأنها سنوات عمرى

فى اثناء تجولنا وحوارنا لاحظت أن الأستاذ زكي المهندس كان يتميز بسمتين أساسيتين ربما بدتا للنظرة السطحية متناقضتين، الأولى هي الجدية الشديدة فى تناول الموضوعات من خلال فكر دقيق منظم

والثانية هي روح المرح والدعابة بشكل تلقائي محبب مما يجعلنا ندرك أن ابنه الفنان الكبير فؤاد المهندس يعد قطرة من نهر والده وأنه وجد منذ البداية أستاذا رائدا فى هذا الفن أمامه.

وروى لي الأستاذ زكي المهندس ذكرياته عن ثورة الشعب عام ١٩١٩ حيث كان رئيسا للجنة الطلبة يغرس فيهم الوطنية والانتماء وحب الوطن ومقاومة المستعمر وكيف كان يسير أمام الطلبة وهم يرددون وراءه «مصر والسودان لنا وانجلترا إن أمكنا» وطوائف الشعب كلها وجموعه تعبر عن رفضها الشديد لوجود الاحتلال البريطاني وتؤكد وقوفها صفا واحدا فى مواجهته حتى يحمل عصاه ويرحل

واستغرق الأستاذ زكي المهندس فى الضحك وهو يتذكر أن أحد النشالين المحترفين وكان معروفا بحي الجمالية جاءه ذات يوم ووضع أمامه «صرة» كبيرة فى كيس محلاوى قائلا له:ياسعادة البك هذا تبرعي للثورة.. ثم فتح الصرة ليجد بها مبالغ مالية كبيرة ومشغولات ذهبية وأحجارا كريمة كانت هي حصيلة النشال. فلم يملك الأستاذ المهندس سوى أن اعتذر له اعتذارا رقيقا ولم يقبل التبرع ويحكي ايضا كيف كان القمص سرجيوس أحد زعماء اقباط مصر يعتلي منبر الأزهر مرددا فى قوة وحماسة «أنا قائم الآن من عرش أمي.. أتعرفون من هي أمي؟ هي مصر.. أتعرفون من هو زوج أمي..؟ هو الاستقلال التام أو الموت الزؤام» فتردد الجماهير هذا الهتاف ثم تخرج وإلى الشوارع لتواجه فى قوة وبسالة رصاصات الاحتلال

أما عن زواجه فلم ينس أن زفة عرسه طافت شوارع القاهرة بعربة إحدى الأميرات تجرها ستة خيول وأن الفنانة بمبة كشر هي التى أحيت حفل زفافه

وعن طربوشه قال لي: أنا أحرص على وضع الطربوش فوق رأسي لأني به أكون واحدا من عشرة أفراد فقط يحتفظون بالطربوش.. أما بدونه فسأكون واحدا من ستة وعشرين مليونا «عدد سكان مصر وقتذاك».

وحين جاءه ابنه فؤاد المهندس ليستأذنه فى أمر زواجه من الفنانة شويكار سأله: عروسك حلوة؟

فرد عليه: جدا يا بابا ثم ناوله صورة لها تأمل فيها الأب مليا وقال ضاحكا: دي حلوة قوى.. ياريتك تجوزها وحين وصل بنا الحديث إلى دار العلوم قال ـ رحمه الله ـ بفخر شديد «هي محبوبتي.. لقد درست بالأزهر الشريف وتلازمت من وقتها مع صديق عمري ورفيق المشوار الد... طه حسين الذى اختار جامعة القاهرة لإكمال دراس... سافر إلى فرنسا بينما اخترت أنا مدرسة دار العلوم ا... التي تخرجت فيها عام ١٩١٠ وسافرت إلى لندن للحص... على ماجستير التربية ثم عملت مدرسا ومفتشا لمادة الل... بوزارة المعارف العمومية لانتقل بعدها للتدريس بدار ال... التي توليت منصب العميد بها عام ١٩٤٥ وبعد... تمكنت عام ١٩٤٦ بعد جهود مضنية من ضم دار العلو... جامعة القاهرة لتصبح واحدة من أهم كلياتها

ولأجيال الشباب نحكي أن زكي المهندس أسهم ـ مشكور فى تحويل نظام دار العلوم المدرسي الى جامعي أكاديمي وأنه شغل كرسي البلاغة والنقد به استحدث على علومها الأصلية علوما أخرى حديثة تـ... مقتضيات العصر بالإضافة لوضعه أسس جديدة فى ... التربية والتعليم منذ عام ١٩٢٥، وأنه صاحب المؤ... التربوية القيمة التي نذكر منها: تهذيب البنين، وأعلام ا... والتربية فى القرن السابع عشر، والانفعالات والتر... التربية، وأحلام اليقظة والمراهقة، وإلى الامام وإلى ... والنحو المصور



زكى المهندس

الملحق التاسع

الشطار (النشالون) والامتناع عن النشل أثناء احتفال عامة الشعب بالإفراج عن سعد باشا (١٩١٩)

أحمد شفيق باشا: حوليات مصر السياسية، تمهيـد، الجـزء الأول، مطبعة شفيق باشا، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٢٦، ص ٣١٣.

وقد خرج السيدات فى عرباتهن وفى سيارلتهن وبيدهن الأعلام ينثرن الورد والازهار على الناس . ويحيين الوطن وبنيه . وينفثن فى نفوس الشعب المصرى روح الحماس والأقدام .

وفوق عربات النقل نساء من عامة الشعب فى جذل وحبور يزغردن ويرتصن على دق الدفوف ونغم المزامير والكل فى طرب وانشراح ولسان حالهن يقول : لا احتشام فى عيد مثل هذا العيد الفريد .

ومما استلفت الأنظار منظر تمثال ابراهيم باشا القائم فى ميدان الاوبرا . حيث قبض بيده على علم مصرى عظيم . وغطى تمثال جواده بالأعلام الصغيرة كأنما هو يشترك مع الشعب فى هذا العيد السعيد . وكان منظر التمثال يأخذ بمجامع القلوب .

ومن ألطف ما حدث أن أذاع ، فى ذلك اليوم ، الشطار (النشالون) بالقاهرة منشورا اعلنوا فيه انهم اشتراكا مع عامة الشعب فى أفراحه واحتفالا بالافراج عن سعد باشا واعوانه ولأجل أن يكون الناس فى أمن على ما فى جيوبهم حتى يمضوا فى أفراحهم مطمئنين قرروا الكف عن مزاولة مهنتهم ثلاثة أيام سويا .

هذا ولقد غصت أفاريز الشوارع وساحات الميادين بالمتفرجين من الأجانب والمصريين الذين هرعوا من دورهم زرافات يشهدون المدينة تموج بهذه الجموع الكثيفة من الشعب المصرى الطروب . واكتظت

الملحق العاشر

لائحة النشالين .. شر البلية ما يضحك

مجلة كاريكاتير، العدد الخامس، ٩ يناير ١٩٩١، ص ٢٧. نقلاً من مجلة (خيال الظل ١٩٢٥).



عمارة منيتي

وهي جريدة أسبوعية هزلية لكاتبها [illegible] في عام ١٣٢٥ هـ وهي تشتمل على [illegible] ورقات [illegible] من الطبيعة وأرق من اللطف .. تصدر في كل أسبوع [illegible] كل ما كان الحيث [illegible] والجنازة عمارة تشتمل [illegible] ولعب .. ومطرقة [illegible] في كوب .. [illegible] ويجرها الطلوي . ويشبها [illegible] من هذه العمارة . مايقرأها إلا الشقي ولا يسلبها إلا [illegible] .. صاحبها التهوري .. الأنس فيها [illegible] . [illegible] والأزهار [illegible] والتمليس [illegible] . عمارتنا لاتروج التجارة ولاتشبه العمارة إلا [illegible] من يطلع مهرها وهي في أول شهرها .. من الاثنين [illegible] خمسين [illegible] . ولما ستظهر [illegible] من أوراق [illegible] أو إعلانات التجار أو [illegible] على ثلاثة [illegible] من [illegible] ليليها والأجر . [illegible] شهر [illegible] على [illegible] عمارة الجريدة [illegible] بالسكة الجديدة [illegible] ..

هكذا [illegible] عمارة [illegible] في [illegible] من أعدادها

●●●

[illegible] . [illegible] شهور [illegible]
[illegible] . هو اللي يروح يسرق [illegible] شهور بابه

● عين أحد [illegible] حاجباً في محكمة [illegible] منه [illegible] أن ينادي على محمد محمد حسين [illegible] [illegible] محمد وواحد حسين [illegible]

● ذهب أحد الفلاحين لشراء [illegible] له لأول مرة [illegible] ولما [illegible] له [illegible] دفع الثمن [illegible] في الحال [illegible] على الأرض لوجوده [illegible] المستعملين [illegible] ثلاثاً [illegible] أمسر [illegible] في [illegible] الثلاثة [illegible]

[illegible] ١٩٢٩

الطباخ وزبونه

● مرة واحد دخل لوكاندة وطلب صحن [illegible] الطباخ قال له ماعندي [illegible] حاجة ثانية [illegible] طول النهار والليل [illegible] وكراسي [illegible] على إيه لما ما فيش [illegible] . قام الطباخ قال [illegible] بأيه [illegible] عندي كراسي [illegible] فيه [illegible] فيه [illegible] فيه ورق [illegible] فيه [illegible] فيه [illegible] فيه [illegible] فيه [illegible] فيه [illegible] فيه كل حاجة [illegible] واللي [illegible] ولا [illegible] قام رد عليه الطباخ وقال له [illegible] [illegible] وأنت [illegible] واحدة

● مرة واحد [illegible] قام [illegible] قال له [illegible] معروف [illegible] عليه وفي أثناء [illegible] ووقع [illegible] وقلت قام [illegible] قال له جرى إيه [illegible] قال له اللي [illegible]

● مرة واحد [illegible] في بلد من [illegible] زعلانين مع [illegible] [illegible] على يوم الجمعة وبعد الصلاة [illegible] إنهم اللي زعلانين من مراته [illegible] على [illegible] واللي [illegible] [illegible] قاعد [illegible] ما هوا واحد [illegible] قاعد [illegible] له وقال له [illegible] زعلانين [illegible] اللي [illegible] من مراتك [illegible] قال له لا [illegible] ده هو اللي [illegible]

عمارة [illegible] ١٣١٠ هـ

إعداد : عماد جمعة

لائحة النشالين

نظراً لقلة الوظائف في الحكومة وعدم وجود الأشغال الحرة في هذه الأيام رأينا إلى نشر لائحة النشالين ليعرفها من يريد الاشتغال بهذه المهنة إلى أن ييسر الله له عملاً بوظيفة الحكومة أو أشغال البلاد.

المادة (١): كل من سحب شيئاً من جيب آخر أو من أمتعته غير نشال

المادة (٢): ليس الخطافين نشالين لأن الخطف نوع من أنواع قطع الطرق وهو خارج عن النشل ولا يقبل الخطافين أعضاء في نقابة النشالين

المادة (٣): النشل مهنة يمتهن بها الرجال والأولاد والنساء والبنات

المادة (٤): على النشال أن يكون ماهراً في التخبط في الترامواي والمزاحمة في الأوتوموبيل والمشي في الزحام في الطرقات.

المادة (٥): على النشالة أن تكون زبونة في المحال التجارية وامرأة صالحة تزور أضرحة الأولياء وتبكر في [illegible] [illegible] الزوار فتؤدي عملها باطمئنان

المادة (٦): على النشالة أن يركبها عفريت بالأسم الذي يحببها لتحضر حفلات الزار

المادة (٧): على النشال أن يغير ملابسه في اليوم أربع مرات وعلى رؤساء النشالين أن يكونوا مهرة في تغيير أسمائهم وأشكالهم ووجوههم بالمساحيق والتلوين [illegible] حسبما تتوجه إليه الريبة ليسهل عليهم الروغان

المادة (٨): إذا نشل النشال شيئاً من جهة وجب عليه أن يشتغل في غيرها مدة ٣ أيام على الأقل حتى ييأس صاحب الشيء المنشول.

المادة (٩): على النشالين أن يقفوا مع الجمهور الذي يتفرج على صورهم في لوحات الحكومة المعلقة أمام أبواب الأقسام لكي تنصرف عنهم أنظار البوليس

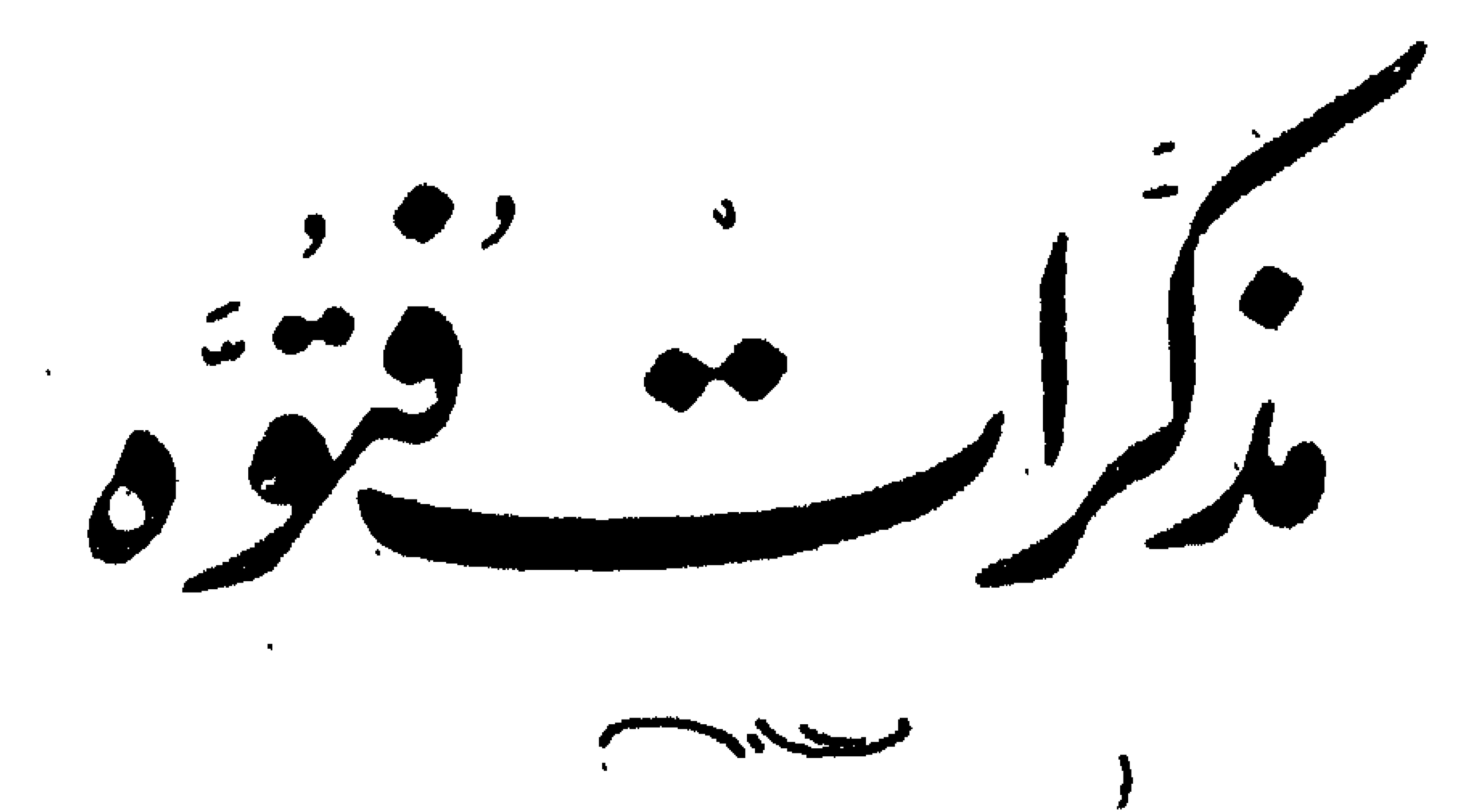
المادة (١٠): إذا وقع نشال في موقف حرج يخشى فيه غلبة الجمهور على أعوانه النشالين أن يساعدوا البوليس في البحث [illegible] على رجل بريء ويشهروا ضده [illegible] المرحوم النشال

ملاحظة ـ هذه [illegible] للمحرر من صباح [illegible]
(خيال الظل ١٩٢٥)

الملحق الحادى عشر

مذكرات فتوة ليست حديث فكاهة فقط، بل صفحة من تاريخ وعادات هذا الفريق من العوام

المعلم يوسف أبوحجاج: مذكرات فتوة، المطبعة العربية بمصر ١٩٢٧، ص٨-١١، ص٣٢.



قصة ادبية فكاهية انتقادية تعطيك صورة جلية من اخلاق وعادات وآداب واصطلاحات اختصت بها طبقة من عامة المصريين وهم الذين يلقبون (بالفتوات) الفها بطل وقائعها «المعلم يوسف أبو حجاج» واملاها على صاحب جريدة لسان الشعب وطلب منه نشرها فى جريدته فلبى طلبه وقد حافظ فيها على لغة مؤلفها وهاهو اليوم ينشرها فى هذا الكتاب

تأليف

المعلم يوسف ابو حجاج

طبعت على نفقة

حسني يوسف

صاحب ومحرر جريدة لسان الشعب

المطبعة العربية بمصر
شارع المزين بالموسكي

الفرس » ساعه والتانيـه إلا ونبص نلاقى « زفه » جايه وقفنا وفى إيدينا الشوم قرّبت الزفه وقدامهـا رجاله زي الغم اتقدمت « طالب الشكل » وطلبت عشره بلدى فقرب مني الواد الصرفي فتوة بين أقدار وقالى « اتلم » علوكم كانت الكلمه ديه زى سكينه دخلت في رقبة محسوبكم « طأطأت » فيهم أنا وزملائي اتفركشت الزفه « وباظ » نظامها « وطارت » حراسها وجات عساكر البوليس واشتغلت الصفافير وقتها كنا احنا « زغنا » لحد ما وصلنا خمارة كوستيه اللي جنب « المراحيل[1] » اللى فى شارع الترمواى اللى رايح العباسيه قعـدنا نكيل وسكى كنياك نبيت لغاية المسا قمنا قاصدين بين أقدار ودخلناها وحالا الضرب دار وانكسرت الفوانيس والكراسى وهرمت الفراشين والمعازيم وغفير الحارة ركبه عفريت وفضل يصفر في صفارته ابص والقى التمن كله بقى في الحارة ماتقلش كان عندهم خبر وفي الحال اناوبلحةراحوقابضين علينا وودونا التمن وكتبوا لنا محضر «زي الزفت» وبعدين صمنوا علينا وفضلنا صايعين عن الشكل لغاية يوم الجلسة وبالصدفة اللى زى القندلة كان القاضي اللى حكم لنا بالبراءة أول مرة هو الريس بتاع المحكة «ساعتها ياخلي» قلت «ياداهيه دقي» والله لازم «محبوس محبوس» شويه ونده الحاجب اسمي واسم زميلى وقفنا في القفص بص لى القاضى وهرش في راسه وقالي ـ مش انت برده اللي كنت قدامي من قيمة كام يوم متهم في قضية خناق وضرب قلت له ـ آيوه ياجناب سعادة البيه . ربنا يخليك لكن الحكاية دى زور قالي ـ ادعاء زور ايه ياواد البعيد مادام الغفير والعسكر شاهدين علي انك انت وبلحه ضاربين وفيه شهود كان شاهدين عليكم من الحته قلت له ـ ياحضرة جناب البيه الغفير والعسكر «واكلين»[2] أما الشهود دول قاعدين تملي اشهادة الزور بقى بزمتك يخش عقلك الكبير ده ان احنا اللي ضاربين « نكتة » !! بقي ياسعادة البيه اثنين يضربوا خمسين «عجايب» !.. دول كانوا أكلوهم أكل وعلى كده لو كنا ضربنا بقي مافيش فيهم «واد جدع»

«١» المراحيض «٢» أي بمعنا اخذوا رشوة

يعشق النبي وضرب منا واحد وخلا فيه اثر الضرب يثبت انه حصل «خناء»
ولكن الحمد لله ساعة العسكر ماقبضت عليّ أنا وبلحه طاوعنام لاننا عارفين
ان «القضا عادل» وعلى كل حال المسألة في أيدك والامر أمرك . وسكت قال لي ـ
طيب «اتركن» ونده بلحه وقال له ـ وانت يابلحه رد بلحه وقال له بزعيق
هيه ايه الحكاية ياسعادة البيه بقى بمجرد مايدعى فلان على فلان انه ضربه تسبت عليه
التهمه قال له ـ تسبت التهمة بشهادة الشهود رد بلحه وقال ـ شهود ايه ياسعادة البيه «دول
مقاطيع سبح» وريني مين فيهم له صنعه والامين فيهم بيجيب قرشه بعرق جبينه وراح
مخبط على الحاجز بتاع القفص بايده خبطه لاكين مُكن وقال ـ وعلى «ذالوك[1]» أنا
طالب التأجيل «لحين التحرى» عن الشهود دول فان كانوا ناس لهم مقام وصنمه أنا
من غير تحقيق ولا تدقيق مستعد للحبس سبع سنين بالاشغال الشاقه قال له
القاضي ـ طاب وايه رايك في شهادة العسكر والغفير؟ افقال له بلحه اما «بشكل
بستفه» ويعنى ياسيدي البيه العسكر والغفير شهادتهم انزلت فقال القاضي
وتقول ايه انهم قبضوا عليكم وانتم جوا الفرح قال له بلحه أيوه ياسعادة البيه
صحيح لان الصرفي صاحبنا ولا حناش واخدين منه خوانه جه على قهوة البيومي
وعزمنا وفي يومها رحنا بنيه سليمة وبادوب دخلنا .وقعدنا شويه الا والضرب
دار . . الله . . «والبوليس كبس» ومسكونا احنا الاثنين بس بقا مافيش حد
كان موجود غيرنا!! ؟ ايوه كانوا ابتوهوا الخانة شوية ويمسكوا لهم تلاته أربعه كان
ولكن الحكاية ياسعادة البيه مدّبره وانته «سيد العارفين» وعلى كلاً سلمت الامر
لله ولك زى ماتحكم عليّه «ماشى» فما كان من القاضي الا ان قال الحكم بعد
المداوله نهايته قعدنا جنب القفص بحرسنا تلات اربع الواح ميري ونده القاضي
على كام قضية كمبلهم وكله بعد المداولة وبعد ماانتهى راح داخل هوه وصاحبنا
بتاع النيابة وسابوا الكاتب «يرن» وبعد ماشربوا القهوة وهما جوه اتفتح الباب
بتاع الوسط وراح مزعق «لاعوق[2]» المحكمة ـ محكمة ـ راحوا داخلين بسلامتهم

«١» يقصد أن يقول وعلى ذلك «٢» حاجب المحكمة

وقاعدين مطرح ماكانوا وصاحبنا القاضي مسك ورقة في أيده وراح ناده على
كل اصحاب القضايا وهو عمال يقول تلات اشهر خمس أشهر سبع أشهر ستين
قلت نصيبتنا سودة شوية وراح ناده اسمي واسم بلحه وحكمت المحكمه على كل
من الاتنين بالحبس شهر مع الشغل والمصاريف قال على جناب الحيكومه غمزت
بلحه وقلت له ينصر دينك يا بلحه قال لى ديهـده ياعم « هيّه القتونه بلاش
دا الحبس للجدعان » والفرض دخلنا على أودة التنفيذ بحرسنا بسلامته عسكرى
ومعاه « صورة الحكم » وأخيراً زحلونا على سجن « ارميدان» ....

دخلت السجن أنا « والواد بلحه » وعنهـا وقلعونا هدومنا ووزنونا
« تقلشى » إحنا خرفان أو اذا نقص وزننا نحاسبهم على فرق الميزان وبعدها
جابو لنا مزين حلق لنا روسنا وجه الحكيم كشف علينا ودخلونا الحمام تقولشى
جوازه وعنها وسلموا لكل واحد منا قميص ولباس خيش « بلدى» وادوا لكل
واحد منا نمره حطها على صدره وبعدها حطوا كل اتنين « من ايراد اليوم » فى
زنزانه وصادف أن بلحه راح مع واحد غيرى وجه زمبلي واد بأف ابن كلب
رزل قعدت أنا وهوه جابوا لكل واحد منا رغيف عيش لونه زي الارض
وطورتين فول مدمس فوقهم ولا أربعين سوسه وخمسه عشرين زلطه بصيت
للأكل المؤرف ده وحبيت « أضرب » عن الاكل ولكن الجوع كافر نهايته أكلتهم
وأنا مغمض وفي تانى يوم جانى واحـد سجان بأف وقال في عقل باله « آدي
مسجون جديد لنج استلبخه واتأنصل عليه » وعنها وراح خابطني رزه على
قفايه وقالي انت يا وله يا مجرم قلت له بتقول إيه يابن اللبوة ياجلنف قال لي ـ
أنا ابن لبوه يابن الفرطوس رحت مناوله كف لكن دُبل راح راقعني كف تانى
رحت مناوله ١٥ زيه راح مزعق جات السجانه على زعيقه وجرونى على أودة
المأمور دخلت على المأمور « هو شته(٢) » وقلت له هو بقى فيه عدل هو بقى فيه آنون
هو القاضي لما حكم عليَّ بالحبس قال شهر مع الشغل والاهانه ؟ أبداً ما قلش كده

(١) يقصد انه أترعليه وأخافه وجعله مرتبكا ـ ٢ ـ يعنى القانون

فما كان من حضرة المأمور إلا انه قام وراح نابشني حتة شلوت . . جيت أناوله أخوه بس يا خساره كنت حافي ومجرم زى ما بيقولم قلت له ـ بقى انت كان يا حضرة المأمور يالي متربى بتعمل زي الجلنفات دول قال لى ـــ حقيقي انك واد ابن كلب مجرم قلت لهـ وانت الصادق يا سعادة البيه يصح برضو لانك مانلتش الوظيفه ديه الا بالقباحة فقال المأمور للكاتب ناولنى دفتر المحاضر والله يا ابن البعيد الكلب لأسجنك وأوديك الانفرادى ونهايتـه فضل يكتب ويزوم ويكتب ومحسوبكم واقف قدامه (لاهو عارف السما م العما) وبعدما ستف المحضر بعتنى على الزنزانه وأمر انى أقعد فيها لوحدى يعنى حبس انفرادى آكل عيش وميه قعدت على «هاذوها» الحاله زى خمستاشر يوم منهم سبعه على الميه والعيش والباقي بالفول والسوس لكن من غير شغل وابص والقى المأمور طالبنى أروح جلسة التهمه الزور . . . . خادنى واحد عسكرى وفي إيدى الكلبش (طبعاً) وتلتنا ماشيين لحد القلعه خدنا الترمواى وعلى المحافظه دخلنا على أودة المحكه وقعدت مع المتهمين لحد مانده الحاجب اسمى وقفت جوا القفص بصيت القاضي لقيته جدع حليوه عمره يجى سته وعشرين سنه يعنى من دوري وقال لى اسمك فلان وعمرك كام والسين والجيم اللى انتم عارفينها ودخلنا في الجد قال لى انت ليه ياولد البعيد بتضرب السجان وتهين المأمور قلت له أبداً ياسعادة البيه لاضرب حصل ولا إهانه..غايته ان السجان من دول عاوز المسجون « يعبده » ويقر ان مافيش إله غيره والمأمور مساعدهم على كده وراخر أسخم منهم وانا حماديهم على ايه مش بزياده ذل السجن قال لى ـــ يعني بقى ماحصلش منك لا ضرب ولا اهانه ولاعدم اتباع القوانين قلت ياخبر أسود أهي القضيه يا جناب البيه ولدت قضيه اسمها عدم اتباع القوانين أقول لك ياسعادة البيه أنا دماغى بتوجعنى مادام العباره ظلم في ظلم ضربت وأهنت وخالفت وعملت كل حاجه .. دا نتو كفرتونا ياعالم هو حياخد الروح الا اللى خلقها وطبيت ساكت. فضل صاحبنا القاضي يكلم اللى على شماله شويه واللى على يمينه شويه وكان كل دقيقه يطلع عليه زغيره معرفش

هوه مشي وهيه رجعت قالت سعيده يامعلم . ازيك سلامات. قلت سعيده وفوقها « صفيحة بنزين » . قالت الله ايه الكلام المودة ده. قلت لها ليه هو انا « مخالف » والا بكلمك وانا « على الشمال » . ! قالت لى بلاش دلع انا عايزه اللحمه خليني امشى . قلت لها والله أنا بطلت أبيع « لحبيبه » علشان انتي دلوقت مغرمه فى « سواق السقاله » . قالت لا أبداً . انته مش بالك من الافندي اللى كان ماشي معايا دا سواق عند ستّ من الجيران قابلني صدفه ومشي يكلمني . قالت عال بقى سواق « وموصلاتي » . ياميت « غلق » أتاني حلاليف الدنيا كتير . غوّرت وشها وإدتها اللحمه وخدت الفلوس وزقت شطبت الدكان ورحت . نمت وقمت « عدوكم » دايخ ومهمد « خزّنت » في البيت يومين . جانى المعلم شافني ونزل جاب واد حكيم . دخل الحكيم وبص لي وهوّ « مكشر » وفتح « الشنطه » وطلع منها ما اعرفش ايه وراح مدخلها في بقي وقال مسكين ! قلت لنفسي مسكين ياخرابي لازم حموت ؟ الغرض كركب مصاريني وكتب ورقه وخرج بعد ما لدع[1] خمسين ساغ . يوم اتنين تلاته ورابع يوم جه ودخل عليّه رحت قايم وقلت له عايز ايه؟ اقال أنا جاى أشوف صحتك النهارده إزّيها. قلت له صحتي زى « البمب » وب رهان انا ياعيان حاخبطك قلم ان قمت من الارض أنا لازم أسم نفسي وأموت عشان ما اشفش واد من طايفتكم. ياخطافه دانتو تجيبوا العيا الواجد « بالعافيه » خرج رحت لابس بلغتي ولافع لاسى ونزلت ع الدكان وفضلت شايف شغلي لاخنا، ولا عرالشم البيت للدكان وم الدكان للغرزه أشرب التعميرتين وأتنى مروّح لحد ماهلت سنة ١٩ وكانت سنه سوده يعلم بيها ربنافات شهر والتانى وجه شهر مارس «مخندس[2]» لا « شيكات » ولا « فنجره » . حجز وتفليسه وخراب بيوت بقي الواحد منّا مدارى[3] في حيطان الدنيا . فى الشهر ده رحت بيت واحد زبون « بالشهريه » أطلب منه فلوس وكان ساكن في شارع السكاكيني جنب بيتّ ناشد بيه حنا . وانا ماشى صدفه قابلني الواد السواق إياه قاعد عند واد

(١) أخذ (٢) ليس فيه أخذ ولا عطاء (٣) مختبيء

«عجلاتي» لما شافني قام وقال لي مش انته (الجزار) اللي رحت عندك من كام يوم. قلت له أيوه وعايزايه . ؟! . قال انا «جايه» . قلت له «على بلغتي». قال انته مش عارف ان الست اللي كانت بتيجي عندك «صاحبتي» قلت له «واللّه واخلي». قال لي انته بتكلمني كده ليه ؟! . قلت له وا كلم اكبر شنب في حتتك[1] اذا كانت دي حتتك «يالوح» روح من قدامي احسن اخليك (حتت[2]) ياخنس مابقاش الا واد زيك يقف قدامي . ورحت زاقه راح مرمى فوق (الدكه) اللي كان قاعد عليها وفي الحقيقه ياجدعان كان قصدي الخبط به الارض ولكن عيب يقولوا اضرب عيّل[3] سيبته وتني داخل بيت (الزبون) سألت عليه قالوا (البيه) مش هنا مش هنا ؟ باينها (تهر يبه) ودي عادة الجماعه الاغنيا . الحق عندهم صعب . هي الدنيا بتهون الا على الفقير اللي زي حالنا . مش هنا مش هنا . زي بعضه الحكايه بسيطه مصروف « سكرة » ليله ماشي تني نازل على الحسنيه لقيت الترمايات «مزشومه[4]» بتلاموذ[5] عمـا لين يزعقوا[6] يحيا الوطن. يعيش سعد باشا زغلول. تعيش مصر حرّه . أقول لك الحق أنا قلت ان القيامه لازم قامت . لاخدت ولا اديت ودخلت الحسنيه لقيت «طفة[7]» مشايخ «مجاورين» وتلاموذ «أفنديه» ويحيا ويعيش وكلام من ده . أنا قلت يا واد لازم تشوف الحكايه ايه : سألت واد افندي قالوا ان « الانجليز » حبسوا سعد زغلول باشا . قلت له وسعد باشا ده يبقى مين ؟! قال لي ان سعد باشا وشعراوي باشا وعبد العزيز فهمي وحمد باشا قاموا الكل يطالبوا بخروج الانجليز من مصر قاموا حبسوهم قلت . عجيبه. بقى لازم دول رجاله تمام ورحت ماشي وياهم ويحيا سعد باشا وبقيت زي مايقولوا م أقول لحد مارجعوا تاني في شارع الترماي بتاع العباسيه وشويه وهجمت عليهم عسكر مانش عارف الحكومه لمّاهم[8] ياخويه منين دول يضربوا بالعصي ودول «يحدفوهم» بالظلط . أقول لك الحق « التلاميـذ جدعت » ومشيت برده ويحيا ويعيش

(١) جهتكم (٢) قطع (٣) ولد صغير (٤) مملوءة (٥) طلبة المدارس (٦) ينادوا (٧) جماعة (٨) حشدتهم

لحد «عن الوايلي» حرج لنا واد ظابط «مسلوع[1]» وقال لهم عيب ياغجر . وعنها شويه شويه كانوا حيا كلوهاله . خدها من أصيرها وتنوا داخل عالعربجانه بتاعته فضلوا ماشيين لآخر الخط عند الكوبري وراحم «شحنين» الترمايات وسوق ياسواق «هوا» حالا القطرات مشيت « وصهينوا » عن قطع التذاكر لحد « عن الاربكيه » وخرجت العسكر بعصيها الطويله وكل واحد منهم حاطط على دماغه طاسه الخضه[2] جريت التلاميذ عقلي قال لي ما بدهاش روح بعي طلعت من شارع نوبار وغزمي على المرواح لقيتهم يا أخي معرفشي إزاي «اتلموا[3]» تاني وتنهم ما شيين بالظيطه إياها لحد شارع « بولاق » واستلموا الترمايات وعلى المباسيه تاني جيت لحد باب الحسنيه وقلت لهم كتر خيركم وصلتوني سعيده بقى ومشيت على قهوة « بندق » لقيت الناس ما فيش في بقهم غير التلاميذ وسعد باشا زغلول قلت السلام عليكم . ردوا السلام وسألني واحد منهم انته كنت فين . ما شفتش التلاموذ عاملين إيه ؟ . قلت له : حقبه يا بو عرب دول ناس يستاهلوا السلامه ينصر دينهم . وقعدنا كل من قدره ربنا على كلمه قالها وقمنا روحنا . صبحت الصبح ألقالك العسكر اتنطورت[4] في الشوارع وهات ياضرب في «الخلق[5]» . وفي التلاموذ « ولدات مستبيعين» . الواحد منهم يخش على شلة العسكر « يقلب » فيهم والفرض هرؤوهم وانا تني ماشي على دكاني فتحتها وقعدت شفت شغلي . وبعد التشطيب رحت ع القهوه وأول مادخلتها قلت لتحيا التلاموذ . ردوا لتحيا التلاموذ . قلت ليحيا سعد زغلول باشا العتره[6] . قالوا ليحيا سعد باشا العتره . وقمنا زي ما احنا شله واحده ومشينا من القهوة واحنا نزعق بالكلام اللي بالك فيه وشويه أبص ألاقي في وسطنا تلاميذ معرفش جم منين أنا قلت والله العظيم جدعان . تنا ماشيين من الحسنيه على باب الفتوح على الغوريه على باب الخلق . استلمونا العسكر وهات ياضرب رحنا رافعين الشوم

---

(١) نحيل الجسم (٢) قبعة من نحاس (٣) اجتمعوا (٤) عسكرت أو وقفت (٥) الناس (٦) البطل

واتصدرنا . الله مسكوا التلموذ من وسطنا حكم . لازم نسيبه ؟! .. الله عيب . هو ماشي في وسط نسوان ؟ ! . داحنا رجاله. هجمت على العسكر اللي ماسكينه وقلت لهم ـ سيبوه عليّ الحلال(١) لتسيبوه. سيبوه وامسكوني أنا . قالوا لي إمشي لشغلك ياجدع. قلت لهم أنا ليه شغله غير كده. قالوا انت ياراجل مجذوب . قلت لهم أنا مجذوب في حب (سعد باشا المملكه) ورحت (هازز) أتخن عسكرى فيهم وقلت له قول* (يحيا سعد باشا المملكه) قال لي روح لشغلك . قلت له شغلي إيه ؟ . ورحت شايله وناكته في الارض . هاجت العسكر (وفات) عمنا (التلموذ) أنا شفته طار وقلت لعقلي خلص نفسك ماتبقاش زى العصفور اللي أكل الدوده ووقع نفسه في الفخ . قلت لهم أنا بس صعبان عليّ التلموذ وانتم ماسكينه حتموتوه . رد الظابط بسلامته وقال هاتوه . ساعتها أنا قلت « هات ياجرى » لان اياميها كانت « سلطه انجليزيه » لا فيها (محامى) ولا كفاله ولا ضمانه وحرام أنسجن (أو نطه(٢)) عشان يحيا ويعيش . نهايته (نفدت) وخدتها ياخلي من باب الخلق للحسنيه (كعابى(٣)) دخلت البيت على آخر نفس وليلتها وحياة الباتمه نمت من غير عشا . صبحت الصبح سايخ ودايخ وعنها خبطت (٤) رغيف بفول وزبده(مسح زور)وخرجت من البيت (حبست(٥))بفطيرتين من عند عم (بعجر) . خلوني إزاى؟ أسطه(٦) . رحت الدكان. وحلفت يمين لو اتلميت على بتاع الناس لغاية الساعه اتناشر لازم أعمل مظاهره لها العجب ولو يكون شنتي من تحت راسها . جت الساعه اتناشر وصبحانك يارب والنضافه من الايمان . شطيت وعلى طول لميت(٧) لك رجاله تسد عين الشمس. وحتة دين مظاهره استشاعت لها الدنيا (ولحت) الخياله (البهلوانات) . طب (ولفه) حال لحد ما وصلنا (المدبح) زاد العدد . إلا وابص ألاقي عسكر انجليز جايين في أتريبل(٨) وقفنا ونزلم كل واحد معاه بندقيته . وجون. قربت عليهم وقلت لهم

(١) قسم عند « الفتوات » (٢) دون ان ارتكب ما استحق لاجله السجن
(٣) على أقدامي (٤) أكلت (٥) اكملت (٦) على مايرام (٧) جمعت (٨) سياره

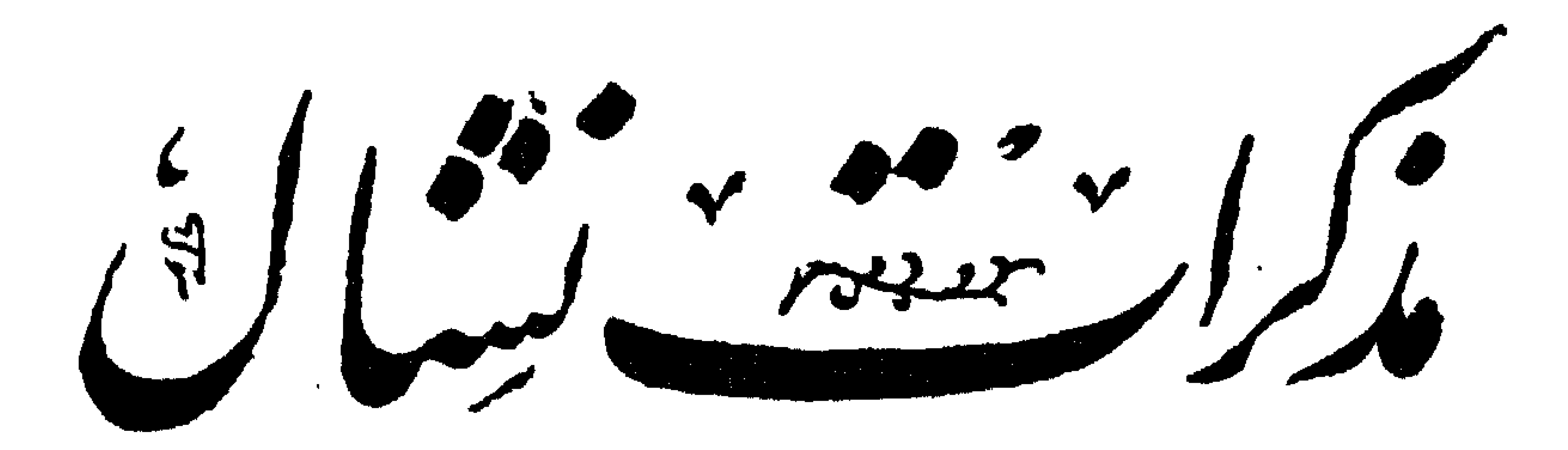
جون إيه وسخام إيه . هيّه الحكايه عانيه دا الصلح خير . تخونكم مية النيل اللي طفحتوها . أنا قلت كده وراح واحد منهم راقعني بكعب البندقيه في صدري . قلت له اخشى (ياجونى) أحسن بعد الهزار تبقى جد . راح مناولنى التانيه . خدتها وسكت لأن (العمر مش بعزقه) . كله في حدوته أروح شحته في حمام وعلى إيه (تخدم على راحتهم) مش كده والا إيه؟ . الغرض اتفرقنا وكأن قصدنا اتنانيلقهم [1]همّه مشيوا واحنا رجعنا تاني زي ما كنّا وأزيد يا أخي مافيش ربع ساعة الا والاقي العسكر بالاتو بيلات (حدّقت[2]) علينا وهات ياضرب نار اللي قلبه خفيف وخايف على روحه جرى . واللي مستبيع فضل مطرحه . ابص الاقى فلان واقف راح مرمي وطلع (السر الالهي) . كنت وقتها بسلامتي واقف مركون على عربيه (كارو) كان معلق فيها حمار) . هفت رصاصة من جنب ودن محسوبكم وجت في الحمار راح (مكوع[3]) وقف صاحبه «يلطم» ويقول آه ياحمارى أجيب زيك منين ياحماري . رحت «راقعه[4]» قلم وقلت له بقى يانذل البعيدماعيطلتش[5] على «الخلايق» اللي اترمت دى وبتعيط على الحمار أما حقيقى تستاهلوا أكتر من كده . «كبسوا» العسكر طارت الخلق عال ودون وكبير وزغير رحت ماشى على مهلي ابص فى وش كل واحد من اللي «انتهى أجلهم» وبعدها بصيت للسما وقلت بقى يارب . ده يرضيك . ناس زى دول يجوا في بلادنا ضيوف يبهدلونا البهدله دي كلها .!. أنا سايح في أفكاري الاوابص ألاقي واد عسكري انجليزى جاى جرى ناحيتي وراح راقعني حتة تتفة (شلوت) في الليان رحت قافش «البندقيه» بتاعته على طول . انما . سكه من حديد وقلت له شوف بقى أنا قادر أسخطك ولكن انتم ضيوف وعيب نهينكوا وانتم ف بلدنا اخشوا وسيبوا البلد . كل ده وأنا بردك ماسك (البندقيه) لاحسن يقل عقله ودا واد بن (خاطيه) ومغفل يمكن يخبطنى رصاصه اروح دوشار وانا لسه مادخلتش دنيا [6] ولا فرحتش بشبابي بصيت للعسكري وضحكت من غلبي

(١) تعشيهم (٢) حاصرتنا (٣) وقع (٤) ضربته (٥) لم تبك (٦) لم أتزوج

الملحق الثانى عشر

مذكرات نشال – صورة من أخلاق
وعادات النشالين وحيلهم وأساليبهم فى النشل

المعلم عبدالعزيز النص: مذكرات نشال، المكتبة الملوكية بمصر ١٩٣٠، ص١١-١٧.



« قصة انتقادية فكاهية تعطيك صورة من اخلاق وعادات النشالين »
« وحيلهم وأساليبهم فى النشل قصها بطل وقائعها المعلم عبد العزيز النص »
« النشال المشهور على صاحب جريدة لسان الشعب وطلب منه نشرها »
« فلبي طلبه ونشرها له فى هذا الكتاب لما فيها من فائدة وتفكهة للقراء »

تأليف

المعلم عبد العزيز النص

ثمن النسخه ٣ قروش صاغ

حسني يوسف

صاحب ومحرر جريدة لسان الشعب بمصر

(الطبعة الاولى سنة ١٩٣٠)

تطلب من المكتبه الملوكيه بشارع محمد على بدرب العوالم نمرة ١٨ بمصر
ومن فرعها بشارع الصناديقيه بجوار الازهر الشريف بمصر
وتطلب منها

علشان يعلمني ويمرني عالشغل

نهايته بعد عشر تيام بقيت غال والسطه استلمت البدله والقايش . والكبود . والشنطه. والترمواي والزماره : وبقيت كمساري لا وشك ولا ضهرك

-٣-

فضلت اشتغل في الترامواي تمن سنين لحد ما اتمليت وقرفت من ميشتي. كل يوم قطع ماهيه .ويوم والتاني ووقف اربع تيام

مره اندي واحد من غير تذكره .ومره ازمر وواحدمن الركاب نازل يروح متعور . يشهدوا عليه ثلاثة اربعه نهايته . بقت ميشتي قرف ووجع قلب خالص

جينا في يوم عملنا اضراب .رحت طالع وخطبت عتة خطبه بنت كلب لعنت فيها مدير الشركه . والشركه . واللي عملها . راح ابن الحلال وقدم الخطبه من اولها لآخرها للمدير. وعنها وراح رافتني وبعد تلات ايام مافيش غيرهم سلمت البدله. والزماره .والعهده وقالوالي بعد خمستاشر يوم تبقى تيجي تأخد مكافأتك . بعد الخمستاشر يوم رحت استلمت التأمين بتاعي . وعليه عشرين جنيه مكافأه. فرحت بيهم فرحة الدنيا. وتني ماشي عالبيت فضلت

مكوّع . كل يوم من البيت للقهوه. لحدما برّموا القرشين. واصبحت زي اليهودي في يوم السبت. عقلي قال لي وايش بعدها ياعبدالعزيز مش الاحسن انك ترجع لكارك. وبالحقيقة هوه اللي اولى بك ولكن ايه العمل في اليمين اللي حالفته بالطلاق من مراتي اني ما ارجعشي للاشغال . اعمل ايه أسوي ايه ؟. احترت في امري وضاقت بيه الحالة. أروح فين. أجي منين؟ امشي كده الاقي الشالين عماله تشتغل شغل جدّ منه فيه. والفلوس صالين يلعبوا بيها لعب. فلوس جيه لهم من غير تعب

رحت الجامع الازهر وقابلت راجل فقي كبير بدقن كبيره ورحت موطي على ايده وبايسها. راح صاحبها مني بعد امهتها كويس خالص. وقال استغفر الله العظيم استغفر الله العظيم ازيك يابني. قلت له الله يسلمك ياسيدنا الشيخ . انا والله جاي لك في مسألة مهمة قوي: اتنحنح الشيخ وملس على دقنه وقال ـ خير ان شاء الله يابني قلت له ـ مش يتفضل سيدنا الشيخ معايه نقعد في القهوة اللي بره عند الحسين شوية واقول له المسأله بص لي الشيخ باستغراب وقال ـ استغفر الله العظيم يا ابني انا ماقدرشي اقعد على قهاوي ابدا دي القهاوى بيوت الشياطين قلت له. امال نقعد فين علشان نتكلم بحريه. قال لي. انت مالكي بيت؟

قمت له ليه اتفضل بينا وسحبته من ايده لحد ما وصلنا للبيت . قعدنا
وجت القهوه شربها واتعدل فى قعدته واتنحنح وكح كام مره وقال
ايه مسألتك يا ابنى . قلت له ـ المسألة ياسيدنا الشيخ انى حلفت
يمين بالطلاق من تيتى انى ما اعملشي حاجه . ودلوقتي ضرورى
خالص عاوز أعملها قال لى . تقدر تقول لى ايه هيـه . اتلخبطت
اقول له ايه ؟ انى عاوز ارجع للنشل . ما يصحش نهايته قلت له
انا حلفت انى ما اشتغل مع عمي . ودلوقتى ضرورى لازم اشتغل معاه
هز الشيخ راسه . وملّس على دقنه الطويله وبلع ريقه . وقال
دى مسألة جميصه قوي خالص . عاوزه تعب كبير . ولازم افتش
لك فى كل كتب الفقه واشوف لك ابن عابدين قال ايه . وملا مسكين
افتى بأيه والامام ابن حجر والرملي اشاروا بأيه واطلع عالمدونة الكبري
بتاعت الامام مالك . والتدوير ده يحتاج لتعب كبير . وعطله طويله
تخليني ماقدرشي أدور على معاشى كام يوم . رايح تدينى كام على كده
وربنه انى مستغرب خالص من طلبه اجره على فتوته . وقلت له
أزاى بتطلب اجره يا سيدنا الشيخ هوه انته ما تعرفش اذ سيدنا
النبي عليه الصلاة والسلام قال اللي ينسأل عن حاجـه فى الدين
ويعرفها ولا يقولشى عليها المسلم يلجّمـه ربنا يوم القيامه بلجام من
نار حمرا . اما غريبه قوي ياسيدنا الشيخ هو انا حا اقعد اعدلك قا

فضحك ضحكه غصبن عنه وقال . أقل شيء من الفلوس فيه البركة منك فمديت ايدي بربع ريال. وغمزته بيه فظهر الانبساط على وشه وابتسم وقال . والله انته يا ابني يابن مليك ابن حلال. دلوقتي اهوه افتكرت لك فتوى ءال . وبسيطه خالص اليمين بتاعتك تقدر تفديها بأنك تأكل ٢٠ واحد مسكين بس وتنتهي المسألة على كده . قلت له ـ صحيح ؟ قال لى ـ ايوه يا ابنى قلت له ـ طيب واجيب المساكين العشرين منين ؟ ـ قال انا اجيبهم لك قلت له ـ امته ؟ قال ـ النهارده المغرب تجي عند الازهر تلقانى لامهم لك

دخلت على مراتي واستلفت منها جنيه ونص كانت موفراهم لوقت الزنقه. وتني خارج مع سيدنا الفقى لحد ما وصلته ورجعت اشتريت خمستاشر رطل لحمه ضاني. وشوية سمن وخضار على عشرين رغيف جرايه كبيره. ووديتهم عا ليت ومراتى ندهت لاتنين نسوان من جيرانها. وهات ايدك مسافة ساعتين كان الاكل جاهز

خرجت انا على الازهر لقيت الاستاذ لامم لى عشرين شحات من تحت السلاح . واردام العواجز . والحسين والامام . والمتولى. اللى اعرج .واللي اعمي واللي اعور . نهايته وصلنا البيت فرشت لهم حصيره في الحوش وحطيت قدامهم الاكل والشرب. وطلعت انا والشيخ اكلنا احنا رخرين لما انبسطنا. وبعد ما انتهوا

الشحاتين م الاكل أديت كل واحد منهم قرش صاغ وهوه خارج. واديت للشيخ واحده بخمسه تانيه .تنه خارج هوه وجيشه وكلهم عمالين بدعوا لى بالخير والسعاده وسعة الرزق

— ٤ —

الجماعه الشحاتين خرجوا من هنا وانا اتلايمت على جلابيتى الجوخ الجديده والطربوش والبالطو والجزمة ورحت لابسهم وفي مسافة ربع ساعه. كنت واقف قدام شباك التياترو بتاع على الكسار عمال افتش لي على صيده تكون مكن علشان اجيِّن جيوبى الفقرانه اللى ما فيهاش ولا قرش بوحد الله

فضلت ملطوع جنب الشباك يجى نص ساعه وكسور. انى التقى اللى عليه العين تبكى. ابدا قال لى عقلى سيبك يا واد م الركنه دى وعلى رأى المثل. الرزق يحب اللَخْلَخَة. امشى لك شويه .مشيت لحد ماوصلت سينما الامريكانى. انا بقيت قدامه ولمحت حتة افندي من اللى باين عليهم انهم بيحوشوا. والصنف ده احنا نعرفه فى الحال ولا يخفاش علينا. لانه ده كارنا. يمكن الواحد منا يقابل واد افندى شيك ابهه. لابس بدله من عند ديفز براين .والا ديليا . ومنديله التوت عنخ امون. طالل من جيب جاكتته القدّمانى. وجزمته ملمعه تشوف فيها وشه الجيل المنتف بالفتلة. وطربوشه الاحمر اللى

رايح ياكل حته من وشه. يقوم الواحد الفشيم. اذا شاف بتاع زى ده يفتكر ان القبه فيها شيخ. يروح قاطره. وبعد مايطلع عنيه فى مشى وأرف. يضرب عليه يلتقيه انضف من الصيني بعد غسيله ويمكن واد خيان غلبان زى اللي قطعت انا عليه يمكن يكون هوه اللي فيه الخير والبركه. نهايته مشيت ورا صاحبنا شويه مايحه لحد ما وصلنا موقف الترموا اي بتاع المترو. راح واقف فى وسط الزحمه رحت جي لابدوراه. وفى حركه بسيطه قلبته. ونتشت منه المحفظه وقلت يافكيك. ولحت الترموا اى ماشى من جنبى رحت متشعلق فيه لحد ما وصلنى عند محطة باب الحديد. رحت نازل منه ومخرّم عالجنينه اللي فيها تمثال خيبة مصر بتاع مختار. بصيت يمين وشمال ما ألتفتش صريخ ابن يومين. رحت مطلع الامانه من جيبي وقعدت على كرسي خشب مِدَغْدَع كان محطوط هناك. وكان القمر فى السما مِزَهْزَه قوي ونوره اللي زى الفضه فارش عالدنيا ومنورها من أولها لاخرها.

فتحت المحفظه وقلبي عمال يطكطك. وانا مقدار انى رايح التقى فيها بالميت عشره اثنا عشر جنيه. اتابي نقبي جه على شونه فاضيه. لانى لقيت فيها بعيد عنكم وربنا لم يوريكم خيبة زي خيبتي. تلاته صاغ ملاليم. ونكل وقرش خردة بروكه. وحتة ساعه

قـديمه بنت كلب واقفه بقالها ـ ت اشـهر لو راحت سوق
العصر ماتجبش افرنك وسبحه خشب تسوى ثلاثه مليم وتذكرة
عند البربرى درجة أعلا التياترو . فعرفت ان بختى متندل بنيله
زرقا. وقلت فى نفسى صدق اللى قال (قليل البخت يلتقي العضم
في الكرشه)

— ٥ —

قمت من عالكرسي وانا دابغ وسايح من الارف ومتغاظ من
ابن الكلب ده اللى اتمشيت فيه وافتكرت انه ياما هنا وياما هناك
. وانا بيه مفلس وما نابنيش منه حاجه غير التعب في الجرى والشمبطه
والزوغان

مشيت اقدم رِجْل وأخر التانيه مانيش عارف اروح فين
قال عقلي خش التيا ترو بالتذكره سلي غلبك شويه .

تنى ماشي لحد التياترو وقدمت التذكرة وتنى طالع على اعلا
وقعدت . ولجل البخت جت تعدني جنب مره تخينة لابسه ملابه
اف وضربه وشها سنين صرمه . احمر وابيض وكحل وغيره
وبصيت لاْيديها التقيتها مليانه غوايشات بقشره. لو كانم دهب كانت
طلبت م المحافظه انها تعين لها غفير علشان يحرسها . لانها
كانت عباره عن دكان صايغ تقالى نهايته خلص الفصل الاولاني وجت

الملحق الثالث عشر

الفتوات – العصبجية – المشاديد
وآداب العراك فى الجيل الماضى

حديث للبشرى أذيع بالراديو فى ٢٩ ديسمبر ١٩٣٤ ونشر بالجهـــاد بعد ذلك: عبدالعزيز البشرى: المختار، الجزء الثانى، دار المعـــارف بمصر ١٩٥٣، ص ١٣١–١٣٧.

آداب العراك فى الجيل الماضى*

سيداتى ، سادتى :

لقد أمسى من حقكم علىّ ، بعد إذ وليت الحديث فى جدّ القول أسابيع طوالاً ، أن أعمد هذه الليلة إلى مفاكهتكم ، والتحدث إليكم بما أحسب أنه لا يُملكم ولا يُضجركم ، إلى ما لعل فيه بعض الفائدة بتجلية بعض نواحى التاريخ الحديث .

وموضوعُ حديثنا الليلة هو : (أدب العراك فى مصر فى الجيل الماضى) . والعرب كانوا يُطلقون كلمة (أدب) فى بعض إطلاقاتها على معنى القانون . فيريدون بأدب الشىء قواعده وتقاليده . وعلى هذا دّعوا قانون الجدل والمحاورة ، بعلم آداب البحث والمناظرة . كذلك أريد بأدب العراك : فلقد كان للعراك فى مصر قوانينُ محترمة ، وتقاليدُ مرعية ! .

وفنّ (الخناق) على تعبير أصحاب الشأن : فى مصر قديم يكلّف به أولاد البلد ويتباهون ، إذ كان يُعتبر ضرباً من الفروسية : والسعيدُ السعيدُ من يذهب له فى (الخناق) صيتٌ وذكرٌ فى البلد . بل ربما شارك فى هذا بعضُ أولاد (الذوات) فيشمرون ليوم النزال : ويتقلدون (الشوم) للحرب والقتال .

وليس يغيب عمن قرأ التاريخ الحديث منكم أن بونابرت حين بلغ بجيوشه إمبابة فى طريقه إلى مصر : استنجد الأمراء المماليك بالأهلين : بعد إذ تخاذلت جنودهم ، فخرج له أولاد الحسنية بعصيهم : ونازلوا الجيش الفرنسى فحصدتهم مدافعه ، مع الأسف الشديد . حصداً ! .

وهؤلاء الأبطالُ يُدعون (الفتوّات) جمع فُتوّة . أو العصبجية جمع

---

* أذيعت بالراديو فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٤ ونشرت « بالجهاد » بعد ذلك .

عصبجى . وكان فى كل حىّ من أحياء القاهرة فتواته . فللحسينية فتواتها ، وللسيدة فتواتها ، وللخليفة فتواته ، وهكذا . ولفتوات كلّ حىّ زعيمهم ، والمتقدّم فى البطولة عليهم ، لا يُعصى أمرُه ، ولا يخالفُ حكمه ، وهو الذى يدعوهم إلى الصراع ، ويدبر لهم الخطط ، ويقودهم فى المعارك الكبرى ، فإذا كانت المعركة مما لا يرتفع إلى شأنه ، عقد لواء السرية لمن يختاره ممن قبله من الفتوّات ! .

وكان لكل فتوة (مشاديد) ، جمع (مشدود) ، وهم من أنصاف الأبطال الذين ينتسبون إليه ويلوذون به ، ويحتمون باسمه ، والويلُ كلّ الويل لمن يعتدى عليهم ، أو يعترّيهم بالمكروه ، فإن الاعتداء على أحد منهم يُعتبر اعتداءً على الفتوة نفسه ، لما فى ذلك من الغضّ من كرامته ، والاستهانة بحمايته . وعلى هذا كان من أشد التحدى للفتوة أن يقال لمشدوده : ينعل . . . على أبو اللى يشدّدلك ! فسرعان ما تشب لظى الحرب ، ويتواثب القرنان للطعن والضرب .

وكانت العداوات مستمرة بين بعض الأحياء وبين بعض ، فلا يبيت الموتور منها إلا على تهيؤ لشفاء الحقد ، والأخذ بالثار . ولقد يتحالف الحيان على ثالث إذا جمعهما الحقد وضمهما الوتر ! .

وممن أدركنا عصرهم من أعلام فتوات الحسينية والعطوف : المرحومون عتريس ، وحكورة ، وكسلة . ومن كماة الخليفة : كم العرى ، والملط ، ويوسف بن ستهم . ومن أقطاب الكبش وطيلون خاصة : بلحة ، والقولى . أما أبطال السيدة فهم المرحومون : ممبوك ، خليل بطيخة ، الإن ، وإءّة . وكان رحمه الله أعمى ، وعلى أبو ضبّ ، وأظن أن هذا الأخير ما زال حياً ، فقد رأيته من بضع سنين ، وقد صلحت حاله ، وهو يُدير قهوة بلدية فى ميدان زين العابدين .

وسلاح كل فتوة وعدته للحرب عصاً أو عصى من (الشوم) يداور بينها

فى الخناقات ، وترى كل واحد منهم شديد التتايه بعصاه ، كثير الذكر لها والإشادة باسمها . نعم باسمها فلقد كانوا يطلقون عليها الأسماء . فمن العصىّ الحاجة فاطمة ، ومنها الحاجة بمبه . وهكذا ، وربما سقوها الزيت بتثبيت قمع مفتوح على طرفها الأعلى وملئه زيتاً ، وتركها على ذلك أياماً حتى يتمشى فى شعوبها ويشيع فيها ، فتزداد قوة وصلابة على الطعان والضراب . وقد يزوّق مقبضها بالحناء .

سيداتى . سادتى :

لست بحاجة إلى القول بأن مظهر هذه البطولة هو ،فى جراءة القلب وقوة الساعد ، والمهارة فى الإصابة ، واللباقة فى اتقاء الضربة بالعصا أو بالتحرف عن مذهبها . وكل هذا يحتاج إلى كثير من التدريب والتمرين . ولكن الذى يحتاج إلى البيان هو لون خاص من البطولة . وهو الكفاية الهائلة فى احتمال أشد الضرب ، وطول الصبر عليه واقعاً حيث وقع من أعضاء الجسد . ولهذا النوع من البطولة قيمته وسداده وغناؤه إذا حمى الوطيس . فإن الفتوات ليقدمون هؤلاء الأبطال بين أيديهم ليتلقوا عنهم بأجسامهم أكبر كمية من الضرب ، حتى يستطيعوا هم أن يصرفوا أجل هممهم لإجالة العصىّ ذات اليمين وذات الشمال .

وكان علم الأعلام فى هذا النوع من البطولة من فتوات السيدة هو خليل بطيخة . عليه رحمة الله . فقلّ أن كان يخرج إلى (الخناقة) وهو يتقلد عصا ، ولو تقلدها ما أحسن استعمالها . ولعلها كانت (تلخمه) فى ميدان القتال . وإنما سلاحه كله ، سلاحه الماضى هو جسمة القوى الصفيق !

ولقد رأيته بعينى وأنا غلام بعد منصرف الناس من الصلاة فى جامع عمرو فى يوم الجمعة اليتيمة . وقد اجتمع عليه وحده نفر من فتوات الخارطة وأبى السعود . فى أيديهم عصيهم الغليظة ، وما زالوا يتهاودن بها على جسمه بأشد ما فيهم من قوة وبأس . أما هو فقد دس رأسه فى صدره . وأسرع فتكور على الأرض حتى صار أشبه بلقبه (بطيخة) ، وجعل يتلوى تلوى الحية ، حتى

ظن النظارة أنه هالك لا محالة . ثم ما إن أقبل البوليس بعد فترة طويلة ، وفر أولئك الفتوات عند مرآه شرقاً وغرباً ، حتى بسط جسمه ووقف فى أسرع من رد الطرف. وكأنه لم يُكلَّم كلما ، ولم ينله كثير ولا قليل من أسباب الإيجاع والإيلام ! ومضى لشأنه وهو يتحدث عن بطولته ، وعما يعد للأخذ بالثار من من أولئك الأعداء ! .

• • •

وكانت خير الفرص لشب (الخناقات) هى فى الأعراس ، حيث يحتفل بإقامة (خناقة) فى النهار فى زفة العروس ، وأخرى فى الليل فى زفة (العريس) .

أما معركة النهار فلم يكن خطبها جليلاً ، إذ لا يخرج لها الزعماء ، ولا المقدّمون ، بل يكتفون فيها بتعبئة أوساط الفتوات، فيخرجون إليها ومعهم بعض الغلمان . ويتوارون فى زقاق أو منعطف ، حتى إذا أقبل موكب العروس بعثوا أولاً أولئك الغلمان ، وفى يد كل منهم ما تيسر من عصا رفيعة ، أو (زعزوعة قصب) ، أو قبضة من الحصا . وهؤلاء الغلمة يُدعون (جرّ الشكل) ، فيقذفون المركبات بالحصى ، ويتعرضون بالعصيّ لأحراس الموكب ، حتى إذا صدهم هؤلاء وضربوهم، برزت الكتيبة من مكمنها وأدارت رحى القتال ، بدعوى الثأر لهؤلاء الأطفال .

سيداتى . سادتى :

إذا حدثتكم عن المعارك الجلى التى تدور إذا كان الليل فى (زفات العرسان) ، فإنما أحدثكم عما كان يحدث فى حى السيدة زينب والأحياء المحيطة به . ولعله صورة مما كان يحدث فى سائر الأحياء .

كانت هذه المعارك تدبر من قبل ليلة العرس بأيام . فيعد لها الخصوم عدتهم من جهة ، ويتأهب لها أولياء (العريس) وصحبه من جهة أخرى . بل لقد كان هؤلاء فى كثير من الأحيان يدعون لها ، ويُغرون الخصوم بها ، ويستدرجونهم إليها . لأن مما يعيرّبه أهل العُرس من ذلك الصنف من الناس ألا

تجوز (زفة عريسهم) الشوارع فلا يتعرض لها أحد بالمكروه ، فذلك دليل على تهاونهم واستحقار شأنهم ، وإخراجهم فى الاعتبار عن أفق الرجال ، فضلاً عن الأبطال !

وكانت (زفة العريس) ، واقعة حيث وقعت داره من آفاق ذلك الحى ، لا بد أن تجوز بمسجد السلطان الحنفى والشيخ صالح أبى حديد . وهناك يقع الصدام والطعان ، ويتهاوى (الشوم) على رؤوس الأقران فى هذا الميدان ! .

ولقد زعمت لكم أن أولياء العرس قد يدعون ، فى كثير من الأحيان ، إلى العراك ، ويستدرجون الخصوم إليه ، وأكبر مظهر لهذه الدعوة هو أن يقدّموا بين يدى الموكب ما يدعونه (بخاتم سليمان) ، وهو عبارة عن قطع خشبية متخالفة أقطارها . بحيث تتخذ الشكل الهندسى الذى يطلق عليه فى العرف (خاتم سليمان) . وكلها ثقوب محفورة على مسافات مضبوطة ، تُثبت فيها كعوب الشمع المضاء . ويحمل كلّ واحدة من طرفيها رجلان أو فتيان . وفى حمل هذه الخواتم السليمانية معنى التحدى للخصوم ودعوتهم إلى العراك !

وعلى قدر الرغبة فى قوة العراك . وشبّ القتال ، يكون عددُ تلك الخواتم ؛ فمن الناس من يقدم الاثنين ؛ ومنهم من يقدم الثلاثة . ومنهم من يضاعف هذا المقدار . إعلاناً للسطوة وإيذاناً بالرغبة فى استحرار القتال ! أما المستضعفون من الناس . فلا يقدمون شيئاً من ذلك إيذاناً بإيثار العافية . وطلب الدعة والأمان ! .

وكان نظام الموكب . موكب (زفة العريس) . يجرى على الوجه الآتى . الطبل البلدى وبين يديه طائفة من الغلمان والفتيان . ثم الموسيقى الأهلية ؛ إذا كان (العريس) على شىء من اليسار ، ثم حملة خواتم سليمان . تضطرب من فوقها ألسنة الشموع ، ثم جمهرة الفتوات يلوّحون بعصيهم فى الهواء . ثم حملة (الشمعدانات)

فى صفين متقابلين . ثم (العريس) يحيط به أصدق صحبه ، وفى أيديهم الشموع والأزاهير . وقد تقف القافلة بين حين وآخر لاستماع من يغنى القوم بالأغانى البلدية ، فتراهم يحسنون الإصغاء ، حتى إذا فرغ من نبرته عجوا بأصوات الاستحسان من نفس الطبقة التى يجرى فيها الغناء . وهنا تسمع الصياح من كل جانب من نحو (يا ربنا والملايكة) ! و (احنا الصبوات العيتر) !

فإذا بلغت (الزفة) فى مسراها ذلك الموضع ، أعنى الرقعة الواقعة بين مسجدى الحنفى والشيخ صالح ، إذ الأعداء متربصون هناك ، أذن المؤذن بنشوب القتال . وكانت أول عصاً تهوى على رؤوس الزمارين المساكين . فاكتسبوا هم الآخرون ، بطول التدريب والتمرين ، مهارة فى اتقاء الضرب ، وفى احتماله ، وفى الفرار ، وتولية الأدبار ؛ وكان أشدهم فى هذا عناء هم الطبالين لما يثقلهم من حملهم . وكثيراً ما تتخرق طبولهم بضربة العصا ، أو بقبضة يد من ضارب صناع !

ويزخر الميدان ، ويتلاقى الأقران ، ويستحر القتال والطعان . فلا ترى إلا عصياً تهاوى على الأبدان . فتشق الرؤوس شقاً ، وتدق الأصلاب دقاً ، وتخسف الأصداغ خسفاً ، وتقصف الأضلاع قصفاً ، والدماء تسيل حتى تجلل الثياب ، وتفيض على الأرض بما يروى من غلة التراب . وهذه الدماء هى أوسمة الشرف يتحلى بها الكماة الأبطال ، إذا رجعوا إلى معشرهم من معترك القتال .

ولقد تسمع الكمى وقد واجه عدوه وشرع عصاه ، وتهيأ للوثاب وهو يصيح : وارايا . . . وهو كلام قبيح لا يجوز رده على الآذان .

سيداتى ، سادتى :

لم يكن البوليس ليجرؤ ـ فى غالب الأحيان ، على اقتحام هذه الملاحم ، أو يستطيع ضبط تلك الوقائع ؛ بل لقد كان يولى عنها فراراً ! وهنا ينبغى أن يذكر أن أحداً من هؤلاء الفتوات أو أوليائهم لا يمكن ، ولو بجدع الأنف ، أن يتقدم بالشكوى إلى البوليس أو غير البوليس ، ولو كان الضرب قد أتلفه وأرداه ؛ بل لقد كان فى ذلك العار ليس بعده عار ، والشنار ليس وراءه شنار ! .

• • •

هذه كانت بعض مظاهر البطولة عند أولاد البلد فى الجيل الماضى ، وثمّ مظهر آخر من مظاهرها ، وأعنى به الحرب الجبلية ، ولا يتسع الوقت لوصفها وعرض حديثها ، ولعلنا نجرّد لذلك محاضرة أخرى !

ومهما نوصف هذه الحالة بالوحشية ، أو الهمجية ، أو الاحتفال للعدوان ، والخروج على النظام ، فلقد كانت بطولة لها قيمتها على كل حال ! .

ولسنا الآن بسبيل العوامل التى قضت على هذه البطولة عند أولاد البلد . ولكننا نسجل فقط أنها قضى عليها القضاء التام.ولم يبق من آ ثارها إلا مجرد ادعائها والتظاهر بها ، فيما تسمعه من هؤلاء أولاد البلد أثناء(الشروع فى الخناقات(من ألوان الوعيد والتهديد ، بتهشيم الآناف ، وتحطيم الأكتاف ، وتكسير الرؤوس ، وإزهاق النفوس ، فليس وراء هذا النفج (المعر) شىء أبداً .

الملحق الرابع عشر

حيل اللصوص وأكثرهم تحايلاً هم النشالون

محمد شاهين (مأمور بالسجون المصرية): كفاح الجريمة، المطبعة المتوسطة بمصر ١٩٣٦، ص ١٠٠-١٠٧.

هدا وقد وجدنا أن هناك ارتباطا وثيقا بين صناعه اللص وما يجنح إلى سرقته ، فالحداد يميل إلى سرقة أدوات الحدادة والعمارة . والنجار إلى عدد النجارة وملحقاتها . والنقاش إلى الزيوت والمساحيق الملونة . والمبيض إلى الجبس والأسمنت . وسائق السيارات إلى القطع التى تتكون منها ماكينة السيارة ، والخادم إلى الملابس وأدوات المطبخ والنقود . والمتشرد إلى النشل . والفلاح إلى المواشى والحبوب

ويلوح لنا أن العلة فى هذا الاختيار ترجع إلى رغبة اللص عادة فى سرقة ما يعود عليه بالنفع فى معاشه . ومن هنا تستطيع أن تستنتج أن الحاجة كثيرا ماتعين للص نوع المسروق

هدا ولصناعه اللص كذلك أثرها الفعال فى ابهاج طريقه ارتكاب السرقة . لأننا قد وجدنا كثيرا من اللصوص يستعينون بمعلوماتهم الفنيه كى يصلوا بها إلى ما يصبون اليه من المسروقات من أقرب طريق ، كالبراد الذى يفص الحراس بما يصنع لها من المفاتيح المصطنعة ، والنجار الذى يستخدم أدوات النجاره فى تهشيم ما استعصى فتحه من الأبواب والنوافد

حيل اللصوص — يعمد اللصوص إلى الحيلة عند السرقة حتى لا يكونوا عرضه للوقوع فى شرك الجريمة وأكثر اللصوص تحايلا فى بلادنا هم النشالون وهاك بعض الحيل التى يلجأ إليها اللصوص فى مصر قد جئنا بها على سبيل المثال فيما يلى .

١ ـ من اللصوص من يحمل كثيرا من القطع الفضيه ويعرضها على السابلة لتغييرها عما هو فى قيمتها من الأوراق الماليه ، بكوت ، . فاذا أعطيته ورقة من فئة الجنيه مثلا ، ناولك القطع الفضية ناقصة إحداها ، وطلب اليك أن تعدها لتطمئن إلى أمانته ، فاذا ما تبينت هدا النقص بادر بالاعتدار إليك وتظاهر بوضع القطعة الناقصه فى كفك ، فتأخذ فضتك

وتنصرف شاكرا ، وما تدرى أن هذا اللص اذ أعطاك هذه القطعة قد قبض بعضلات كفه على ضعفها أو ما يزيد فى أقل من لمح البصر ومن حيث لاتشعر بمكيدته . وهذا النشال فى عرف اللصوص يدعى «بالسهريجى».

٢ ـ ومنهم من يترك زميلا له بجوارك وأنت فى عرض الطريق ، ثم يمر أمامكما وإذا بحافظة نقوده تسقط على مقربة منك ، فيقع عليها بصرك ، وتبادر إلى التقاطها . فيسبقك اليها زميله ويفضها فيجدها محشوة بالأوراق المالية ، ثم يطلب اليك أن تكون الغنيمة قسمة بينكما والا أبلغ الشرطة فترضى . وبينما تتناجيان ، إذ يبدو لكما رب الحافظة الساقطة حانقا وقد أمسك بتلابيبك وتلابيب شريكك ، وطلب تفتيشكما . وعندها يهمس الذى هو بجوارك فى أذنك ان سلمه حافظتك واحتفظ بالأخرى خلاصا من هذه الورطة فتجيبه إلى طلبه عن طيب خاطر لاعتقادك أن التى عثرت عليها خير وأبقى . فاذا ما قبض هذا المحتال حافظتك التى اعطيتها إياه أدعى العجز فى ماله وصمم على أن تصحباه إلى مركز البوليس ، وهنا يتطوع زميله ويمضيان فى مظهر المتخاصمين ويذر انك فى مكانك مغتبطا ، لأنك قد فزت بحافظة مملوءة بالمال ونجوت من البوليس ومتاعبه ، ولكنك لا تلبث طويلا حتى تعلم أن الحافظة التى رضيتها بدلا من حافظتك لم يكن بها غير أوراق مزيفة لاقيمة لها ، فتدور بعينيك علك تعثر على هذين اللصين اللذين ائتمرا بك فلا تجد لهما أثرا . وهنا تعض بنان الندم وتعلم أنك كنت فى طمعك من الخاسرين . وهذه الطريقة تسمى « بالخسجية » .

٣ ـ ومنهم من يلقاك فى طريقك مذعورا ويتهمك بالعثور على مال سقط منه ، ويطلب تفتيشك ، فاذا ما عرضت عليه حافظة نقودك تفقدها ـ ، ثم ردها اليك معتذرا ، وتمر بصرك على ما بها فتلقاه كما هو ، فتمضى لسبيلك لا تلوى على شىء اذ أفلت من تهمة لم تكن فى الحسبان ، مع أن هذا الشرير

قد سلبك إحدى اوراقك ذات القيمة ووضع لك مكانها ورقة أخرى من شكلها ولكنها مزيفة كاذبة .

٤ ـ ومنهم من يلوث ملابسك بمادة قذرة وأنت سائر فى طريقك من حيث لا تشعر به ، ثم يلفتك اليها ويبدو لك فى زى الناصح الأمين ، ثم يتطوع ومن معه من حاشيته الى إزالة هذه القاذورات ، وينصرف اهتمامك الى تنظيف ملابسك بينما إحدى أيدى هذه الطغمة تسلبك مالك من حيث لا تدرى .

٥ ـ ومنهم من يلقاك فى زحام عند نزولك من إحدى مركبات الترام أو القطار أوعند صعودك اليها فيتصنع العجلة فى مشيته والارتباك فى حركاته ويرفع فى وجهك احدى يديه حتى لا يقع نظرك على فعلته ، بينما الأخرى تستل حافظة نقودك من مكانها .

٦ ـ ومنهم من يعمد الى شق الملابس بمشرط وخصوصا اذا كانت حافظة نقودك فى الملابس الداخلية ـ ومما يدل على أن بعض النشالين قدبرع فى استخدام هذه الطريقة واتقانها ما حدثنا به أحد رجال الحفظ قال ، لما كنت فى خدمة البوليس بالعاصمة جاءنى رجل قد نشلت حافظته بعد شق ملابسه ولا يعرف الجانى ، فأستعنت على كشف الخبر بكبير النشالين الذى صرح بأن هـذا الشق من يد فلان النشال بمجرد أن وقع نظره عليه . وكم كنت دهشا عند ما أثبت التحقيق فى النهاية صدق فراسته .

٧ ـ ومن اللصوص من يقصد المحال التجارية ويشترى شيئا تافها ومقصده الأول من ذلك معرفة المكان أو الدرج الذى يضع فيه التاجر نقوده ، ثم ينصرف ويرسل بزميل له ليبتاع شيئا آخر . غير أن الأخير بعد أن يأخذ ما اشتراه من هذا التاجر يدفع اليه بثمن أقل مما اشترى به ، وقديدلل على حسن نيته فيقدم قطعة من ذات المليمين مكان ذات القرشين لوجود

الشبه بينهما وينصرف متئدا فى مشيته ، فيفطن التاجر الى هـذا الأجحاف فينادي عليه ، فيدعى الصمم ، فيترك التاجر محل تجارته بغير تريث تاركا دراهمه عرضة للأيدى العابثة . وفى هذه الآونة ينقض اللص الأول الذى تربص للسرقة غير بعيد ويسلب التاجر ماله بينما زميله الآخر يقدم الاعتذارات وينقد هذا التاجر باقى الثمن الذى اشترى به . وهذه الطريقة تسمى « بالفوله ».

وبدهى أن هذه السرقة لا تتم الا باتفاق سابق بين أمثال هذين اللصين ، وفى المحال التجارية الصغيرة التى لا يوجد بها من العمال غير أربابها منفردين.

٨ ـ يجلس الصائغ عادة فى الأسواق العامة وأمامه بضاعتـه موضوعة داخل أحقاق من صفيح . فاذا أراد اللص اختلاس واحـد من هـذه الأحقاق بما فيها بعث الى هذا الصائغ بلص آخر فيلقى بجواره ومن ناحيـة أخرى قليلا من الدراهم ويوجه نظره اليها ليجمعها ، فينصرف اهتمام الصائغ الى جمع هذه الدراهم المبعثرة ظنا منه أنه صاحبها حقا . بينما اللص الأول قـد التقط حقا أو أكثر من حيث لا يراه . وتوارى عن الانظار بغنيمته البارده. وهذه اللعبة تسمى (بالتسويحة) .

٩ ـ ومن اللصوص من يطلى كفه بمادة لزجة ثم يطلب من الصائغ أو الصراف جنيها ذهبا من نوع خاص كى يصنعـة قرطا مثلا ، فاذا ما جاءه الصائغ ببضع جنيهات ووضعها أمامه لينتقى منها ما يريد ردها اليه بعد ان علق بكفه واحدا منها أو اكثر . ثم يضع يده التى أجرمت فى جيبه متظاهرا باخراج لفافة من التبغ . وعندها يسقط فيه ما علق بكفـه وينصرف مودعا لأنه لم يعثر على ضالته ـ وهذه السرقة تسمى (بالتعليقة).

١٠ ـ قـد يتظاهر أمامـك غلامان بأن يمسك كل منهما بتلابيب الآخر ويصيحان ، واذا برجل قد تظنه أباهما يضربهما ضربا مبرحا ، فتتقدم لترفع عنهما هذا العذاب ، فيستغيثان ويتعلقان بثيابك لتحول بينهما وبين هذا الآدمى

القاسى ، فاذا انتهت هـذه الضوضاء ومشيت لشأنك فانك تعجب كثيرا عندما تتفقد حافظة نقودك أو ساعتك فلا تجد لها أثرا ، وتذكر أن أحدا من هذين الغلامين قد نشلها منك من حيث لم تشعر به ؛ وتفتش عن أفراد هـذه العصابة البهلوانية فلا تهتدى اليهـا .

١١ ـ ومن اللصوص من إذا أرادوا سرقة محل تجارى حملوا زميلا لهم داخل دولاب ، حتى إذا جاءوا هذا المحل وضعوا الدولاب أمام بابه وجها لوجه . وجلسوا بجواره ، فاذا جاءهم الشرطى ظنهم حمالين يستريحون، أما الذى هو داخل الدولاب فيتولى فتحه ، ثم فتح المحل التجارى بقدر ما يسع جسمه ، ثم يغلقه خلفه . فاذا أتم جريمته دخل الدولاب بعد غلق المحل المسروق كما كان . ونقر بأصبعه لزملائه ، وهنا يعلمون أنه قد فرغ من عمله . فيحملون الدولاب وبداخله السارق وما سرق ويلوذون بالفرار من حيث لم يعلم بمكيدتهم أحد . وهذا العمل لا يقدم عليه اللصوص إلا بعد حصولهم على المفاتيح المصطنعة ومعرفة مكان الشىء المراد سرقته بالضبط .

١٢ ـ ومن اللصوص من يطرق باب منزلك ويوهم خادمك أنه رسول من قبلك لاستلام بعض ملابسك ، ويدلك على صدق رسالته بأمارات قد وقف عليها من قبل ، ثم يذهب بمـا أخذ إلى غير رجعة .

١٣ ـ ومن النساء السارقات من يدخلن المنازل ويوهمن السيدات أنهن يحملن روائح زكية ، فاذا ما أرادت ربة المنزل امتحان هذه الرائحة من طريق الشم أغمى عليها . فاذا ما أفاقت وجدت أن أثمن ما تملك من الحلى قد سرق وتبين لهـا أنها لم تشم إلا رائحة مخدرة .

١٤ ـ ومن اللصوص من لا يتم مظهره إلا على الأمانة لوجاهته ، فيركب معك السيارة ثم يطلب اليك أن تعير له احدى الأوراق المـالية بقطع فضية ، فتجيبه إلى طلبه مطمئنا ، ولـكنك لا تلبث عندما ترجع اليه حتى

يتبين لك أن الورقة كانت مزيفة . وأن هـذا اللص قد سار بالسيارة الى حيث لاتدرى ـ وسائقوا السيارات اكثر الناس عرضة لهذه السرقة .

هـذا بعض ما يلجأ إليه اللصوص المصريون من الحيل، ونفهم من مجموعها أن هذه الأساليب الشيطانية لاتنسجم ألا باتفاق بين لصين فأكثر وأنها لاتتبع غالبا ألا فى النشل أو السرقات العادية وأن النشالين يعتمدون أكثر ما يكون على ذكائهم وخفة أيديهم وان كان هـذا الذكاء مع الأسف لايستخدم إلا للكيد بالناس والنشالون يصرحون لنا فى غير مواربة أنهم يركنون كثيرا الى سرقة السذج من الناس كالفلاحين الذين يفدون الى المدن والبنادر لقضاء حوائجهم المعاشـية ، وحيث الأزدحام فى الأسواق والمجتمعات العامة .

أما أولئك الذين يقترفون جنايات السرقة بسلاح أو إكراه فعدتهم هى ما أوتوا من غلظة ووحشية لأنهم ينقضون على الآمنين فينزعون منهم أموالهم تارة بالأرهاب وطورا بالأغتصاب . والويل لمن يقف فى طريقهم للذود عن ماله أو الدفاع عن كيانه ، لأنه بذلك يعرض حياته لأعظم الأخطار .

وهـذا الصنف من اللصوص هم العصاة الجبارون ، والمردة الباغون ، والمقوضون حقا لصروح الطمأنينة . والهازئون بسلطان القانون . ولذلك كان جزاؤهم فى الشريعة الأسلامية تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف .

مجتمعات اللصوص — للصوص اجتماعات خاصة يعقدونها فى مقاهيهم وأمكنتهم التى يترددون عليها ، وهم اذا أجتمعوا تعاونوا على الأثم والعدوان كما يتعاون سائر الناس على الأعمال المشروعة ، وكل واحد منهم يكاد يكون إخصائيا فى سرقة شىء معين ، فأذا مابيت النية مثلا على سرقة محل تجارى

أستعان بمن عنده علم بالمفاتيح المصطنعة ، وأذا رغب فى سرقة أحد المساكن عمد الى من تفوق فى التسلق أو نقب الجدران.

وللسارقين وخصوصا فريق النشالين رؤساء يخضعون لأرشاداتهم ويأتمرون بأوامرهم ويقدسونهم كل التقديس ، حتى إنهم يبيعونهم أكثر ما تصل إليه أيديهم بثمن بخس وهم فيه من الزاهدين . والعلة فى ذلك أن معظم اللصوص كما قلنا من الفقراء الذين ينم مظهرهم على حقيقة حالهم . فأذا ما سلب أحدهم خاتما من ماس أو قطعة من ذهب مثلا ، لم يجد من نفسه الجرأة الكافية حتى يعرضها للبيع فى الأسواق خوفا من افتضاح أمره .

أما زعماء اللصوص فلهم حال خلابه ومنظر خداع . فأذا رأيتهم حسبتهم من ذوى الجاه واليسار ، وأبتعت منهم مايقدمون من حلى أو متاع من غير أن يداخلك فى أمرهم أقل ريب .

وكما أن للصوص زعماء . فللزعماء عملاء يتلقفون منهم ما يقتنصونه من أصاغر اللصوص ليتولوا دسه بين الجمهور والأنتفاع به بطرق شتّى .

ولرئيس اللصوص بينهم القول الفصل والحكم الذى لامعقب له ، فأن سرق لك شيء ثم اتصلت بزعيم من سرق وأعطاك موثقا برد بضاعتك اليك كان لك ما طلبت .

وهناك تضامن وثيق بين أفراد كل عصابة من عصابات اللصوص وعلى كل فرد منهم واجب مسئول عن أدائه أمام زعيمه .

أما طرائق السرقة وحبك شباكها وعقد الخناصر بين أفراد العصابة على البغى وغير ذلك من مكائد اللصوص فسر من أسرارهم الدفينة فى صدورهم، حتى أنك لن تستطيع أن تلم بشيء منها إلا أذا دب دبيب الخلاف بينهم وأستعنت ببعضهم على البعض الآخر .

وكما أن كل لص يتخصص فى سرقة أشياء معينة لاعتياده على طرق الوصول أليها، فكذلك الحال فى العصابات . فمنها مايحترف خطف الأولاد، ومنها ما يتخصص فى سرقة المواشى ، ومنها ما يتفرغ لاخفاء المسروقات وغير ذلك من صنوف البغى .

تصريحات اللصوص — لقد أردنا أن نزداد معرفة بدخائل اللصوص ووجهة نظرهم فى الحياة فتركنا للعشرات منهم حرية القول ، وطلبنا اليهم أن يفضوا الينا بدخيلة أمرهم ويذكروا الأدوار التى لعبوها والشباك التى نصبوها حتى أتموا جرائمهم ، فخاضوا حديث ما أقترفوا من السرقات على اختلاف أنواعها بالصراحة البريئة ، وما كانت الصراحة من أخلاق اللصوص . ولكنهم وقد قال القضاء فيهم كلمته وأضحوا بين جدران السجون ، لم يجدوا بدا من قول الحق . ونحن نكتفى بأن نقدم للقارىء بعض ما وقفنا عليه من هذه التصريحات .

هذا لص قروى فى العقد الثانى من عمره محبوس لارتكابه جناية سرقة بأكراه قال : « لى رفيقان فى القرية . أحدهما دون العشرين والثانى قد جاوز الثلاثين . وكان للأخير علاقة غرامية بأحدى الفتيات ، ولما كثر تردده عليها انكشف أمرها لشقيقتها التى بهرتها ، ونصحت لها بالأقلاع عن السير فى طريق مشوب بالفضيحة والعار . فلم تستمع الفتاة للنصيحة ونقمت عليها وأسرت فى نفسها الانتقام منها . شأن الأحمق أذا أردت هدايته للصراط السوى . ولكن بأى سلاح تنتقم ؟ . إنها تعلم أن أختها الناصحة وبعلها يملكان من حطام الدنيا عشرين جنيها وخاتمين وقرطا من ذهب ، وتعلم مكان هذا المال وذاك الحلى ، فاختلت برفيقها وقصت عليه قصتها ، وطلبت اليه أن يسرق هذه الأشياء بعد أن أوضحت له مكانها فلبى العاشق الطلب ، ثم التقى بى وبرميلى وكاشفنا الخبر . وكلمنا كلاما معسولا ، وعاهدنا

الملحق الخامس عشر

صفحات من حياة أحمد أمين وذكرياته عن معارك الفتوات

أحمد أمين: حياتى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القــاهرة ١٩٥٠، ص٢٦، ص ٣٣-٣٤.

وعنترة ، أو الكتب الأدبية الخفيفة ، ككليلة ودمنة والمستطرف في كل فن مستظرف .

ولم تكن قد سادت النزعة الأوروبية التي لا تقدّر الجوار فيسكن الرجل منهم بجوار صاحبه السنين ولا يعرف من هو بل قد يسكن معه في بيت واحد أو في شقة بجانب شقته ولا يكلف نفسه مؤونة التعرف به والسؤال عن حاله ، إنما كانت تسود النزعة الإسلامية التي تعد الجار ذا شأن كبير في الحياة ، فكان أهل حارتنا كلهم جيراناً ، يعرف كل منهم شؤون الآخرين وأسماءهم وأعمالهم ، ويعود بعضهم بعضاً عند المرض ، ويعزونهم في المآتم ويشاركونهم في الأفراح ويقرضونهم عند الحاجة ويتزاورون في « المناظر » فكل بيت من طبقة الأوساط كان فيه حجرة بالدور الأول أعدت لاستقبال الزائرين تسمى « المنظرة » ويتبادل في هذه « المناظر » أهل الحارة للزيارات والسمر

كانت حارتنا تشمل نحو ثلاثين بيتاً ، يغلق عليها في الليل باب ضخم كبير وراءه بواب ، وهذا الباب بقية من العهد القديم ، يحميها من اللصوص ومن ثورات الرعاع وهياج الجنود ، فإذا حدث شيء من ذلك أغلق الباب وحرسه البواب ، فلما استقر الأمن وسادت الطمأنينة استمر فتح الباب واستغنى عن البواب .

عدد الوَفَيات ، فالحالة الصحية أسوأ ما يكون ، لا عناية بنظافة ماء ولا بنظافة أكل ؛ وهم لا يعرفون طبيباً ، وإنما يمرض المريض فيعالجه كل زائر وزائرة — كل يصف دواء من عند العطار جربه فنجح ، والمريض تحت رحمة القدر . وقد يصاب أحد بالحمى فيزوره كل من أراد ، ويسلم عليه ويجلس بجانبه طويلاً ، ويحدثه طويلاً ، فتكون العدوى أمراً سهلاً ميسوراً ، ولذلك كان كثيراً ما يتخطف الموت أصدقائى من الأطفال من حولى .

لا تعجبَنْ من هالك كيف ثوَى   بل فاعجبنْ من سالم كيف نجا

ومنظر آخر عجيب شاهدته فى صباى ثم انقرض ، ذلك أنَّ فتيان حيِّنا ممن يشتغلون فى الحرف والصنائع قد يتخاصمون مع فتيانِ أمثالهم من الحىّ الآخر ، كأن يتخاصم حى المنشية مع حى الحسينية ، فيتواعدون على الالتقاء فى جبل المقطم فى يوم معين ، ويجتمعون إذ ذاك فينقسمون إلى معسكرين ، معسكر المنشية ومعسكر الحسينية ، وتقوم الحرب بينهما ، وأدوات الحرب الطوب والحجارة الصغيرة والعصىّ الغليظة . وتشتد المعركة وتسفر عن جرحى ، وأحياناً عن قتلى . وشاهدت هذا المنظر يوماً فرعبت منه ، حتى إذا أمسى المساء وقف القتال ، وتواعدوا على يوم آخر . وطووا صدورهم على الانتقام والأخذ بالثأر ، وتمتد الخصومة وراء

(٣ — حياتى)

المسكرين ، فيتربص أهل المنشية لزفة عريس من أهل الحسينية ويفاحشونهم فى أشد أوقات فرحهم ، وينهالون عليهم ضرباً ، ويقلبون الفرح غما ، وهكذا دواليك .

وعلى رأس كل مجموعة من الحارات سوق ، فيها كل ما تحتاجه البيوت ، وهو يمثل الوحدة الاقتصادية للأمة . وبجانب السوق كل مرافق الحياة الاجتماعية : مكتب لتعليم الأطفال ، ومسجد لصلاة أهل الحىّ ، وحمّام للرجال أياما ، وللنساء أياما ، ومقهى يقضون فيه أوقات فراغهم ، ويتناولون فيه كيوفهم ، من قهوة وشاى وتنباك ونحو ذلك . وفى الحى مقاهٍ متعددة ، منها ما يناسب الطبقة الدنيا ، ومنها ما يناسب الطبقة الوسطى وهكذا . فقلّ أن يحتاج أهل الحىّ إلى شىء أبعد من حيهم ، ومن أجل هذا كانت دنياى فى صباى هى حارتى وما حولها . وأطول رحلة أرحلها خارج حيّنا كانت يوم تذهب أمى وتأخذنى معها إلى الغورية أو حى الموسكى لشراء الأقمشة ، أو تأخذنى إلى بيت خالى قريباً من باب الخلق ، وهذه كل دنياى .

كانت الحارة وما حولها مدرسة لى ، تعلمت منها اللغة العامية القاهرية الصميمة ، من ألفاظها وأساليبها وأمثالها وزجلها ، وكان حينا — كما قلت — يمثل الحياة القاهرية الخالصة ، فمثلها مثل مراكز

الملحق السادس عشر

النشالين والمناصرة

بيرم التونسى: الأعمال الكاملة (٣)، بيرم والناس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦، ص ٥٣-٥٦.

النشالين والمناصرة

النشـالين والمنـاضرة والحراميّـه
أكتر من البيّاعين ومن الصنايعيّة
مقسّمين البلد أقسام نفوذ وخطوط.
وكل فرقة لها دايرة وداوريّة

من نشالين فى المحطة يمسكوا الأبواب
وبتلتميت مرحبًا يستقبلوا الركّاب
تطير فلوس الغريب مابين سؤال وجواب
أو يندبح بالطريقه الأمريكانيه

ونشّالين بالترامْ تخْتَص، والأتوبيسْ
محشّرين العبادْ ع المجفظه والكيسْ
وكل خَط. بْجماعهْ وللجماعه رئيس
يغرِسْ صوابعْ إديه فى عْينكْ وعْنَيّهْ

وصَنْفْ للسّيارات متجمْعين فى جراجْ
لابسين بِدَلْ زُرْقْ وهْباب الوجوهْ ماكياج
ييجوا فى عِزّ النهارْ ويوضّبوا المونتاج
ويشيلوا منْها العَجَلْ أو تنْسَرَقْ هيّهْ

وناسْ لَفتْح المنازلْ بسْ والدكاكين
منهم على بابْ حارتْنا، أربعين، خمسين
دكّان دخاخنى النهاردهْ مين
ح ينخرب بيته ويشْطبْ فى فجريّهْ

وفرقه للأسْطحَهْ دولْ كُلْهمْ أحداثْ
تطلعْ فى شمس الضحى تجْمَعْ غسيل الناسْ



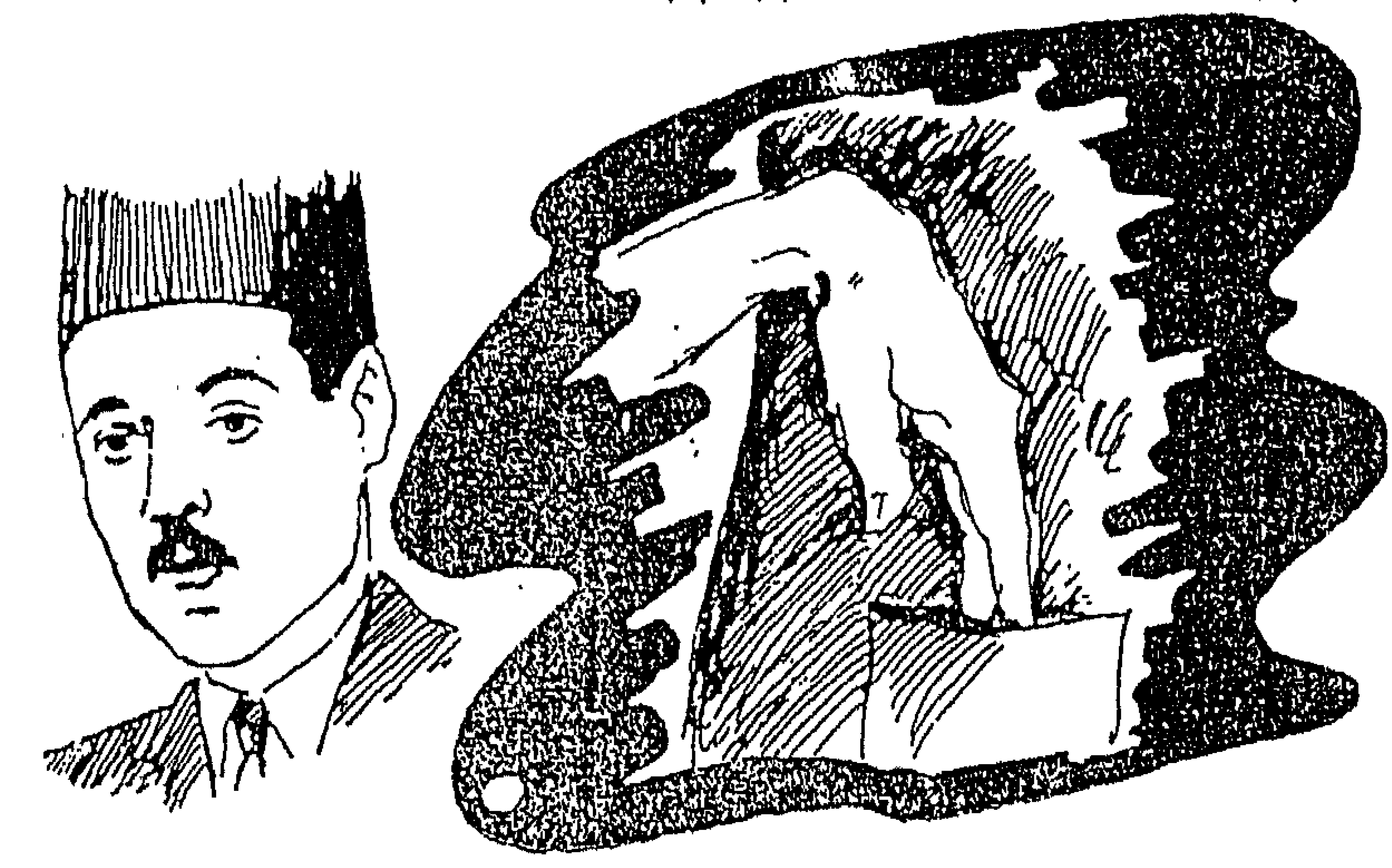
إن بينوك بالقميص مايبينوك بلباس
خلُّوا الغسيلْ أنشُرُهْ وألمُّهْ وأديُّهْ

أموال تضيع كل يومْ وبيحسبوها ألوف
مشونه فى قهوة شاوى نص حروف
بعزم على « بعضهم » فى الروحه والجايه
لوكنت مجبرْ ماهيش خمسة ستّهْ جبهْ
وبقولو هات الحرامى والحديدْ فى اديهْ
لايقول لى عقلى ح نفسص م الحكومهْ إيه
ماتقول ماشفتوش وتاخدْ خمسهْ فى الميّهْ !!

الملحق السابع عشر

النشـــل فـــن جميـــل

روزاليوسف: العدد ١٢٠٨، ٧ أغسطس ١٩٥١.



النشل فن جميل!

هل احتك بك شخص فى يوم ما ؟او شعرت بيد تدس فى الزحام ؟.. وهل تحسست حافظة نقودك اوساعتك اوخاتما ذهبيا فى يدك ،وافتقدت شيئامنها ؟!. ان كان شيئا من هذا حدث لك ،فارفع سماعة التليفون ، وادر القرص بالرقم المشئوم ١٣ ، واطلب الصاغ سيف اليزل خليفة وابلغه حادث نشل !.

ان الصاغ سيف اليزل خليفة يراس مكتب مكافحة النشل بالقاهرة منذ سبع سنوات وفى ادراج مكتبه يحتفظ بقصة النشل فى مصر وبكل اسرار هذه المهنة التى اصبحت فنا من الفنون .

ويقول الصاغ سيف اليزل أن داء النشل وفد الى مصر مع الجيوش التى ازدحمت بها القاهرة زمن الحرب العالمية الثانية ،أما سر بقائه بعد انتهاء الحرب ، فيرجع الى أسباب اقتصادية أولها نشل نظام الاسرة وتفاقم مشكلة البطالة للكبار والتشرد للاحداث .. فلم يحدث ان صادف فى حياته نشالا بالفطرة أو نشالا مريضا بالنشل نفسيا ،أويدفعه أى دافع غير الفقر لارتكاب جريمة النشل .

ويستطرد بعد ذلك فيقول ان النشل لم يكن يزيد فى مصر أولا عن حقائب السيدات أو شرط جيوب الرجال فى الزحام .. ثم أدخل النشالون أساليب النشل الحديثة المتبعة فى أمريكا وأوربا .. وأصبح من السهل ان تفقد حافظتك أو ساعتك دون أن تشعر بشىء ..

وفى مصر مدرستان للنشل احتكرتا تدريس هذا الفن : أما الاولى — وقد اغلقت أبوابها الآن — فكانت فى حى البغاء وأما الثانية — وقد تخرج فيها جميع نشالى القاهرة — فهى مدرسة باب الجديد بجوار تمثال نهضة مصر .

ومدارس النشل لها برنامج نظرى وآخر عملى : أما النظرى فثلاثة ساعات يقضيها النشال الحديث فى تعلم الجرأة وخفة اليد ، وأما البرنامج العملى فيبقى فيه النشال مدى الحياة حتى ولو دخل السجن أكثر من مرة .

ومن اطرف قصص مدارس النشل التى وقعت للصاغ سيف اليزل انه كان راكبا الترام وشعر بيد طفل فى السابعة من عمره ينشل كيس نقود من حقيبة احدى السيدات ولما قبض عليه صرخ وامسك برجل وسيدة كانا معه ولكنهما انكرا معرفتهما به ومع ذلك فقد راى الضابط فى دموع الحدث الصغير دلائل صدقه فقبض على الرجل ، وقد تبين انه خاله ، وعلى المراة وظهر انها عمته .

وقد ارشد هذا الحدث عن اسرته كلها ، وهى تحترف النشل ونصفها فى الاسكندرية والنصف الآخر فى القاهرة .. وهذه الاسرة كانت تنشل على الطريقة البلدية وهى ان تتسلل يد الحدث الى ماتصل اليه .. اوان يضربه الرجل بقسوة فيتدخل احد الناس ليحمى الصبى الصغير الذى ينتهز الفرصة ويهجم على الرجل الكريم وينشل منه ماتمتد اليه يده .

وقد بلغ عدد قضايا النشل فى القاهرة عام ١٩٥١ ، ٩٤٥ قضية حكم فيها بالسجن على ٣٣٤ نشالا .

وهذه الأرقام تتواضع كثيرا أمام أرقام عام ١٩٤٤ مثلا أى خلال الحرب — فقد بلغت قضايا النشل التى حكم فيها بالسجن

انتصار الحياة: قلب .. ومشرط!

بين اطباء العالم حرب باردة .. نشبت منذ اجيال بعيدة .. ولا تزال تدور حتى اليوم ..

وتقول آخر انباء المعركة ان الفريق الذى يؤمن بالمشرط ، قد طرد الفريق الذى يؤمن بالدواء ، من موقع هام كان يحتله منذ اكثر من عشرين عاما .. والموقع الذى تعنيه الانباء .. هو « القلب » ..

فمنذ بدات الجراحة زحفها الهائل فى مطلع هذا القرن ، والقلب ينهض امام علمائها كالصخرة الصغيرة .. لايجرؤ مشرط واحد على الاقتراب منه . فهو دائما ينبض ، ولا بد من ان يظل كذلك .. لان سكوته لحظة واحدة ، معناه سكوت الحياة .

وقد كانت هذه الحقيقة البسيطة وحدها كافية لان يظل مرضى القلب محرومين من نصيبهم فى معجزات المشرط ، وان تظل الجرعات والبلابيع والحقن هى كل وسائلهم فى الدفاع عن اعمارهم المهددة ..

ولكن الزحف الجراحى لم يؤمن يوما واحدا بالعجز .. بل ظل قادته يحاولون مرة بعد مرة ، ويطرقون اللغز من كافة نواحيه .. حتى افلحوا اخيرا كما قالت الانباء .. واصبحت معجزات المشرط لاول مرة فى التاريخ فى خدمة الذين يشكون من خلل فى قلوبهم .

والفكرة الجديدة ابسط مما كان يتوقع المتتبعون لهذه المشكلة .. فهى تتلخص — باختصار — فى اعارة المريض « قلبا مؤقتا » يعيش به ريثما يتم المشرط عمله فى القلب الاصيل !

ومهمة القلب — كما نعرف جميعا — هى ان يدفع الدم الى الجسم ، ثم يستقبله عند عودته ، ليدفعه مرة اخرى .. وهكذا .. وهى مهمة خلق القلب من اجلها متصلا باربعة انابيب : واحدة تحمل اليه الدم العائد من الجسم ، وثانية تحمل عنه هذا الدم الى حيث ينقى فى الرئتين ، وثالثة تعود اليه بدم الرئتين بعد ان ينقى ، ورابعة تحمل عنه الدم النقى الى انحاء الجسم من جديد ..

ولا شك ان اية مضخة تتصل بهذه الانابيب الاربعة ، وتمتص الدم من اثنتين منهما لتدفعه فى الاثنتين الباقيتين .. تستطيع ان تغنى تماما عن وجود القلب

وعلى هذا الاساس بنيت فكرة الجراحة الجديدة .. وقامت المصانع الطبية بصنع مضخة « ماصة كابسة » لها — كالقلب تماما — اربع فتحات .. وبداخلها صمامات تستطيع ان توجه تيار الدم الذاهب والعائد كما يوجهه القلب نفسه .

ويقوم الجراح عند بدء جراحته بتوصيل فتحات المضخة بالانابيب المتفرعة من القلب ... ثم يعقد خيطا متينا حول كل انبوبة قبل دخولها مادة القلب مباشرة . فيتحول تيار الدم عندئذ من القلب الى المضخة .

والقلب — بطبيعته — لاينبض الا اذا كان فى داخله دم . ومعنى هذا انه سوف يتوقف على الفور عندما يتحول التيار الى المضخة .. ويستحيل الى عضو ساكن يستطيع المشرط ان يقوم فيه بالمهمة التى يريد .

وعند ما تنتهى الجراحة بعد ذلك ، لايتعين على الجراح الا ان يفك الخيط المعقود حول الانابيب الاربعة .. ثم يبعد المضخة .. فيعود تيار الدم يجرى من جديد الى داخل القلب .. وتتم المعجزة الخارقة .

وقد يكون معنى هذا النبأ الجديد ان زحف الجراحة لن يتوقف ابدا .. وان السلام بين انصار المشرط وانصار الدواء لن يتحقق على الاطلاق .. ولكن من يريد لهذا السلام ان يتحقق ؟

ان المعركة بين الفريقين لا احد يريد لها ان تنتهى .. فهى معركة بلا قنابل .. ولا رصاص .. والذين يخوضونها لايقتلون الاحياء .

وانما يحيون القتلى !

« ح . ح »

في ذلك العام ١١٧٩ قضيـــة وكان عدد النشالين١٢٧٠ نشالا بينهم ٤٢٩ نشالة ٠ !

ومن اطرف طرق النشل الانجليزى ان يصادفك شخص ما ثم يسلم عليك باشتياق ويشد على يديك فاذا ما وجدك سهلا اخذك بالحضن وفي لمح البصر يكون قد استولى على نقودك ٠٠ انه حتما يكون قد راقبك طول سيرك ليتعرف اين تحتفظ بكيس نقودك ٠

اما طريقة النشل الامريكية فهي اكثر الطرق اتباعا في مصر ٠٠ وهي تتلخص في ان يجذبك شخص في الطريق الى التحدث معه ثم يستوقفكما ثالث ويسالكما هل رايتما ظرفا به نقود ؟! وطبعا يسبقك الصديق الدخيل وينفي ذلك ثم يطلب منكما هذا الشخص ان يفتشكما ، ومرة اخرى يسبقك الدخيل ليوافق وليعرض عليك انت شخصيا ان تقوم بتفتيشه امام الرجل المتسائل ٠٠ وفي خلال تفتيشه تعثر في جيبه على كمية كبيرة من النقود فتطمئن لشخصه ثم يقوم هو بتفتيشك ٠٠ ولا داعى لبقية القصة لان الصديق الدخيل وصاحب الظرف الوهمى نشالان على الطريقة الامريكية !

اقرأ

* ان تسعة أعشار الحكمة ، تكمن فى أن تكون الحكمة فى وقتها !

« ثيودور روزفلت »

● الزوجات : عشيقات للشبان ، ورفيقات للرجال ٠٠ وممرضات للكهول!

« فرنسيس باكون »

* ان ثراء الامم ليس فى قطنها او حريرها أو ذهبها ٠٠ انما ثراء الامم الحقيقى ، فى رجالها !

« ريتشارد هولى »

* أى مصيبة يمكن ان تلحق الامة، أفدح من أن تفقد الايمان ؟!

« اميرسون »

* اسهل بكثير ان تدافع المرأة عن فضيلتها بين الرجال من ان تدافع عن سمعتها بين النساء !

« روشبرون »

● مقاومة الطغاة من طاعة الاله ٠٠

«جيفرسون »

* أمارات التفوق فى الرجال ثلاثة : الخلق المتين الذى ينزههم عن الصغائر والحكمة التى تنقذهم من الحيرة ٠٠ والشجاعة التى تبعد عنهم جميع مظاهر الخوف !

«كونفشيوس »

* ان الفضيلة ليست فى الامتناع عن الرذائل فقط ٠٠ انما هى فى عدم اشتهائها!

« جورج برنارد شو »

* لم يستطع الطغاة بعد ، اكتشاف سلاسل تكبل العقول !

« كولتون »

* فى الامكان دائما معرفة الحقيقة من أى سياسى أمريكى ٠٠ بعد ان يتخطى السبعين ، او يفقد كل أمل فى رئاسة الجمهورية !

« وندل فيليبس »

أما اذا غازلتك حسنـاء تدل ملامحها على انها دخيلة على الثراء غير ربيبة نعمة ٠٠

أو اذا كنت فتاة واحتـك بك شاب أنيق فاحـذرى ان تستسلمى ٠٠ قد يكون هناك جريمة نشل على الطريقة الفرنسية ٠٠ ان أولها نظرة وابتسامـة ولكنها تنتهى دائما بخسـارة فادحة ٠ !

وفى أدراج مكتب مكافحـة النشل ألف قصة وقصة ٠٠ ولعل من اغربها قصة « المعتصم » ٠٠ النشـال الوقور الحـائز على ليسانس رسمى فى فن النشل

والمعتصم شاب صعيدى من حملة شهادة التوجيهية عجـز لظروف اقتصادية عن أن يلتحق بالجامعة ٠٠ أو أن يحصل على مورد يرتزق منه ٠٠ وقد تطوع فى خدمة الجيش فى أول الامر ٠٠ ولكنه كفر بالحيـاة العسكرية فتركها وامتهن النشل !٠

ولم يلبث ان ابتكر اسـلوبا غريبا فى النشـل ٠٠ واحتكر نوعا واحدا من المسروقات هـو الساعات ٠٠ فهو يسرق ساعتين فقط كل اسبوع : واحدة له ٠٠ والاخرى لزميله ٠

وطريقة المعتصم ان يقف بباب احدى المدارس الابتدائية ويتتبع تلميذا عند انتهاء اليوم الدراسى ، وبلباقة حامـل التوجيهية يندمج مع التلميذ فى الحديث حتى يستدرجه الى شارع هادئ ٠٠ ثم فجأة يصفع التلميذ البرئ على وجهه بقسوة ويتهمه بانه سرق حلق شقيقته ٠٠ وهنا يتدخل شخص يركب دراجة ويتظاهر بحماية الصبى فيوجه اليه المعتصم تهمة مشاركة التلميذ ويضربه بعنف فيستسلم ويعرض استعداده للقسم على النعمة والنعمة هى الساعة ويخلع ساعته ويقسم عليها انه برئ ثم يذهب ٠٠ ويمثل نفس دور القسم على النعمة مع الصبى الصغير الذى يكون قد انهارت اعصابه من اثر المفاجأة الغريبة ، فيخلع ساعته ويقسم ثم يلفها المعتصم فى منديل ويأمره الا يفتح المنديل قبل ان ينتهى الى آخر الشارع ٠٠ وطبعا حين يفتح الصبى منديله سيجد به اى شئ غير ساعته ويكون الزميل صاحب الدراجة قد عاد لياخذ المعتصم ٠

ان المعتصم هذا حين قبض عليه الصاغ سيف اليزل لم يقاوم بل استسلم واعترف وفى الطريق الى المحافظة استطاع ان ينشـل ساعة الصاغ نفسه ، الذى كاد يفقد صوابه من أثر المفاجأة ٠٠ وأسرع المعتصم الى خلف باب حجرة الصاغ ليقدم له الساعة التى [illegible] بها أثناء دخوله المكتب لفتح [illegible] التحقيق ٠٠



الملحق الثامن عشر

مـــــن آداب النشـــــل

الدكتور السعيد مصطفى السعيد: من أدب الجريمـــة، دار المعـــارف بمصر ١٩٦٤، ص ٢١-٢٣.

سبق أن أدين فيه . نقول كثيراً ما يكون ذلك ، وليس دائماً ، لأنه يحدث أن تكون صراحة المتهم وبالا عليه إذا لم تجد صدى طيباً فى نفس قاضيه

كان . . . قاضياً فى إحدى محاكم القاهرة الجزئية ، وكان معروفاً عنه العطف على المتهمين ، وبخاصة اللصوص . وكانت له فلسفة خاصة يسوّغ بها العقوبات الخفيفة التى يحكم بها على من تثبت لديه إدانتهم ، فهم يستحقون العطف لأنه لولا الفقر لما لجأوا إلى السرقة . واستمر هكذا حتى جاء يوم قبض فيه مبلغاً كبيراً من المال من إيراد وقف ، وذهب لأداء عمله فنشله اللصوص فى المحكمة . واهتمت دوائر الشرطة والنيابة بالأمر ، وعرضوا عليه عدداً كبيراً من اللصوص المعروفين ، ولكنهم لم يهتدوا لمعرفة الجانى ، وضاع المبلغ ، ولم تبق إلا الحسرة فى نفس القاضى . وانقضت على الحادث فترة من الزمن ، ثم عرض عليه أمر متهم بسرقة ملابس من سطح أحد المنازل ، ودافع المتهم عن نفسه بقوله « عيب يا بك أنا ما اسرقش حاجات زى دى ، أنا صحيح من ذوى السوابق ولكن شغلتى نشال ، وبالأمارة عرضونى على سعادتك لما انسرقت محفظة نقودك » . وعند ذلك ثار كامن الأسى فى نفس القاضى « الرحيم » وقال للمتهم « فكرتنى يا ابن الـ . . . » وحكم بحبسه سنة .

* * *

وفى جرائم القتل التى تقع بسبب العرض لا يتعدى الجانى فعل القتل ، وإن تعداه فبالتمثيل بالجثة تمثيلا يوحى بالدافع إلى الجريمة . وعلى أية حال لا تمتد يد القاتل إلى ما فى حوزة القتيل من أموال . ومن أجل ذلك يتجه

رجال الشرطة مباشرة إلى هذه الوجهة فى بحثهم إذا ما وجدوا أن الجانى لم يستول على ما يكون مع ضحيته من نقود أو أشياء لها قيمة مع قدرته على ذلك ، كأن يكون القتل بوسيلة تجعل الجثة فى مكنة القاتل ، كالخنق أو الذبح أو الطعن بالسلاح .

* * *

واللص « الشريف » لا يعتدى على العرض ، حتى لو سنحت له الفرصة عند اقتحام منزل مسكون أو مكان مستور .

* * *

والنشال الذى يشق الجيوب يحرص على ألا يتعدى السلاح إلى جسم المجنى عليه فيجرحه . فإذا ما أصابه كان ذلك خطأ كبيراً ، لأنه فضلا عن أن من شأنه أن ينبه المجنى عليه ، فهو مخالف لأصول « الصنعة » وآدابها . وقد سمعت فى هذا الشأن قصة رواها لى أحد أساتذتنا ، وقد وقعت فى أوائل هذا القرن لصديق له كان يعرف شيئاً عن نشاط النشالين وآدابهم . قبض هذا الصديق مرتبه فى أول الشهر بضعة جنيهات ذهبية أودعها كيس نقوده فى جيب صديريته ، وفى أثناء سيره فى الزحام شق نشال جيبه وسرق الكيس ، ولكن السلاح تعدى إلى جسمه فأحدث به جرحاً . لم يذهب إلى الشرطة ويبلغ عن الحادث ، وإنما اتجه مباشرة إلى حى بولاق حيث يستقر « شيخ النشالين » ، وكان لهم فى ذلك الوقت « شيخ » ، ولما دخل عليه حياه وكشف له عن القطع فى ملابسه والجرح فى صدره ، وقال له « قطع الملابس مفهوم ولكن الجرح لزومه إيه » . عند ذلك دعاه « الشيخ »

إلى الجلوس وسأله عن المكان الذى وقع فيه النشل ، ثم استدعى أحد أعوانه وسأله عمن عليه « دور الشغل » فى هذا المكان وكلفه باستدعائه فوراً ، وقدم القهوة للمجنى عليه . ولما حضر النشال طلب منه شيخه الكيس فسلمه له ، وعند ذلك أراه الجرح فى جسم المجنى عليه ، وصفعه على وجهه وقال له « ابقى شوف شغلك مضبوط » ، وسلم الكيس بما فيه من النقود لصاحبه ترضية له عما حدث خروجاً على « أصول الشغل » ، فأعطاه المجنى عليه بعض ما به وانصرف بالباقى .

ومن آداب النشل التى يحرص عليها بعض النشالين المعاصرين ، أن يرد النشال إلى ضحيته ما لا حاجة له به من أوراق ومستندات تعنى صاحبها وحده ، كالبطاقة الشخصية ، واشتراك الترام ، والمستندات الخاصة ، والأوراق العائلية ، وما إلى ذلك . وربما أرفق بها خطاباً يعتذر عن عدم رد النقود لحاجته إليها ، أو يتبرأ من تهمة السرقة ويدعى أنه وجد الأوراق ملقاة فى الطريق فحرص على ردها لصاحبها بدافع العطف والشهامة .

* * *

ولتعاطى « الحشيش » آدابه التى يحرص على اتباعها من يقدمونه للتعاطى ومن يتعاطونه . فأما الذى صناعته تقديم الحشيش فإنه يحرص على أن تكون آلة التدخين « الجوزة » جيدة الصنعة ، مزينة بأسلاك النحاس وصفائحه التى تشبه الذهب فى بريقها . ويعد المكان بحيث يتفق مع الجو الذى يحلو لزبائنه أن يتخيلوا وجودهم فيه إذا ما فعل المخدر فعله فيهم . وقد ذكر أحد كبار رجال الشرطة ضمن ذكرياته أن واحداً ممن كانوا

الملحق التاسع عشر

قيم الفتونة بين الرؤية والرؤيا الروائية

نجيب محفوظ: ملحمة الحرافيش (الملحمة الأولى: عاشور النـــاجى، الملحمة العاشرة: التوت والنبوت، المؤلفات الكاملة، المجلد الرابـــع، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٩٣، ص ٧٣٦، ص ٩١٧-٩١٨.

كانت معركة لم تسبق بمثيل من حيث عدد من اشترك فيها. فالحرافيش أكثرية ساحقة. وفجأة تجمّعت الأكثريّة واستولت على النبابيت فاندفعت في البيوت والدور والوكالات رجفة مزلزلة. تمزّق الخيط الذي ينتظم الأشياء وأصبح كلّ شيء ممكنا. غير أنّ الفتونة رجعت إلى آل الناجي، إلى عملاق خطير، تشكّل عصابته لأوّل مرّة أكثريّة أهل الحارة ولم تقع الفوضى المتوقّعة. التفّ الحرافيش حول فتوّتهم في تفان وامتثال. وانتصب بينهم مثل البناء الشامخ، توحي نظرة عينيه بالبناء لا بالهدم والتخريب.

- ٤٧ -

واجتمع بعاشور ليلا يونس السايس وجليل العالم كانا واضحي القلق، وقال شيخ الحارة:

- المأمول ألّا يقع ما يقتضي تدخّل الشرطة...

فقال عاشور في استياء:

- كم من جرائم ارتُكبت تحت بصرك وكانت تقتضي تدخّل الشرطة

فقال الرجل بلهفة

- معذرة، إنك أدرى الناس بظروفنا، أودّ أن أذكّرك أنك انتصرت بهم ولكنّك غدا ستقع تحت رحمتهم!

فقال عاشور بثقة:

- لن يقع أحد تحت رحمة أحد...

فقال الشيخ جليل العالم بإشفاق:

- لم يكبحهم في الماضي إلّا التفرّق والضعف

فقال عاشور بثقة أشدّ:

- إنّي أعرفهم خيرًا منك، عاشرتهم في الخلاء طويلًا، والعدل خير دواء...

فتردّد يونس السايس قليلًا ثمّ تساءل:

- والسادة والأعيان ماذا يكون مصيرهم؟

فقال عاشور بقوّة ووضوح:

- إنّي أحبّ العدل أكثر ممّا أحبّ الحرافيش وأكثر ممّا أكره الأعيان

- ٤٨ -

ولم يتوان عاشور ربيع الناجي ساعة واحدة عن تحقيق حلمه ذلك الحلم الذي جذب به الحرافيش إلى ساحته، ولقّنهم تأويله في الخلاء، وحولهم سه من صعاليك ونشّالين ومتسوّلين إلى أكبر عصابة عرفتها الحارة.

سرعان ما ساوى في المعاملة بين الوجهاء والحرافيش، وفرض على الأعيان إتاوات ثقيلة حتى ضاق كثيرون بحياتهم فهجروا الحارة إلى أحياء بعيدة لا تعرف فتوّة ولا فتونة وحتم عاشور على الحرافيش أمرين: أن يدرّبوا أبناءهم على الفتونة حتى لا تهن قوّتهم يومًا فيتسلط عليهم وغد أو مغامر. وأن يتعيش كل منهم من حرفة أو عمل يقيمه لهم من الإتاوات. وبدأ بنفسه فعمل في بيع الفاكهة، وأقام في شقّة صغيرة مع أمّه. وهكذا بُعث عهد الفتوّة البالغ أقصى درجات القوة وأنقى درجات النقاء. ولم يجد الشيخ جليل العالم بدًّا من الثناء عليه، والجهر بالتنويه بعدالته، وكذلك يونس السايس فعل، ولكنّه ارتاب في ضميرهما، ولم يشكّ في أنهما يتحسّران على الهبات التي كانت تتسرّب إليهما من الأعيان. وعند توزيع الإتاوات بين أفراد العصابة المحاربة.

وما لبث الشيخ جليل العالم أن هجر الحارة فعُيّن مكانه الشيخ أحمد بركات. ولما كان يونس السايس معيّنًا من قبل السلطة فقد تعذّر عليه هجرها، وكان يهمس وهو منفرد بنفسه في دكّانه:

- لم تبق في الحارة إلّا الزبالة!

وكان يعزّي بذات نفسه إلى زين عجينة الخمّار فتساءل الرجل في قلق:

- حتّى متى تدوم هذه الحال؟

فيقول يونس السايس:

- لا أمل مع بقاء الوحش على قيد الحياة

ثمّ يتنهّد مواصلًا

- لا شكّ أنّ أناسًا مثلنا تساءلوا بما نتساءل به الآن على عهد جدّه الأوّل. فاصبر وما صبرك إلّا بالله

- ٤٩ -

وجدّد عاشور الزاوية والسبيل والحوض والكتّاب، وأنشأ كتّابًا جديدًا ليتّسع لأبناء الحرافيش. ثمّ أقدم على ما لم يقدم عليه أحد من قبل فاتّفق مع مقاول على هدم مئذنة جلال. وقد كان يصدّ السابقين عن ذلك خوفهم من إغضاب العفاريت التي تسكنها ولكنّ الفتوّة الجديد لم يخف العفاريت. وقام صرح في الحارة عملاقًا كالمئذنة ولكنّه في الوقت نفسه مستقرّ للعدل والصفاء والطمأنينة. ولم يبدأ بتحدّي أحد من فتوّات الحارات ولكنّه كان يؤدّب من يتحدّاه ويجعل منه عظة للآخرين فتهيّأت له السيادة بلا معارك.

خاتمة

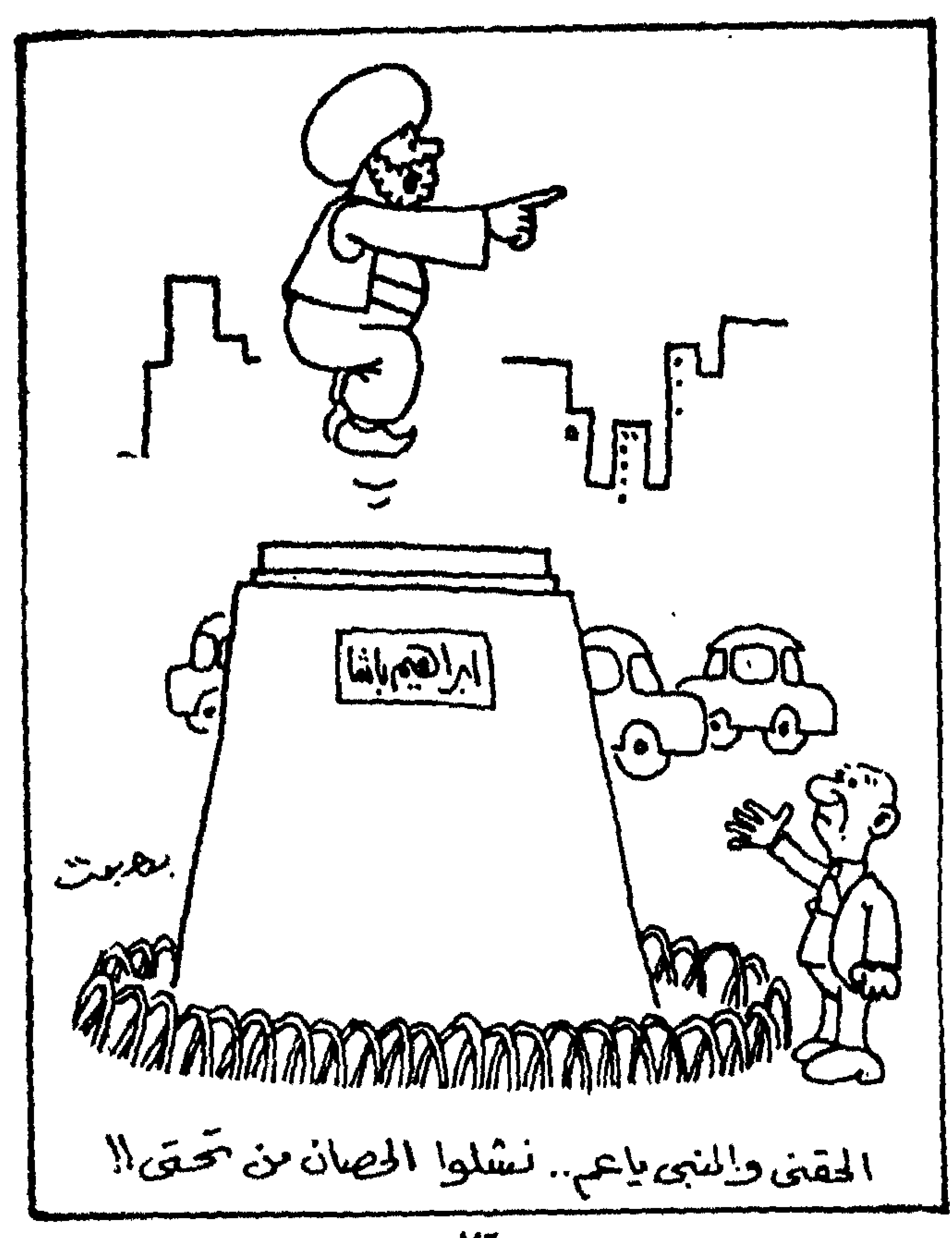
وكما توقّع الحرافيش فقد فتونه على أصول لم تعرف من قبل. رجع إلى عمله الأوّل ولزم مسكنه تحت الأرض، كما ألزم كلّ تابع من أتباعه عملًا يرتزق منه. وبذلك محق البلطجة محقًا ولم يفرض إتاوة إلّا على الأعيان والقادرين لينفقها على الفقراء والعاجزين. وانتصر على فتوّات الحارات المجاورة فأضفى على حارتنا مهابة لم تحظ بها من قبل، وحقّق لها الإجلال خارج الميدان كما سعدت في داخلها بالعدل والكرامة والطمأنينة.

وكان يسهر ليله في الساحة أمام التكيّة، يطرب للألحان، ثمّ يبسط راحته داعيًا «اللّهمّ صن لي قوّتي، وزدني منها، لأجعلها في خدمة عبادك الطيّبين».

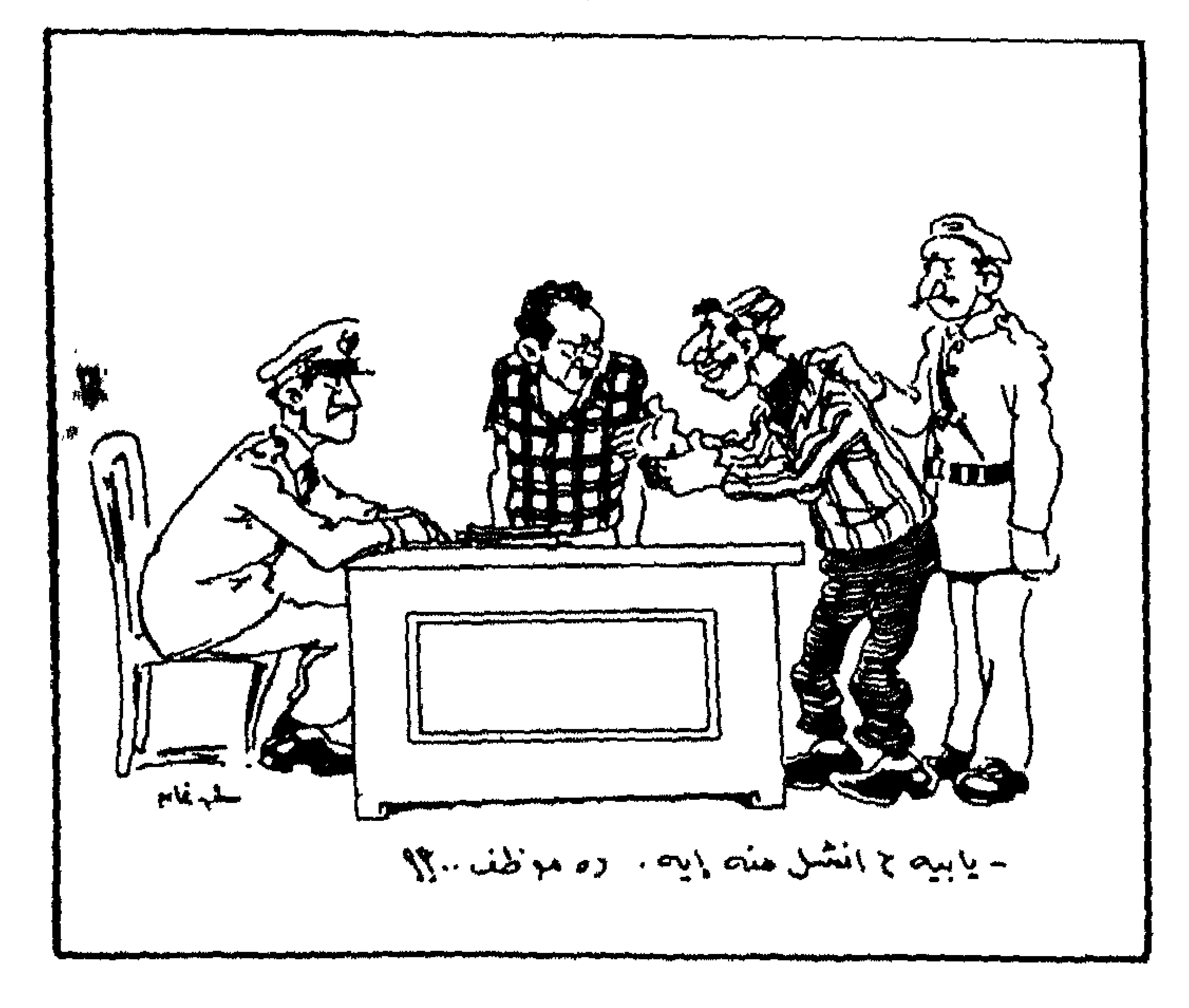
الملحق العشــرون

ضحكات ساخرة عن "النشل" فى نماذج من الكاريكاتير المعاصر

ضحكات بهجت: كتب الهلال للأولاد والبنات، العدد (٣٢)، ١٠ يناير ١٩٨٦، ص ٧٢، كاريكاتير طوغان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦، ص ٩١، ونماذج من ملحق أيامنا الحلوة، جريـــدة الأهرام، مارس ٢٠٠٢ – يناير ٢٠٠٣.



الحقنى والنبى ياعم.. نشلوا الحصان من تحتى!!



- يابيه ح انشل منه إيه. ده موظف..؟!



الأهرام ملحق أيامنا الحلوة
العدد ٣
٨ مارس ٢٠٠٢



الأهرام ملحق أيامنا الحلوة العدد ٤٩ ١٩ أبريل ٢٠٠٢


خلاص أنا نويت أتوب توبة نصوحة من السرقة وافتح مدرسة للنشل !!
سعيد ابو العينين
واجيبلكو فلوس منين ؟ (اسرق) يعنى ؟!
حمدى أحمد
القميص مضبوط يا أستاذ انت اللى «ايدك طويلة»

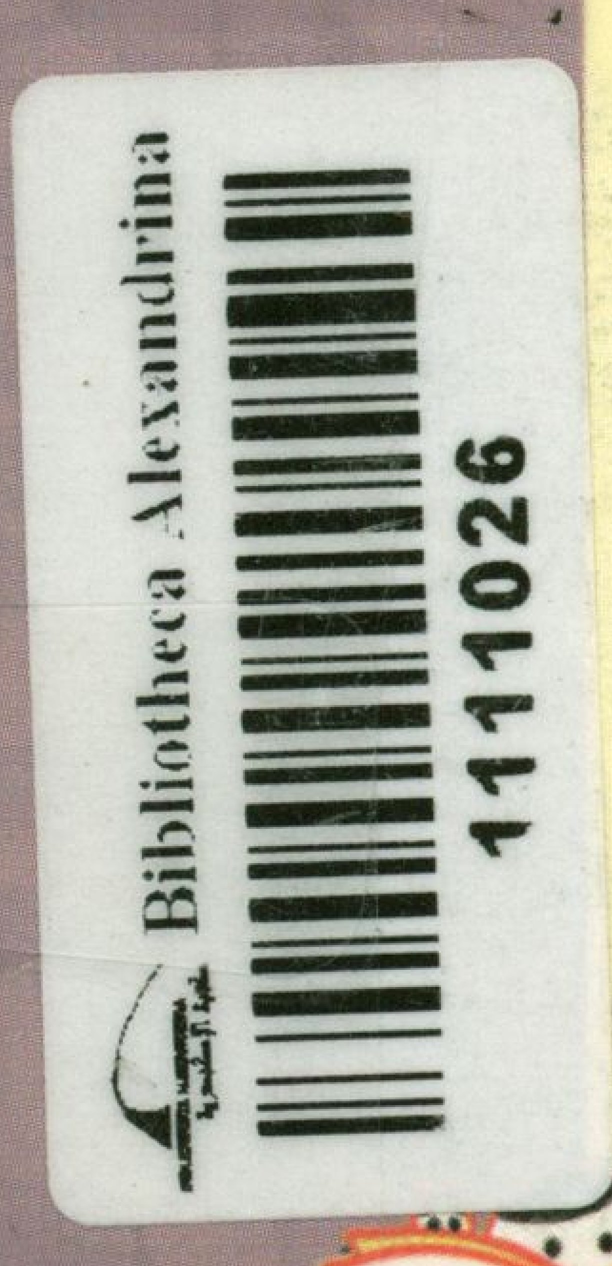
رقم الايداع : ٢٠٠٥/١٦٧٢٥
I.S.B.N 977-01-9837-4

تصدر هذه الطبعة بالتعاون مع
مركز البحوث والدراسات الاجتماعية.
كلية الآداب - جامعة القاهرة



إن القراءة كانت ولاتزال وسوف تبقى، سيدة مصادر المعرفة، ومبعث الإلهام والرؤية الواضحة .. وعلى الرغم من ظهور مصادر حديثة للمعرفة، وبرغم جاذبيتها ومنافستها القوية للقراءة، فإننى مؤمنة بأن الكلمة المكتوبة تظل هى مفتاح التنمية البشرية، والأسلوب الأمثل للتعلُّم، فهى وعاء القيم وحافظة التراث، وحاملة المبادئ الكبرى فى تاريخ الجنس البشرى كله.

سوزان مبارك



الثمن ٢٠٠ قرشًا